تفسير العهد الجديد

وليم باركلي

رسالة رومية



رسالة رومية

نقلها إلى العربية

القس منيس عبد النور



صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٣٠٤ ـ القاهرة

١٠/٢٥٨/٢ط/(أ) ٨٢(٥ ـ ١٠)
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٤٩٦٠ x ـ ٠٠٨ ـ ١٦٦ ـ ٩٧٧
طبع بمطبعة نوبـار

تفسير العهد الجديد

للدكتور

وليم باركلي

أستاذ العهد الجديد بجامعة كلاسكو

مجلس التحرير

يشترك عدد من المترجمين فى إصدار هذه السلسلة ، وتقوم بنشرها :

دار الثقافة المسيحية

ودار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية

محتويات الكتاب

تقديم

يعتقد كثيرون أن رسالة رومية أعظم أسفار العهد الجديد ، والواقع أنها أعظم الأسفار تأثيراً على اللاهوت البروتستانتى ، كما أنها أعظم الأسفار التى تحتوى على فكر بولس الرسول . وليست هذه الرسالة سهلة ولا بسيطة ، فإن بولس يقود فيها قارئه إلى أعماق الإيمان المسيحى ، وكثيراً ما تتوالى أفكاره فى تتابع يصعب تتبعه . على أنه مهما كانت الرسالة صعبة على الدرس والفهم ، فإن مجازاة درسها عظيمة . وكل ما أرجوه أن يكون هناك كثيرون راغبين فى بذل نشاط فكرى وهم يسبحون إلى أعماق هذا السفر الرائع .

وقد بذل كثيرون جهدهم لكتابة تفسير على رسالة رومية ، منهم و. ساندى ، أ . هيدلام ، تشارلس دود ، إ. جيفورد ، ك كيرك ، جيمس دينى ، كارل بارت ، أندرس نيجرين . والكاتب مدين بالأخص للمفسرين الثلاثة : دود ـ ساندى ـ هيدلام .

ولقد كان إختباراً رائعاً لى أن أعيش مع فكر بولس الرسول خلال الشهور التى كتبت فيها هذا التفسير ، وكل ما أرجوه هو أن تشرق أفكار بولس ، من خلال هذه الصفحات ، على القارىء الذى يرغب فى الوصول إلى قلب « إنجيل بولس » .

وليم باركلى

مقدمة عامة لرسائل بولس

رسائل بولس :

رسائل بولس من أمتع كتابات العهـد الجديد ، لأن كتابة رسالة تحمل الطابع الشخصى. وقد كتب ديمتريوس ، أحد النقاد القدامى قائلاً : « يظهر كل واحد منا نفسه فى رسائله .. ويستطيع القارىء أن يرى شخصية الـكاتب فى كتاباته ، لـكنه يراها أوضح ما يـكون فى رسائله » . ونحن نشعر أننا نعرف بولس جيداً لأنه ترك لنا العديد من رسائله . وفى هذه الرسائل فتح بولس قلبه وعقله للناس الذين أحبهم جداً . وفى هذه الرسائل نرى عقل بولس العظيم وهو يعالج مشا كل الـكنيسة الأولى ، كما نحس نبضات قلبه العامر بالحب للناس ، حتى للضالين والخاطئين !

صعوبة الرسـائل:

ولـكن لا يخفى أن أصعب ما يمـكن فهمه هو الرسائل . ويقتبس ديمتريوس قولاً لأرتيمون الذى حرر رسائل أرسطو ، جاء فيه أن الرسالة يجب أن تـكتب فى قالب حوار ، لأنه اعتبر أن الرسالة جانب واحد من الحوار . وبتعبير عصرى نقول إن قراءة رسالة تشبه الإستماع لحديث تليفونى من جانب واحد . وعلى هذا فإننا حين نقرأ رسائل بولس تواجهنا صعوبة ، فنحن لا نملك الرسالة التى يجيب عليها ، ولا نعرف بالضبط كل الظروف التى كان يعالجها . كل ما هناك أننا نستنتج الظروف التى دفعت على الـكتابة .

وعلى هذا فإننا فى فهم الرسائل نواجه صعوبتين : أولهما صعوبة فهم الرسالة نفسها ، والثانية معرفة الحالة التى تعالجها الرسالة . وعلينا أن نبنى لأنفسنا صورة الظروف التى دعت للـكتابة . !

الرسائل القديمة :

نحن مديونون فى تفسير العهد الجديد بالكثير للكتابات التى وصلتنا على ورق البردى ، الذى كانوا يصنعونه من نبات البردى الذى كان ينمو على ضفاف النيل . وقد احتفظت صحارى مصر الجافة بأكوام من المخطوطات ، وعقود الزواج والإتفاقات القانونية والصيغ الحكومية ، فإن ورق البردى يمكن أن يبقى فى حالة ممتازة مادام بعيداً عن الرطوبة. على أن أكثر ما وصلنا إمتاعاً هو الرسائل الخاصة، وجميعها مكتوبة بطريقة واحدة تقريباً .. ورسائل بولس مكتوبة بذات الطريقة التى كان الناس يكتبون بها رسائلهم كل يوم . ونورد لك هنا ترجمة لرسالة من جندى اسمه « أبيون » إلى أبيه « أبيماخوس » كتبها من «ميسينوم» ليفيد والده أنه وصل سالماً بعد رحلة عاصفة :

« أبيون يرسل تحياته القلبية لوالده وسيده أبيماخوس . أرجو فوق كل شىء أن تكون ناجحاً وصحيحاً ، وأن كل شىء يسير على ما يرام معك ومع أختى وابنتها وأخى . أشكر سيدى « سيرابيس » (يقصد إلهه) الذى حفظنى سالماً عندما كنت مسافراً بالبحر . وحالما وصلت إلى « ميسينوم » حصلت على نفقات الرحلة من قيصر — ثلاث قطع ذهبية . وكل شىء يسير على ما يرام معى . وأرجوك ياوالدى أن تكتب لى ، لأعرف أولاً أحوالك ، ثم عن إخوتى ، وثالثاً لأقبل يدك لأنك ربيتنى تربية حسنة،ونتيجة لها أرجو بإرادة الله أن أرقى. بلغ كابيتو سلامى القلبى وكذلك لإخوتى وسيرينيلا وأصدقائى . أرسلت لك صورة لى من رسم « أكتمون » . اسمى فى الجيش «أنطونيوس مكسيموس » . أرجو لك صحة حسنة . سيرنيوس يرسل تمنياته الطيبة ، كذلك أغاثوس (خادم ديعون) وتربو (ابن جالونيوس) » .

ولسنا نظن أن أبيون كان يعرف أننا سنقرأ رسالته التى كتبها لأبيه منذ ١٨٠٠ سنة . وهى ترينا أن الطبيعة الإنسانية لم تتغير ، فأبيون يرجو أن يرتقى

بسرعة . ومن تكون سيرنييلا إلا الفتاة التي تركها؟ وهو يرسل صورته لعائلته .

ونرى في رسالته الأقسام الآتية : (١) هناك التحية (٢) ورجاء بالصحة لمستلمي رسالته (٣) وشكر للآلهة (٤) ومحتويات ومعلومات خاصة (٥) وتحيات ختامية وسلامات شخصية . ونحن نكاد نجد هذه الأقسام الخمسة في كل رسائل بولس تعالوا نرى كيف فعل بولس هذا في رسائله :

١ ـ التحية : رومية ١ : ١ ، ١ كورنثوس ١ : ١ ، ٢ كورنثوس ١ : ١ ، غلاطية ١ : ١ ، أفسس ١ : ١ ، فيلبي ١ : ١ ، كولوسي ١ : ١ ، ١ تسالونيكي ١ : ١ ، ٢ تسالونيكي ١ : ١ .

٢ ـ الرجاء (الصلاة) : في كل حالة يطلب بولس نعمة الله لقارئيه ـ رومية ١ : ٧ ، ١ كورنثوس ١ : ٣ ، ٢ كورنثوس ١ : ٢ ، غلاطية ١ : ٣ ، أفسس ١ : ٢ ، فيلبي ١ : ٢ ، كولوسي ١ : ٢ ، ١ تسالونيكي ١:١ ، ٢ تسالونيكي ١:٢ .

٣ ـ الشكر : رومية ١ : ٨ ، ١ كورنثوس ١ : ٤ ، ٢ كورنثوس ١ : ٣ ، أفسس ١ : ٣ ، فيلبي ١ : ٣ ، ١ تسالونيكي ١ : ٣ ، ٢ تسالونيكي ١ : ٣ .

٤ ـ محتويات خاصة ومعلومات : وهي معظم رسالة بولس .

٥ ـ تحيات ختامية وسلامات شخصية : رومية ١٦ ، ١ كورنثوس ١٦ : ١٩ ، ٢ كورنثوس ١٣ : ١٣ ، فيلبي ٤ : ٢١ و ٢٢ ، كولوسي ٤ : ١٢ ـ ١٥ ، ١ تسالونيكي ٥ : ٢٦ .

ومن الواضح أن بولس اتبع طريقة الكتابة العادية في عصره . ويقول العالم الشهير « دايسمان » إن رسائل بولس لا تختلف عن الرسائل المكتشفة على ورق البردي إلا في أنها رسائل من بولس ، فإن بولس لم يكن يقصد أن يكتب وثائق لاهوتية ، ولكن حقائق روحية من صديق لأصدقائه .

حالات طارئة :

في معظم الحالات تقريباً كتب بولس رسائله ليواجه حالات طارئة فلم يكن

يجلس فى مكتبه فى هدوء وسلام ليكتب ، لكن كانت هناك حالات تهدد الكنائس فى كورنثوس وغلاطية وفيلبي وتسالونيكى . واحتاج الأمر إلى الكتابة السريعة لعلاج الحالة . وبالطبع لم يكن بولس يفكر فينا عندما كتب ، لكنه كان يفكر فى الناس الذين كتب لهم. ويقول « دايسمان » : « لم يكن فى فكر بولس أن يضيف كتابات جديدة إلى الرسائل اليهودية الموجودة ، ولا أن يغنى الأدب الدينى فى أمته .. ولم يكن يعلم أن ما يكتبه سيحتل مكانة فى التاريخ ، بل ربما لم يفكر فى أنه سيبقى للجيل التالى ، وبالطبع لم يتوقع أن ينظر الناس إلى كتاباته ككتابات مقدسة » .

ونحن لا نرى نقصاً فى أن هذه الرسائل كتبت لمواجهة حالات طارئة ، فإن أناشيد الحب كتبت لشخص واحد ، لكن العالم كله يحبها . والحقيقة أن رسائل بولس نابضة بالحياة لأنها كتبت لتعالج حالة خاصة . ولما كانت حاجات البشر لا تتغير ، فإن الله لا زال يكلمنا فى هذه الرسائل اليوم ، فكل ما كتب كتب لأجل تعليمنا .

الكلمة الشفوية:

فى العادة لم يكتب بولس رسائله ، لكنه كان يمليها على كاتب ، وكان يوقع عليها لتأكيد صحتها . وقد كتب أحد هؤلاء وسط الرسالة: « أنا ترتيوس كاتب هذه الرسالة أسلم عليكم فى الرب »(رومية ١٦:٢٢) . ويقول بولس : « السلام بيدى أنا بولس » (١ كورنثوس ١٦ : ٢١) وكأنه يقول إن توقيعه بالسلام علامة صحة نسبة الرسالة إليه . (قارن : كولوسى ٤ : ١٨ ، ٢ تسالونيكى ٣ : ١٧)

وهذا يوضح لنا بعض الحقائق فى أسلوب كتابة بولس ، فبعض جمله تبدأ ولا تنتهى ، وبعضها يطول ، مع جمل اعتراضية . وسبب هذا أن بولس لم يكن جالساً على مكتبه يعيد ما يكتب ويعدله ، لكنه كان يملى بسرعة، وسكرتيره يحاول

اللحاق به فى الكتابة ! وعندما كان على كانت صورة المكتوب إليهم ماثلة فى ذهنه ، فكان يسكب قلبه لهم فى الكلمات التى تندفع من فمه فى محاولة لمساعدتهم. وعلى هذا فإن كتابات بولس ليست بلاغة لغاية منظومة فى عقد ، لكنها خطرات قلب عامر بالحب ، حية ، تنصب من قلبه إلى قلوب أصدقائه الذين يكتب إليهم .

مقدمة عامة لرسالة رومية

الرسالة الفريدة :

رسالة رومية تختلف عن بقية رسائل بولس فى جوها وفى أسلوبها ، ويتضح هذا الإختلاف حالما تقرأ رسالتى كورنثوس. ويعود جانب كبير من هذا الاختلاف إلى أن بولس لم يؤسس كنيسة رومية. ولم تكن تربطه بأعضائها صلة شخصية ، وعلى هذا فإن رسالة رومية تكاد تخلو من معالجة المشاكل العملية التى تملأ رسائل بولس الأخرى . ولهذا فإننا نرى لأول وهلة أن رسالة رومية رسالة عامة غير شخصية ، أو كما يصفها ديبليوس بأنها « أقل رسائل بولس معالجة للحالة الآنية العاجلة » .

ورسالة رومية بحث لاهوتى. فى الرسائل الأخرى يعالج مشكلة مفاجئة عاجلة تضغط عليه ليصحح خطأ أو ليدرأ خطراً يهددان الكنيسة التى يكتب إليها ، ولكن رسالة رومية أقرب إلى مذكرة تفسيرية لموقف بولس العقائدى .

وصية ومناعة :

أطلق إثنان من أعلام المفسرين صفتين على رسالة رومية، فقد دعاها «ساندى»: « وصية بولس ».وكأن بولس فى رومية يكتب وصيته الأخيرة التى يضمنها عقيدته وإيمانه ، فقد كانت رومية عاصمة أعظم إمبراطورية فى العالم وقتئذ ، ولم يكن بولس قد زارها ، ولم يكن يعلم إن كان سيزورها ، ولكنه فى كتابته سجل لها عقيدته وإيمانه . أما « بورتون » فقد دعاها « مناعة » أى أنها تعطى مناعة ضد الفساد الذى يتسبب عن الأفكار الخاطئة والميول الملتوية والعقائد المضلة . ولذلك فقد كتب بولس للكنيسة الموجودة فى أعظم بلاد العالم رسالة توضح أسس الإيمان السليم ، فإذا جاءت عليها ضلالات وانحرافات فإنها تجد حقائق الإيمان السليم التى تدحض الخطأ . وقد عرف بولس أن مناعة رومية تكمن فى الإيمان الطاهر والعقيدة الصحيحة .

مناسبة كتابة الرسالة :

كانت كل حياة بولس مشغولة بروما ، وكان يتوق إلى زيارتها للوعظ فيها . وعندما كان فى أفسس خطط لزيارتها ماراً بأخائية ومكدونية ، وقال : « إنى بعدما أصير هناك ينبغى أن أرى رومية أيضاً » (أعمال ١٩ : ٢١) . وعندما سارت الأمور ضده فى أورشليم ، وبدت نهايته قريبة ، رأى رؤيا شجعته قيل عنها : « فى الليلة التالية وقف به الرب وقال : ثق يا بولس لأنك كما شهدت بما لى فى أورشليم ، هكذا ينبغى أن تشهد فى رومية أيضاً » (أعمال ٢٣ : ١١) . ويعبر بولس عن رغبته فى زيارة المدينة العظيمة فى أول أصحاح من الرسالة إلى أهلها : « لأنى مشتاق أن أراكم لكى أمنحكم هبة روحية لثباتكم » (رومية ١ : ١١) — « فهكذا ما هو لى مستعد لتبشيركم أنتم الذين فى رومية أيضاً (رومية ١ : ١٥) . ويمكن أن نقول إن رومية كانت منقوشة على قلب بولس .

وعندما كتب بولس رسالته إلى رومية نحو عام ٥٨ م كان فى كورنثوس ، وكان تحقيق حلمه فى زيارة روما وشيكاً ، ولكنه لم يبلغه ، لأن كنيسة أورشليم (أم الكنائس) كانت تعانى الفقر وخطط بولس للجمع من الكنائس الجديدة تبرعات لمساعدة الكنيسة الأم (١ كورنثوس ١٦ : ١ ، ٢ كورنثوس ٩ : ١) . وكان هذا الجمع وسيلة لمعاونة المسيحيين للتعبير العملى عن إيمانهم ، كما كان تجسيداً لفكرة الوحدة المسيحية للكنيسة ، فليست الكنيسة جماعات منعزلة ، لكنها جسد واحد ، يحس كل عضو من أعضائه بمسئوليته من جهة باقى الأعضاء . وعندما كتب بولس لرومية كان يحمل العطايا لكنيسة أورشليم وقال : « ولكن الآن أنا ذاهب إلى أورشليم لأخدم القديسين » (رومية ١٥ : ٢٥) .

هدف كتابة الرسالة :

ولكن لماذا كتب بولس رسالته فى ذلك الوقت ؟

(ا) كان بولس يعلم أن زيارته لأورشليم لها مخاطرها ، فإن أعداءه فى

أورشليم كثيرون ، وهو عندما يذهب إليهم يضع نفسه فى يده . ولذلك فهو يطلب صلوات كنيسة رومية لأجله « فأطلب إليكم أيها الأخوة ، بربنا يسوع المسيح ، وبمحبة الروح ، أن تجاهدوا معى فى الصلوات من أجلى إلى الله ، لكى أنقذ من الذين هم غير مؤمنين فى اليهودية ، ولكى تكون خدمتى لأجل أورشليم مقبولة عند القديسين » (رومية ١٥ : ٣٠ ، ٣١) .

كان بولس يجمع صلوات المؤمنين قبل القيام بمهمته الخطرة !

(ب) كان فكر بولس مليئاً بخطط جديدة لنشر الإنجيل ، وكان يريد الوصول إلى مناطق جديدة لنشر الرسالة ، فكلما رأى سفينة راسية فى مرفأ كان يريد ركوبها لتنقله إلى مكان جديد ، وكلما رأى جبلاً أراد تسلقه ليوصّل قصة الصليب للذين لم يسمعوها . وفى هذا الوقت كان بولس يريد الوصول إلى أسبانيا « فمتى أكملت ذلك ، وختمت لهم هذا الثمر ، فسأمضى ماراً بكم إلى أسبانيا » (رومية ١٥ : ٢٨) . « فعندما أذهب إلى أسبانيا آتى إليكم » (رومية ١٥ : ٢٤) . فلماذا أراد بولس أن يذهب إلى أسبانيا ؟ . . كانت روما قد فتحت أسبانيا ، وشقت الطرق الموصلة إليها ، والتى لا زال بعضها موجوداً حتى اليوم . وقد لمع اسم كثيرين من الأسبان فى ذلك الوقت ، منهم « مارتيال » سيد من كتب الأبيغرام (قصيدة قصيرة مختتمة بفكرة بارعة أو ساخرة) ومنهم « لوكان » شاعر الملاحم ، ومنهم « كولو ملا » ، وبومبونيوس ميلا » الأديبان العظيمان ، ومنهم « كونتليان » قائد الخطباء ، وفوق الكل « سنيكا » الفيلسوف الرواقى ، أستاذ نيرون ورئيس وزراء الرومان . كانت كل هذه الأسماء اللامعة فى فكر بولس . . ماذا يحدث لو أن نعمة المسيح لمست هؤلاء ؟ كان بولس يعلم أن أحداً لم يذهب بالرسالة المسيحية إلى أسبانيا ، وكان يرجو أن يفعل .

كان بولس سيد الاستراتيجية الكرازية ، وكان يرى أراضى الترب العذر التى لم تصلها رسالة المسيح . ولكنه كان محتاجاً إلى « قاعدة » ينطلق منها بالرسالة ، كما كان محتاجاً إلى مركز للعمل . وكانت هناك قاعدة ممتازة وحيد

فى نظره ،هى مدينة روما . ولذلك كتب بولس رسالته إلى رومية ، وحلم التوسع فى الكرازة يسيطر على كل فكره . كان يعلم أن كنيسة روما تعرف اسمه ، ولكنه كمفكر واقعى كان يعلم أن التقارير التى وصلتهم عنه ربما كانت مشوشة غير واضحة ، فقد نشر أعداؤه اتهامات كثيرة ضده ، فأراد أن يسجل إيمانه وعقيدته فى هذه الرسالة ، حتى إذا جاء الوقت ووصل إلى روما يجد كنيسة متعاطفة معه ، يجعلها قاعدة لإمتداد كرازته إلى الغرب ، إلى أسبانيا . كانت هذه أفكار بولس عندما جلس فى كورنثوس عام ٥٨ م يكتب رسالته إلى كنيسة روما .

أقسام رسالة رومية :

الذى يقرأ رسالة رومية يحس أنها مكتوبة بعناية كاملة ، ويرى فيها الأقسام الرئيسية الآتية :

١ — أصحاحات ١ — ٨ تتحدث عن مشكلة التبرير .

٢ — أصحاحات ٩ — ١١ تتحدث عن مشكلة اليهود ،شعب الله المختار .

٣ — أصحاحات ١٢ — ١٥ تتحدث عن أمور عملية فى الحياة والسلوك .

٤ — أصحاح ١٦ الذى يقدم فيه « فيبى » وتحيات شخصية .

١ — عندما يتكلم بولس عن « التبرير » يقصد : العلاقة السليمة مع الله . فالبار هو صاحب العلاقة السليمة مع الله والذى تظهر آثار هذه العلاقة فى حياته . يبدأ بولس بمسح للعالم الوثنى (الأمم) يظهر فساده ، الأمر الذى يوضح أنه لم يجد حلاً لمشكلة البر . ثم يتحدث عن اليهود الذين أرادوا حل المشكلة بطاعة الناموس ولكنهم لم يصلوا للحل ، لأن أحداً فى العالم لا يقدر أن يطيع الناموس طاعة كاملة ، ولذلك فإن كل البشر يشعرون أنهم مديونون لله ، وأنهم تحت حكم غضبه . ويجد بولس الحل لهذه المشكلة فى الخضوع الكامل للرب وفى التسليم

له . والطريقة الوحيدة التي توصل للتبرير هي أن يضع الإنسان ثقته في كلمة الله ويلقي بنفسه تماماً على رحمته ومحبته . وهذا هو الإيمان ، الذي لا يفكر في ما يستطيع أن يقدمه الإنسان لله ، بل في ما يستطيع الله أن يقدمه للإنسان . وعلى هذا فبولس يقول إن الإنسان لا يمكن أن يربح رضى الله أو يشتريه ، ولكن الله في نعمته ينعم على الإنسان برضاه ويهبه له ، وكل ما على الإنسان أن يفتح قلبه ليقبل محبة الله ، في شكر على ما فعله الله · وليس معنى هذا أن الإنسان حر أن يفعل ما يشاء ، لكن معناه أن الإنسان يشعر بمديونيته لله ، فيجتهد أن يحيا حياة تليق بمحبة الله التي أعطته الكثير . ويحدث تغيير في حياة الإنسان ،فلا يعود يحاول طاعة أوامر الناموس في خوف وتثاقل ، ولا يعود يرى نفسه كمتهم أمام قاض مخيف ، لكنه يرى نفسه كمحب يقدم حياته كلها في محبة لمن سبق فأحبه أولاً . . .

٢ — أما مشكلة اليهود فهي مشكلة صعبة . فمن جهة تاريخية هم شعب الله المختار ، لكن عندما جاء ابن الله إلى العالم رفضوه . فما هو تفسير هذا الرفض الذي يكسر القلب ؟ بولس يقول إن هذا عمل الله . لقد تقسَّت قلوب اليهود ، ولكن ليس كلهم ، فقد كانت تبقى دوماً « بقية أمينة » . صحيح أنهم رفضوا ، لكن رفضهم فتح الباب أمام الأمم ليقبلوا الإيمان . وليست هذه نهاية الأمور، فإن الأمم سيجيئون باليهود للإيمان ، فيخلص الكل · على أن بولس يوضح لليهود أنهم كانوا مخطئين عندما ظنوا أنهم شعب الله المختار ، لا لسبب إلا لأنهم ينحدرون من صلب إبرهيم ومن دمه ، ويقول : « بل إن اليهودي الحقيقي هو الذي سلم نفسه لله في ثقة ومحبة كما فعل ابرهيم . وعلى هذا فهناك « يهود » كثيرون بالروح والحق ، ولو أنهم ليسوا من صلب ابرهيم أو نسله ، فليست اليهودية جنسية أرضية ، و « إسرائيل الله » هم كل من لهم إيمان ابراهيم وميوله واتجاهاته من نحو الله . وعلى هذا فإن شعب الله المختار هم كل من يؤمن كما آمن ابرهيم ، مهما كانت جنسيتهم أو أصلهم .

٣ — أما الأصحاح الثانى عشر من رسالة رومية فهو قواعد أخلاقية سامية يمكن أن نضعها بجوار الوعظة على الجبل ، ففيه يشرح بولس قواعد الإيمان المسيحى فى السلوك . أما الأصحاحان الرابع عشر والخامس عشر فيعالجان مشكلة بعض الناس الذين رفضوا تناول بعض الأطعمة والمشروبات ، واهتموا ببعض الأيام والمناسبات وبولس يعتبر هؤلاء « الأخوة الضعفاء » لأن إيمانهم يعتمد على أشياء خارجية . وكانت هناك جماعة متحررة الفكر حررت نفسها من كل قوانين وترتيبات . ويعتبر بولس أن هؤلاء أقوى إيماناً ، ويبين انعطافه مع هؤلاء المتحررين ، ولكنه يضع القاعدة التي تقول إننا لا يجب أن نعمل شيئاً يعثر الأخ الضعيف أو يضر إيمانه ، ولا يجب أن نعمل شيئاً يصعّب الحياة المسيحية على أى إنسان ، حتى لو اضطرنا هذا إلى أن نتنازل عن شىء نعتبره صحيحاً ، من أجل خاطر أخ ضعيف لا يجب أن نستعمل الحرية الشخصية لنؤذى حياة الآخرين أو ضمائرهم !

٤ — أما الجزء الرابع فهو ختام الرسالة ، وهو توصية لفيبي ، عضو كنيسة كنخريا ، المسافرة لروما . ثم تختم الرسالة بتحيات خاصة ، وبالبركة .

مشكلتان :

١ — يشكل الأصحاح السادس عشر من رسالة رومية مشكلة للاهوتيين ، فقد ظن البعض أنه ليس جزءاً من رسالة رومية ، بل هو جزء من رسالة أخرى ، ألحق برسالة رومية عند جمع الرسائل . فلماذا يظنون ذلك ؟

أولاً ، لأن بولس يذكر اسم ستة وعشرين شخصاً ، يذكر أربعة وعشرين منهم بالإسم وكأنه يعرفهم جيد المعرفة ، حتى أنه يقول عن أم روفس إنها أمه . فكيف يعرف بولس ستة وعشرين شخصاً فى كنيسة لم يزرها أبداً ولم يؤسسها ؟ إنه يحيّي فى هذه الرسالة عدداً أكبر من الذى يحييه فى أى رسالة أخرى ، مع أن قدميه لم تطئا روما . . فكيف يكون هذا ؟

لـكن لو لم يكتب الرسول هذا الأصحاح لـكنيسة رومية ، فلأى كنيسة أخرى كان سيكتبه ؟ ففى رومية أقام أكيلا وبريسكلا زوجته حتى طرد كلوديوس قيصر كل اليهود من روما عام ٥٢ م (أعمال ١٨ : ٢) فسافر أكيلا وزوجته إلى أفسس (أعمال ١٨ : ١٨) . ونعلم أنهما كانا فى أفسس عندما كتب بولس رسالته لـكورنثوس قبل ذهاب بولس لروما بسنتين (١ كورنثوس ١٦ : ١٩) وكانا باقيين فى أفسس حتى وقت كتابة الرسائل الرعوية (٢ تيموثاوس ٤: ١٩) . فإن كان بولس يكتب تحية لأكيلا وبريسكلا ، فيكون الخطاب موجهاً إلى أفسس. وقد صرف بولس وقتاً طويلاً فى أفسس عرف خلاله عدداً كبيراً ، ومن الطبيعى أن يرسل لهم تحيات كثيرة . ثم يسلم بولس على أبينتوس حبيبه ، أول من آمن فى إقليم أخائية الذى تقع أفسس فيه . وعلى هذا فمن الأصح أن يكون الـكلام هنا موجهاً إلى أفسس . ويتحدث رومية ١٦ : ١٧ عن « الشقاقات والعثرات خلافاً للتعليم » مما يدل على أن هناك عصياناً لما سبق أن علم به ، وهو لم يعلم فى روما .

يمكن أن نقول إن الأصحاح السادس عشر من رومية كان موجهاً إلى أفسس، ولـكن هذه البراهين ليست قوية كما تبدو ، فلا يوجد دليل على أن هذا الأصحاح أضيف إلى أية رسالة أخرى غير رسالة رومية . ثم إن من عادة بولس ألاّ يرسل تحيات كثيرة للـكنائس التى يعرفها ، فلا تحيات شخصية فى رسائل تسالونيكى وكورنثوس وغلاطية وفيلبى ، مع أنه يعرف هذه الـكنائس جيداً . . بينما يبعث بولس تحيات كثيرة لـكنيسة كولوسى التى لم يسبق له أن زارها. والسبب واضح، فلو أرسل بولس تحيات للـكنائس التى زارها لدبّت الغيرة فى الأعضاء ، بينما عندما يكتب للـكنائس التى لم يزرها يرغب فى تأسيس علاقات قوية مع أعضائها فيسلم عليهم ، ليـكون للرسالة طابع شخصى ، وعلى هذا فقد أكثر بولس من التحيات لأهل كنيسة رومية ليؤسس معهم علاقات محبة شخصية. ثم أن أكيلا وبريسكلا لابد عادا إلى رومية بعد ست أو سبع سنوات من طردهما ، ولابد أن هذا هو الحال نفسه مع بقية الأشخاص الذين كتب بولس التحية لهم ، فقد قابلهم فى بلاد

مختلفة وعرفهم ، وعندما عادوا إلى روما أرسل لهم التحية . وعندما سندرس الأصحاح السادس عشر بالتفصيل سنرى هذا. وعليه فإننا نرى أن الأصحاح السادس عشر جزء من رسالة رومية .

٢ — وفى الرسالة مشكلة أخرى ، فإن بعض النسخ القديمة تورد «البركة» (رومية ١٦ : ٢٥ — ٢٧) فى ختام الأصحاح الرابع عشر . بينما يوردها البعض الآخر فى نهاية الرسالة ، وتورد مخطوطتان قديمتان هذه البركة مرتين ، مرة فى نهاية أصحاح ١٤ ؛ ومرة أخرى فى نهاية أصحاح ١٦ . وتورد مخطوطة أخرى البركة فى نهاية أصحاح ١٥ ، وفى مخطوطتين أخريتين نرى مكان البركة خالياً من الكلام .

والسر الذى يفسر هذا أن رسالة رومية رسالة دورية ، ترسل إلى مجموعة من الكنائس لتقرأ فيها . ومما يبرهن هذا أن نسخة قديمة حذفت ذكر « رومية » من أصحاح ١ : ٧ و ١٥ حتى يمكن كتابة اسم الكنيسة التى ستقرأ بها الرسالة فى هذا المكان . ولقد كتب بولس فى أصحاحى ١٥ ، ١٦ حقائق تخص روما وحدها ، فعندما ترسل الرسالة إلى بلد غير رومية ، لايحتاجون إلى أصحاحى ١٥ ، ١٦ ، يضعون « البركة » فى نهاية الأصحاح الرابع عشر . وهذا يرينا أن الكنائس منذ البدء وجدت فى رسالة رومية شرحاً لعقيدة بولس ، فلم ترغب فى أن تجعلها ملكاً لكنيسة واحدة ، فوزعتها على الكنائس المختلفة .

إن رسالة رومية تحمل رسالة بولس ولب إنجيله !

التفسير

دعوة، وبشارة، وعمل

بُولُسُ عَبْدٌ لِيَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ ٱلْمَدْعُوُّ رَسُولاً ٱلْمُفْرَزُ لِإِنْجِيلِ اللهِ . ٱلَّذِي سَبَقَ فَوَعَدَ بِهِ بِأَنْبِيَائِهِ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلْمُقَدَّسَةِ عَنِ ٱبْنِهِ . ٱلَّذِي صَارَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ ٱلْجَسَدِ . وَتَعَيَّنَ ٱبْنَ ٱللهِ بِقُوَّةٍ مِنْ جِهَةِ رُوحِ ٱلْقَدَاسَةِ بِالْقِيَامَةِ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ . يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ رَبِّنَا ٱلَّذِي بِهِ لِأَجْلِ ٱسْمِهِ قَبِلْنَا نِعْمَةً وَرِسَالَةً لِإِطَاعَةِ ٱلْإِيمَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلَّذِينَ بَيْنَهُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً مَدْعُوُّو يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ . إِلَى جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي رُومِيَةَ أَحِبَّاءَ ٱللهِ مَدْعُوِّينَ قِدِّيسِينَ . نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ ٱللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ .

(رومية ١ : ١ — ٧)

عندما كان بولس يكتب الرسالة إلى رومية لم يكن يعرف الذين يكتب لهم شخصياً ، ولم يكن قد زار روما أبداً ، ولكنه كان يكتب لكنيسة موجودة فى أعظم بلد فى أعظم امبراطورية فى العالم ، ولذلك اختار بولس كلماته وأفكاره بعناية تامة .

ويبدأ بولس بتقديم نفسه :

١ — يدعو نفسه « عبداً ليسوع المسيح » . وعندما يذكر كلمة « عبد » يعنى أمرين :

(ا) اللقب المفضل للمسيح عند بولس هو لقب « رب »، وهو يعنى السيد الذى يملك شخصاً أو شيئاً بغير منازع. إنها تعنى « مالك » و « سيد » بكل ما للسيادة والملكية من حقوق. أما كلمة « عبد» فهى نقيض كلمة «رب» وبولس يضع نفسه كعبد للرب يسوع، سيده وربه. لقد أحب يسوع بولس وبذل نفسه لأجله؛ وبولس متأكد أنه لا يخص نفسه، ولكنه كله ليسوع. ومن هنا نرى أن كلمة « عبد » تصف الإلتزام الكامل فى المحبة.

(ب) وللكلمة معنى آخر؛ فقد وصف عظماء رجال العهد القديم بأنهم «عبيد» فموسى عبد الرب (يشوع ١ : ٢) ويشوع عبد الرب (يشوع ٢٤ : ٢٩). وكان لقب « العبد » هو اللقب المميز للأنبياء (عاموس ٣ : ٧ إرميا ٧ : ٢٥). وعندما يقول بولس إنه عبد الرب فإنه يضع نفسه فى قائمة أنبياء الرب، الذين جاءت عظمتهم من أنهم عبيد الرب. هكذا كان بولس. وعلى هذا فإن لقب « عبد » يصف التزام المحبة العظيمة وشرف الخدمة المجيدة.

٢ — ويدعو بولس نفسه « رسولا »، لقد استجاب عظماء رجال العهد القديم لصوت الرب وقبلوا دعوته. سمع ابرهيم دعوة الرب (تكوين ١٢ : ١-٣) وقبل موسى الدعوة (خروج ٣ : ١٠) وارميا وإشعياء صارا نبيين؛ ضد رغبتهما الشخصية، طاعة لدعوة الرب (إرميا ١ : ٤، ٥ وإشعياء ٦ : ٨، ٩). ولم ينظر بولس لنفسه كشخص حاز شرفاً فقط، لكن كشخص أعطى عملاً وكلف به وقد قال يسوع لأتباعه: « ليس أنتم اخترتمونى، بل أنا اخترتكم » (يوحنا ١٥ : ١٦). ولم يفكر بولس فى الحياة فى ضوء ما يريد أن يفعل، لكن فى ضوء ما يريد الله له أن يفعل!

٣ — ويدعو بولس نفسه « المفرز لإنجيل الله» المخصص لنشر الأخبار المفرحة. كان بولس واعياً للتخصص المزدوج الذى خصه الله به.

(ا) خصصه الله وأفرزه لعمل خاص حتى قبل أن يولد (غلاطية ١ : ١٥).

وهناك خطة لحياة كل إنسان ، وكل إنسان تعبير عن فكر الله ، إذ يرسله الله لهدف معين .

(ب) كما خصصه الناس وأفرزوه لعمل خاص . في أعمال ١٣ : ٢ كلف الروح القدس قادة الكنيسة لتخصيص بولس وبرنابا لخدمة خاصة بين الأمم . كان بولس واعياً أن الله والكنيسة قد أفرزاه لعمل خاص .

٤ — وكان بولس واعياً أن الله قد منحه شيئين :

(١) منحه « نعمة » . والنعمة هبة مجانية تماماً تعطى حتى لمن لا يستحق . في الأيام السابقة لإيمان بولس بالمسيح كان يسعى للحصول على مدح الناس . وعلى رضى الله ، عن طريق حفظ مطاليب الناموس ، ولكنه لم يجد السلام عن هذا الطريق. وأخيراً عرف أن ما يعمله هو ليس هاماً ، لكن ما يعمله الله هو المهم، فالناموس يوضح ما يجب على الإنسان أن يفعله ، ولكن الإنجيل يوضح ما فعله الله . وقد أدرك بولس أن الخلاص لا يعتمد على مجهود الإنسان ، بل على محبة الله التي عملت ، والكل من النعمة المجانية التي لا نستحقها .

(ب) وقد منحه الله « رسالة » وتكليفاً ، ليوصل الإنجيل للأمم . لقد اختاره الله ، لا لشرف خاص بل لمسئولية معينة ، لا لمجد بل لجهد . كان بولس فريسياً (فيلبي ٣ : ٥) والكلمة « فريسي » تعني « مفروز » لأن الفريسي كان يعتبر نفسه معزولاً عن كل الناس، حتى أنه لا يسمح لطرف ثوبه أن يمس إنساناً عادياً ، وكان قلبه يجزع لمجرد التفكير في الحديث عن الله مع أحد الأمم ، فقد كان الأممي ـ في نظره ـ وقوداً لنار جهنم ! لقد كان بولس من قبل فريسياً ، عزل نفسه وأفرزها ، بتعصب ، عن كل البشر العاديين . وها هو الآن ـ بعد أن عرف المسيح ـ يعلن أنه يجب أن ينفق حياته ويفرزها ليوصل رسالة محبة الله لكل إنسان في كل بلد. إن المسيحية تفرزنا، لا لامتياز ولا لمجد شخصي ،ولا لكبرياء، بل للخدمة والتواضع والمحبة لكل الناس .

وبعد أن يقدم بولس نفسه ، يعطى ملخصاً للتعاليم الأساسية فى إنجيله . إنه إنجيل يتركز حول يسوع المسيح (آيتا ٣ ، ٤) . وهو إنجيل أمرين :

(ا) إنجيل التجسد ،فيسوع فعلاً وحقاً هو الإنسان. وقد قال أحد مفكرى المسيحية الأولين : « صار يسوع مثلنا ليصيرنا مثله ».لم يعظ بولس عن شخص خرافى أو وهمى ، نصف إله ونصف إنسان ، ولكنه وعظ عن « ابن الله» الذى جاء من « نسـل داود » . . وعظ عن ذاك الذى صار واحداً من الذين جاء ليخلصهم .

(ب) إنجيل القيامة.لو أن يسوع عاش حياة جميلة ومات ميتة بطولية ،وكانت هذه نهايته ، لا عتُبر واحداً من الأبطال العظماء . ولكنه « الواحد المتفرد » لأنه قام . مات الباقون وانتهوا ، ولم يتركوا إلا الذكرى ، ولكن يسوع يحيا معنا بقوة وجلال وبحضور دائم .

كيانة العظمة

أَوَّلاً أَشْكُرُ إِلٰهِي بِيَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ مِنْ جِهَةِ جَمِيعِكُمْ أَنَّ إِيمَانَكُمْ يُنَادَى بِهِ فِي كُلِّ ٱلْعَالَمِ . فَإِنَّ ٱللهَ ٱلَّذِي أَعْبُدُهُ بِرُوحِي فِي إِنْجِيلِ ٱبْنِهِ شَاهِدٌ لِي كَيْفَ بِلاَ ٱنْقِطَاعٍ أَذْكُرُكُمْ . مُتَضَرِّعاً دَائِماً فِي صَلَوَاتِي عَسَى ٱلآنَ أَنْ يَتَيَسَّرَ لِي مَرَّةً بِمَشِيئَةِ ٱللهِ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ . لأَنِّي مُشْتَاقٌ أَنْ أَرَاكُمْ لِكَيْ أَمْنَحَكُمْ هِبَةً رُوحِيَّةً لِثَبَاتِكُمْ . أَيْ لِنَتَعَزَّى بَيْنَكُمْ بِالإِيمَانِ ٱلَّذِي فِينَا جَمِيعاً إِيمَانِكُمْ وَإِيمَانِي .

ثُمَّ لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّنِي مِرَاراً كَثِيرَةً قَصَدْتُ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ. وَمُنِعْتُ حَتَّى الآنَ. لِيَكُونَ لِي ثَمَرٌ فِيكُمْ أَيْضاً كَمَا فِي سَائِرِ الأُمَمِ. إِنِّي مَدْيُونٌ لِلْيُونَانِيِّينَ وَالْبَرَابِرَةِ لِلْحُكَمَاءِ وَالْجُهَلاَءِ. فَهَكَذَا مَا هُوَ لِي مُسْتَعَدٌّ لِتَبْشِيرِكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ فِي رُومِيَةَ أَيْضاً.

(رومية ١ : ٨ — ١٥)

لا زالت العاطفة الدافئة المنبعثة من هذه الفقرة الكتابية تعطر الجو بعد نحو تسعة عشر قرناً، حتى لنحس نبضات قلب بولس العامر بالحب للكنيسة التي لم يسبق له أن رآها. وهنا تكمن مشكلة بولس فى هذه الرسالة، فلم يسبق له أن زار روما، ولم يكن له نصيب فى تأسيس كنيستها. وكان عليه أن يحطم الشك الذى قد يثور فى نفس قرائه، إذ ربما يظنون أنه يتدخل فيما لا شأن له به. وعليه فإنه قبل أن يتقدم بموضوع رسالته أراد أن يحطم الحواجز التى قد تبعده عن أهل روما.

(١) فى محبة وحكمة معاً بدأ بالمدح، فقال إنه يشكر الله على إيمانهم المسيحى المعروف فى العالم كله. بعض الناس تتجه ألسنتهم إلى الإطراء والمدح والبعض الآخر إلى الإنتقاد والذم، بعضهم يركز نظره على الفضائل والبعض الآخر يجيل عينيه ليكتشف العيوب. لقد قيل عن توماس هاردى إنه إذا ذهب إلى حقل فإن عينيه لا تتجهان إلى الورود بل إلى أكوام السباخ! ولكن الحقيقة هى أن علاقاتنا بالآخرين تنمو بالمدح أكثر منه بالانتقاد، فالذين يحصلون على أفضل ما فى الآخرين هم الذين يرون أفضل ما فى الآخرين. لم يكن هناك أفضل من حضارة الإغريق، ويقول عنها ت. و. جلوفر إنها تأسست على « الإيمان المطلق برجل الشارع ». من أعظم رجال حرب عام ١٩١٤ — ١٨ « دونالد هانكى »

الذى كتب « التلميذ المسلح » فقد رأى الناس فى أفضل حال كما فى أسوأ حال، وذات مرة كتب إلى أسرته يقول : « لو أننى خرجت سليماً من هذه الحرب لـكتبت كتاباً بعنوان « الصلاح الحى » أحلل فيه الصلاح والنبل الموجودين فى الإنسان العادى ، والذى أرجو أن يجد تحقيقه وكماله فى الـكنيسة » . وقد كتب دونالد هانـكى مقالاً بعنوان « القبطان المحبوب » قال فيه إن هذا الرجل أخذ الجنود الخائفين وعلمهم بنفسه ، وقال : « لقد تطلع إليهم كما تطلعوا إليه ، فمنحهم الشجاعة التى جعلتهم يبذلون أفضل ما عندهم » . ولا يستطيع إنسان أن يخلص الناس إلا بعد أن يضع ثقته فيهم . صحيح أن الإنسان خاطىء يستحق الجحيم ، ولـكن فى أعماقه بطلاً نائماً يستيقظ بكلمة المدح ، ولـكنه يغط فى نومه يائساً لـكلمات الذم . كان آيدان رسول السكسونيين ، ذلك أن ملك السكسون كان قد أرسل عام ٦٣٠ م إلى جزيرة أيونا طالباً رسولاً يبشر مملـكته بالإنجيل، فأرسلوا له رسولا عاد يتحدث عن « بربرية الإنـكليز ورعونتهم ، الذين لا آداب بهم والذين يتصرفون كالمتوحشين » . وقال إن العمل بينهم بلا نتيجة . ولـكن آيدان قال له : « إنك قاس عليهم أيها الأخ . كان يجب أن تقودهم بلطف معطياً إياهم لبن الدين قبل اللحوم » . وهـكذا ذهب آيدان إلى هناك ، فربح بلطفه عدداً كبيراً منهم للمسيح . ربح الذين خسرهم زميله المنتقد .

٢ — مع أن بولس لا يعرف أهل روما ، لـكنه كان يصلى لأجلهم باستمرار. ومن المسئولية علينا أن نصلى لأجل أحبائنا وإخوتنا فى المسيح. وإليـكم ما كتبه غريغوريوس النسّى فى عظة له عن الصلاة الربانية :

« أثر الصلاة هو الوحدة مع الله ، وعندما يكون أحدنا مع الله فإنه ينفصل عن العدو . بالصلاة نحمى العفة ونتحكم فى أعصابنا ونتخلص من الأمور البـاطلة ، وننسى الضرر ونغلب الحسد ، ونهزم الظلم وننتصر على الخطية . بالصلاة نحصل على الصحة الجسدية ، والأسرة السعيدة والمجتمع السليم . إنها تنعشك فى التعب وتعزيك فى الحزن . إنها فرح الفرحين وعزاء المصـابين . إنهـا التقرب إلى الله والتأمل فى غير المنظور . إنها الاستمتاع بالحاضر والأمل فى المستقبل » .

عندما نكون منفصلين عن الناس ، وليس لدينا ما نعطيه لهم ، فإننا نقدر أن نحيطهم بقوة صلاتنا ، وبدفاعها .

٣ — كان بولس فى تواضعه مستعداً أن يعطى ويأخذ . بدأ بالقول إنه يود زيارة روما ليمنحهم هبة روحية تثبت إيمانهم ، ولكنه مضى يقول إنه يرجو المجىء إلى روما ليتعزوا معا بالإيمان الذى فيهم ، فيقوى كل منهم الآخر ويشجعه . كل منهم يجد نقاط قوة لنفسه فى إيمان الآخر . هناك نوعان من المعلمين ، نوع يرى نفسه أعلى ممن يعلمهم ، وعليه فإنه يخبرهم بما يجب أن يقبلوه . . والنوع الثانى يقول : « تعالوا الآن نتعلم معا » . كان بولس أعظم مفكرى الكنيسة الأولى، لكنه عندما فكر فى الناس الذين يكتب لهم رأى أنه لا يعطى فحسب ، لكنه يأخذ أيضا . يحتاج التعليم كما يحتاج التعلم إلى تواضع .

٤ — العدد الرابع عشر يصعب ترجمته « إنى مديون لليونانيين والبرابرة ، للحكماء والجهلاء » . كان بولس يفكر فى شيئين عندما كتب هذا . كان مديوناً بسبب كل ما ناله من مراحم ،وكان مديونا لأنه يجب أن يبشرهم . ولكى نلخص قصده نقول « بسبب كل ما أخذته منهم ؛ وبسبب مسئوليتى وواجبى أن أعطيهم ، فإنى تحت التزام لكل الناس » وربما يبدو غريباً أن بولس يتكلم عن اليونانيين بينماهو يكتب للرومانيين،ولكن العجب يزول عندما نعرف أن كلمة «اليونانيين» فى زمن بولس كانت قد فقدت معناها الإقليمى ، ولم تعد تصف إقليم اليونان ، فقد نقل الإسكندر الأكبر اللغة اليونانية والحضارة اليونانية إلى كل العالم ، فلم يعد اليونانى هو الشخص الذى يحمل الجنسية اليونانية بل الشخص الذى يعرف الفكر اليونانى . أما البربرى فتعنى حرفيا الذى يقول « بربر » أى أن كلامه قبيح وغير موسيقى ، بعكس الذى يتكلم لغة جميلة متجانسة . فاليونانى إذاً هو أى شخص يعرف الفكر اليونانى ، وقد قال أحد اليونانيين : « ربما يعثر أحد البرابرة على الحق ، ولكن اليونانى فقط هو الذى يفهمه » . وعلى هذا فإن بولس يقصد أن رسالته وصداقته ودينه والتزامه كان من جهة البسطاء ،

والحكماء ، المثقفين ، المتعلمين والأميين . إن رسالته هي للعالم كله ، وكان من آماله أن يزور روما ليكرز فيها .

أخبار مفرحة تبعث على الفخر

لِأَنِّي لَسْتُ أَسْتَحِي بِإِنْجِيلِ ٱلْمَسِيحِ لِأَنَّهُ قُوَّةُ ٱللهِ لِلْخَلَاصِ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ ، لِلْيَهُودِيِّ أَوَّلاً ثُمَّ لِلْيُونَانِيِّ . لِأَنْ فِيهِ مُعْلَنٌ بِرُّ ٱللهِ بِإِيمَانٍ لِإِيمَانٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ أَمَّا ٱلْبَارُّ فَبِالْإِيمَانِ يَحْيَا .

(رومية ١ : ١٦ ، ١٧)

بوصولنا إلى هاتين الآيتين تنتهي مقدمة بولس ويرتفع صوت بوق إنجيل بولس . بعض الكونشرتوات الكلاسيكية تبدأ بمجموعة نغمات سريعة متآلفة تعزف فجأة ، تتلوها النغمة التي ستكون محور الموسيقى بعد ذلك . والهدف من ذلك أن معظم الموسيقى قديماً كانت تعزف في صالات البيوت في اجتماعات خاصة وعندما كان عازف البيانو يبدأ عزفه كان الناس لا يزالون يتكلمون ، فكانت النغمات السريعة الأولى تجذب انتباههم ، وبعد ذلك تبدأ الموسيقى الأساسية للكونشرتو .

وقد أراد بولس أن يبدأ اتصاله بالذين يكتب إليهم بلفت انتباههم ، وهاهو يقدم فكرة لحنه الروحي. ومع أن العددين قصيران إلا أنهما يحتويان لب الإنجيل ولذلك سنصرف معهما وقتاً أطول. فقد بدأ بولس يقول إنه يفتخر بالإنجيل الذى تشرف بإعلانه . ومن الجميل أن تفكر في خلفية هذا القول . كان قد سجن في فيلبي ، وطرد من تسالونيكي ، وتم تهريبه من بيرية وسخروا منه في أثينا . وعظ في كورنثوس حيث كانت رسالته جهالة لليونانيين وعثرة لليهود . . من هذه

الخلفية العجيبة يعلن بولس فخره برسالته. كان هناك شيء في الإنجيل جعل بولس ينتصر على كل ما يقوله الناس عنه أو يفعلونه معه.

وفي هذه الفقرة نلتقي بثلاث كلمات « بولسية » هي الأعمدة الثلاثة لفكر بولس الرسول وعقيدته :

١ — هنا فكرة « الخلاص » (سوتريا) . كان الناس وقتها يفتشون عن الخلاص . مضى وقت كانت فيه الفلسفة اليونانية موضع التفكير . فقبل بولس بنحو خمسة قرون كان الناس يسألون : ما هي المادة الأساسية التي يتكون منها العالم؟ كانت الفلسفة وقتها تأملية كما كانت طبيعية . ولكن عندما مضت السنون تحطمت العلامات من على الطريق ، وغزا الفاتحون البلاد المختلفة ، وهاجم الضعف الناس ، وكان على الفلسفة أن تساير التغيير ، فأصبحت فلسفة « عملية » لا « تأملية » ، و « أخلاقية » لا « طبيعية » وصار هدفها الوحيد « بناء حائط دفاعي ضد الفوضى القادمة على العالم » . وقد دعا الفيلسوف « أبكتيتوس » صالة محاضراته « مستشفى النفوس المريضة » ودعا « أبيقوروس » تعاليمه « دواء الخلاص » . أما سنيكا — المعاصر لبولس — فقد قال إن كل الناس تتوقع الخلاص . وقال : « إننا نحتاج إلى يد ترفعنا إلى أعلى » وقال إن الناس يشعرون بضعفهم وعدم كفايتهم في الأمور الهامة ، كما قال إنهم لا يجب أن يتسامحوا معه. وقال سنيكا في أسى إن الناس يحبون رذائلهم ويكرهونها في الوقت نفسه . في ذلك الوقت اليائس قال أبكتيتوس إن الناس يبحثون عن السلام « لا بإعلان قيصر ، بل من الله » . ولم يحدث في التاريخ أن الناس فتشوا عن الخلاص كما كانوا يفتشون عنه في زمن بولس . وقد جاءت المسيحية تنادي بالخلاص ، بالقوة ، بالهروب للعالم المسكين . فتعالوا نتأمل المقصود بالخلاص :

(ا) إنه الخلاص من المرض الجسدي (متى ٩ : ٢١ ، لوقا ٨ : ٣٦) . إنه نجاة الجسد والنفس

(ب) إنه الخلاص من الخطر (متى ٨ : ٢٥ ، ١٤ : ٣٠) . وليس هذا الخلاص بحفظ حياة الإنسان من الخطر ، لكن بمنحه الإطمئنان والأمان حتى وسط الخطر . وقد عبر روبرت بروك عن هذا في قصيدته التي كتبها خلال الحرب العالمية الأولى بعنوان « الأمان » قال ما ترجمته « سيكون ذهابي أماناً ، لأني أحمل سلاحاً سرياً ضد خطر الموت . في أمان حتى لو ضاع كل الأمان . في أمان ولو سقط الناس . وحتى لو ماتت أطرافي المسكينه فإني في أمان » . وقد قال براونتج شيئاً مشابهاً في قصيدته « بارا كلسوس » : « لو أنني أنحني في ظلام البحر الدامس ، فما هذا إلا لفترة مؤقتة ، إذ أني أضغط على مصباح الله القريب من صدري ، فيضيء نوره بسرعة أو ببطء ليغزو الأسى ، فأخرج ظافراً » . وهكذا نرى أن الخلاص المسيحي يجعل الإنسان ، آمناً بالرغم من الظروف الخارجية .

(جـ) إنه الخلاص من العدوى ، من العالم الأعوج الشرير (أعمال ٢ : ٤٠) . وكل من عنده هذا الخلاص يملك مطهراً إلهياً يحفظه من عدوى وفساد العالم الشرير .

(د) إنه خلاص من الضياع (متى ١٨ : ١١ ، لوقا ١٩ : ١٠) . لقد جاء يسوع ليطلب ويخلص ما قد هلك . إن الإنسان غير المخلص يسير في الطريق الخاطيء الذي يقود للهلاك ، أما المخلص فهو الذي وجد الطريق الصحيح .

(هـ) إنه خلاص من الخطية (متى ١ : ٢١) . الإنسان كعبد مستعبد لسيد لا يقدر أن يهرب منه . إنه كالمريض الذي شخص الداء ويعرف العيب ، لكنه لا يملك العلاج . والخلاص المسيحي ينقذه من ذل الخطية .

(و) إنه خلاص من غضب الله (رومية ٥ : ٩) . وسندرس هذه الفكرة في الفقرة التالية ، غير أننا نقول هنا . إن في العالم قانوناً أخلاقياً لا يمكننا أن نتجاهله ، وأن في الإيمان المسيحي فكرة الدينونة . وبدون الخلاص الذي في المسيح يقف الإنسان تحت العقوبة .

(ز) وهو خلاص أبدى ، يكمل فيما بعد الزمن ، عندما يملك المسيح بانتصار (رومية ١٣ : ١١ ، ١ كورنثوس ٥ ٥ ، ٢ تيموثاوس ٤ : ١٨ ، ١ بطرس ١ : ٥) .

لقد جاء الإيمان المسيحى للعالم يعرض عليه خلاصاً ، يعطى الإنسان الأمان هنا وفى الأبدية .

٢ — ونجد هنا فكرة « الإيمان » والإيمان فى فكر بولس كلمة غنية .

(أ) إنها فى أبسط معانيها تعنى الإخلاص والأمانة . عندما كتب بولس لأهل تسالونيكى ، كان يريد أن يعرف عن « إيمانهم » بمعنى أنه كان يريد أن يعرف أمانتهم للرب وسط الاضطهادات . وهو يربط بين الصبر والإيمان (٢ تسالونيكى ١ : ٤) . فالايمان هو الاخلاص الصابر والأمانة التى تحتمل ، وهى مميزات الجندى المسيحى الحقيق .

(ب) والإيمان يعنى الثقة والتصديق يقول بولس إنه لو لم يكن المسيح قد قام، فباطل إيماننا (١ كورنثوس ١٥ : ١٧) . وهذا يعنى أن إيمانهم يكون قد سقط . إن الإيمان هو تصديق أن الرسالة المسيحية رسالة صادقة .

(جـ) والإيمان يعنى الديانة المسيحية . وبولس يطلب من مخالفيه أن يمتحنوا ويجربوا أنفسهم : هل هم فى الإيمان ؟ أى هل هم فى الديانة المسيحية ؟ (٢ كورنثوس ١٣ : ٥) .

(د) والإيمان يعنى الأمل والرجاء اللذين لا يسقطان « لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان » (٢ كورنثوس ٥ : ٧) .

(هـ) والإيمان يعنى القبول الكامل والتسليم المطلق ، حتى « يقامر » الإنسان بحياته فى سبيل الله ، بثقة كاملة أن يسوع صادق ، وأن الحاضر والمستقبل مضمونان فيه . وقد قال ستيفنسون : « إنى أؤمن بالله ، وحتى لو صحوت لأجد نفسى فى الجحيم فسأبقى واثقاً فيه » .

ويبدأ الإيمان بالقبول عندما يكون الإنسان مستعداً لسماع رسالة الحق ، ثم يتبع ذلك القبول العقلى ، فالإنسان يسمع أولاً ثم يوافق على أن ما سمعه حق . ولكن القبول العقلى لا يتجسد عملاً ، فقد يعرف إنسان أن شيئاً ما صحيح ، ولكنه لا يغير أعماله لتتفق مع معلوماته . . إذاً فالخطوة الأخيرة للإيمان هى تحول القبول العقلى إلى « تسليم كامل » . وعلى هذا فالإيمان هو أن يسمع الإنسان الرسالة ، فيوافق على صحتها ، ثم يلقى بحياته كلها فى التسليم التام بهذه الرسالة .

٣ - ونجد هنا فكرة « التبرير » وليس هناك كلمة أصعب على الفهم من هذه الكلمة فى العهد الجديد ، ومنها كلمات « بر » ، « برر » ، « بار » وسوف نلتقى بهذه الكلمات فى هذه الرسالة ، ولكننا هنا نضع الخطوط العريضة لفكر بولس الرسول فى هذه الكلمة .

عندما نقول « أبرر نفسى » نعنى أننا نوجد البراهين التى تظهر براءتنا وصحة تصرفنا ، فإذا بررنا أحد فهو يظهر أدلة براءتنا وصحة تصرفنا . ولكن الكلمة اليونانية المستعملة هنا لا تعنى برهنة شىء ، لكن تعنى « جعل » شخص ما شيئاً . كما تعنى « معاملة » و « اعتبار » و « حسبان » . فإذا « برر الله الخاطىء » فلا يعنى هذا أن الله وجد أدلة براءته ، كما لا تعنى أنه يجعل الخاطىء شخصاً لا يخطىء ، ولكنها تعنى أن الله يعامل الخاطىء كأنه ليس خاطئاً بالمرة . لا يعامله كمجرم يستحق العقاب ، بل كابن محبوب . والتبرير يعنى أن الله لا يعتبرنا ولا يحسبنا أعداء ، بل أحباء ، ولا يعاملنا كما يستحق الأشرار ، بل كما يستحق الصالحون . لا يرانا كمتعدين على الوصية مستحقين العقاب ، بل كأشخاص أحباء . وهذا جوهر الإنجيل !

وعلى هذا فالتبرير دخول فى صلة جديدة مع الله ، هى صلة المحبة والثقة والصداقة ، بدلاً من البعد والعداوة والخوف . إننا لا نعامل إلهاً يشتعل بالعقاب

المخيف ، بل إلهاً يفيض بالمحبة الفادية وبالغفران . التبرير إذاً هو العلاقة الصائبة بين الله والإنسان . والإنسان المبرر هو الذى يحيا فى صلة سليمة بالله . والفكرة الرئيسية هى أن هذا الإنسان لا يتمتع بهذه الصلة السليمة لأنه عمل شيئاً ، بل لأن الله هو الذى فعل . ليس لأنه فعل ما هو مطلوب فى الناموس ، لكن لأنه ألقى نفسه بثقة كاملة على رحمة الله المذهلة وعلى محبته العجيبة .

ويقول الرسول : « أما البار فبالإيمان يحيا » وما يعنيه بولس هنا هو أن الإنسان الذى يحيا فى صلة سليمة بالله ، لا يحياها بسبب عمل قام به ، لكن بسبب ثقته الكاملة فى ما عمله الأب المحب. وفى رأى بولس أن يسوع هو الذى فعل كل ما يمكن الإنسان من الدخول إلى هذه الصلة الممتازة بالله . لقد مضى الخوف وجاءت المحبة ، والإله الذى ظنه البشر عدواً هو فى الحقيقة الأب والصديق

غضب الله

لِأَنَّ غَضَبَ ٱللهِ مُعْلَنٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ ٱلنَّاسِ وَإِثْمِهِمِ ٱلَّذِينَ يَحْجِزُونَ ٱلْحَقَّ بِالإِثْمِ . إِذْ مَعْرِفَةُ ٱللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ لِأَنَّ ٱللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ . لِأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ ٱلْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ ٱلْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ قُدْرَتَهُ ٱلسَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ . لِأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا ٱللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلٰهٍ بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ ٱلْغَبِيُّ . وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ

وَأَبْدَلُوا مَجْدَ ٱللهِ ٱلَّذِي لَا يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلَّذِي يَفْنَى وَالطُّيُورِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلزَّحَّافَاتِ .

(رومية ١ : ١٨ — ٢٣)

فى الفقرة السابقة كان بولس يفكر فى الصلة التى يمكن أن يدخل الإنسان فيها مع الله بالإيمان ، الذى هو التسليم الكامل لله وعلى النقيض من هذا ، يصف غضب الله الذى يقع على الإنسان الذى يعمى عينيه عن معرفة الله ، والذى يعبد أفكاره الشخصية ، كأوثان من دون الله .

ونجىء هنا إلى شيء صعب يستحق التفكير الجاد ، لأننا نلتقى هنا بفكرة غضب الله ، وهى عبارة مخيفة مزعجة ، فما هو معناها ، وماذا قصد بولس بها ؟

فى العهد القديم نصادف غضب الله ، مرتبطاً بفكرة العهد الذى قطعه الله مع البشر ، فقد كان شعب إسرائيل على علاقة خاصة بالله ، لأنه اختارهم ومنحهم صلة خاصة بنفسه تستمر طالما استمروا أمناء فى العهد معه (خروج ٢٤ : ٣ — ٨) . وكان هذا يعنى أمرين :

(ا) معناه أن أى تعد على الناموس يجلب غضب الرب ، لأن التعدى يكسر الصلة مع الله ويحطم العهد بين الله وبين إسرائيل . ويتحدث سفر العدد ١٦ عن عصيان قورح وداثان وأبيرام ، وفى نهايته نرى موسى يطلب من هرون عمل كفارة خاصة عن خطيـــــة الشعب لأن « الغضب قد خرج من قبـل الرب » (العدد ١٦ : ٤٦) . وعندما ظل الشعب وراء عبادة البعل « حمى غضب الرب على إسرائيل » (العدد ٢٥ : ٣) .. والسبب أن إسرائيل كان على علاقة خاصة بالله فإن أى جماعة أو بلد يضايق إسرائيل فإنه يستحق غضب الله ، فقد ضايق البابليون إسرائيل ولذلك فإنه « بسبب سخط الرب لا تُسكن » (إرميا ٥٠ : ١٣) . لما كانت إسرائيل على صلة خاصة بالرب ، فإن خطأها وخطأ الغير ضدها يستحقان غضب الله .

ويجيء ذكر غضب الله فى كتابات الأنبياء بعد وضع التنبير على شيء آخر ، فقد سيطر على التفكير الدينى فكرة « الدهرين » أو « الزمانين » . « هـذا الدهر » وهو الشرير ، و « الدهر الآتى » وهو الذهبى الصالح . ويفصل بين هذين الدهرين « يوم الرب العظيم » وهو يوم رعب وخوف وعقاب يرتعب فيه العالم ويبيد الشرير ، ويعاد تكوين العالم قبل مجيء ملكوت الله . فى ذلك الوقت يكون غضب الله المخيف . « هوذا يوم الرب قادم قاسياً بسخط وحمو غضب ليجعل الأرض خرابا » (إشعياء ١٣ : ٩) (بسخط رب الجنود تحرق الأرض ويكون الشعب كمأ كل للنار » (إشعياء ٩ : ١٩) . ويتحدث حزقيال ٧ : ١٩ عن « يوم غضب الرب » الذى سيصبه على الأمم ، « سخطه وكل حمو غضبه » (صفنيا ٣ : ٨) .

غير أن الأنبياء لم يؤجلوا غضب الله حتى يجيء يوم الدينونة المخيف ، فقد رأوا غضب الله معلن دوماً ، فعندما تكون إسرائيل عاصية ضالة عن الرب وغير مثمرة ينصب غضب الله عليها للهلاك والسبى والهزيمة . وعليه فالغضب موجود دائماً ، لكنه يصل إلى ذروته عند مجيء « يوم الرب » . وقد عبر أحد اللاهوتيين المحدثين عن ذلك بقوله : « لأن الله هو الله الطاهر ، فهو لا يطيق الشر ، ويهدف غضبه إلى إبادة هذا الشر » .

ونجد هذه الأفكار صعبة ، لأنها ترتبط فى فكرنا بالعهد القديم أكثر منه بالعهد الجديد . وحتى مارتن لوثر استصعب الفكرة ، فتحدث عن المحبة باعتبار أنها « عمل الله » وعن الغضب باعتبار أنه « عمل الله الغريب » ، فإن فكرة الغضب صعبة على الفكر المسيحى .

والآن تعالوا نتأمل كيف فهم بولس الفكرة . يقول الدكتور « دود » إن بولس يتحدث عن غضب الله لكنه لا يقول إن الله غاضب . يتحدث بولس عن محبة الله وعن أنه محب ، ويتحدث عن نعمته وعن أنه ينعم بسخاء ، ويتحدث

عن أمانته ويقول إنه أمين لشعبه ، ولـكنه لا يذكر أبداً أن الله غاضب رغم أنه يتحدث عن غضبه . لا بد إذاً من وجود جانب غريب للموضوع ، فهناك فرق بين صلة الله بالمحبة وصلته بالغضب . ويتحدث بولس عن غضب الله ثلاث مرات، هنا وفى أفسس ٥ : ٦ و كولوسى ٣ : ٦ ويقول إن غضب الله يجىء على أبناء المعصية. وهو عندما يتكلم عن الغضب بعد ذلك لا يقول إنه غضب الله بل « الغضب » وكأنه قوة مبهمة فى العالم ! فيقول : الله الذى يجلب الغضب (رومية ٣ : ٥). ويقول : « نخلص به من الغضب » (رومية ٥ : ٩) وينصح ألا نعطى مكاناً للغضب لأن النقمة للرب (رومية ١٢ : ١٩) ويقول إن الغضب دافع للناس للطاعة (رومية ١٣ : ٥) ولكنه يقول إن النـاموس يجلب الغضب (روميـة ٤ : ١٥) . ويقول إن المسيح ينقذنا من الغضب الآتى (١ تسالونيكى ١ : ١٠). بولس هنا يتحدث عن غضب وعن يسوع الذى ينقذنا منه .

ولنرجع إلى كتابات الأنبياء الذين قالوا إنه مالم يرجع الناس إلى الله فسيقـع الغضب عليهم لا محالة ، فى الهزيمة والسبى والمصيبة التى تحل على الأمة . وهـذا معناه أن الأنبياء قصدوا أن يقولوا : « إن عصيتم الرب فسيحل عليـكم غضبـه بالمصائب والخراب » وقد قال حزقيال إن النفس التى تخطىء تموت (حزقيـال ١٨ : ٤) . ونحن اليوم نقول الفـكرة نفسها فى قالب آخر فنقول : «هناك نظام فى العالم، وكل من يتعداه لا بد أن يعانى ويقاسى ، سواء آجلا أم عاجلاً » . وهذا ما قاله المؤرخ أ . ج فراود :« هناك درس واحد يـكرره التاريخ بوضوح وهو أن العالم مبنى على أسس أخلاقية ، تفيد الصالح وتضر الشرير » . وقد قال أنبيـاء العهد القديم إن هناك قانوناً أخلاقياً ينظم العالم ، وهذا القانون هو غضب الله على العاصى ، وكل من يكسر القانون الأخلاقى يؤذى نفسه. فإذا تركنا لهذا الناموس فإننا لابد هالـكون، لأن النفس التى تخطىء تموت . ولـكن فى هذه المشكلة التى يواجهها الإنسان يتدخل الله بمحبته ونعمته الغنية المعطية فيرفع عن الإنسان أجرة الخطيئة وينجيه من الغضب المنصب على المخطىء .

إن غضب الله عقاب للخطيئة ، وهو جزء من نسيج العالم ، ومحبة الله تنقذنا من آثار عصياننا بسبب ما فعل يسوع لأجلنا .

ويمضي بولس ليقول إن الناس لا يقدرون أن يقولوا إنهم لم يعرفوا الله، فإنهم يقدرون أن يميزوه من خليقته . ومن الممكن أن نكتشف شخصية الإنسان من عمل يديه ، وهكذا يمكن أن نعرف عن الله من عمله . لقد عرف كتاب العهد القديم هذا ،وأصحاحات ٣٨ ـ ٤١ منذ سفر أيوب توضحه وهكذا يمكن أن نعرف عن الله من عمله . وقد عرف بولس هذا . فحدث الوثنيين فى لسترة به (أعمال ١٤ : ١٧) وقال ترتليان، أحد الآباء المسيحيين الأولين: « لم تكن ريشة موسى أول من سطر معرفة الخالق ،فإن أغلبية البشر — الذين لم يسمعوا بموسى ولا بكتبه — عرفوا إله موسى ، فإن الطبيعة هى المعلم والنفس هي التلميذ ، فوردة برية واحدة ، ولا أقول وردة جميلة من بستان ، وأية صدفة على البحر ولا أقول لؤلؤة من البحر الأحمر ، وأية ريشة طائر ولا أقول ريشة طاووس ، لا يمكن أن تكشف بأن خالقها شرير . إذا أريتك وردة هل تحتقر خالقها ؟ »

إننا نرى الله فى العالم كلام بولس صحيح .. إن الألم يتبع الخطيئة ، فإذا كسرنا قوانين الهندسة تحطم المبنى ، وإذا كسرنا قوانين الصحة تهدم الجسم . إن بولس يقول : أنظروا للعالم راقبوا تركيبه . من هذا العالم تعرفون الله .ليس للشرير عذر!

ولكن بولس يتقدم إلى خطوة أخرى . ماذا فعل الخاطىء ؟ بدل أن ينظر إلى الله نظر إلى نفسه ، شغل نفسه وورطها فى أمور فانية ، وهو يظن أنه حكيم ، بينما هو جاهل ! لماذا ؟ لأنه جعل من أفكاره وآرائه وأعماله قانوناً للحياة ، بدل أن يجعل إرادة الله قانون الحياة . جهالة الخاطىء إذاً كامنة فى أنه جعل «الإنسان سيد كل شىء » ووجد فى آرائه الشخصية مبادىء حياته وليس فى ناموس الله لأنه نظر إلى نفسه، لا إلى الله ، وعاش فى عالم مركزه ذاته لا الله ، وبدل أن يسير ناظراً إلى الله نظر إلى نفسه ، فأشبه إنساناً لا يرى طريقه فسقط !

وماذا كانت نتيجة هذا ؟ جاءت الوثنية ، فاستبدل الإنسان مجـد الله بصور المخلوقات والحيوانات . أساس الوثنية إذا هو « الذات » فالإنسان يصنع صنماً يصلي له حتى ترسخ أفكاره الشخصية وتتحقق أحلامه الذاتية، فتصير كل عبادته من أجل نفسه وليس من أجل الله .

تواجهنا هنا الحقيقة أن أساس الخطية هو وضع الذات مكان الله ، فالخطية هي أن يعبد الإنسان نفسه بدلاً من عبادة الله .

الذين لا يقدر الله أن يساعدهم !

لِذَلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضاً فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمِ . الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ آمِينَ .

(رومية ١: ٢٤ ، ٢٥)

مفتاح هذه الفقرة هو كلمة « شهوات » التي يعرفها أرسطو بأنها « التطلع للملذات » . ويقول الرواقيون إن الشهوة هي السعي وراء الملذات مع تحدى كل معقول ! وقد عرفها أكليمندس الإسكندري بأنها الاتجاه والسعي غير المعقول نحو مايرضي الذات . الشهوة إذاً هي الرغبة المحمومة في الممنوع ، التي تجعل الإنسان يعمل الأشياء المخجلة . وهي نوع من الجنون يدفع الإنسان لعمل أشياء ما كان ليعملها لولا أن هذه الشهوة نزعت منه كل شرف ومعقولية ولياقة . وهي دليل على أن الإنسان قد وضع قلبه على ملذات يعطيها العالم له ، لأنه قد نسي خالق هذا العالم نسياناً كاملاً ، وهي طريق الإنسان الذي انغمس تماماً في العالم حتى فقد الإحساس بوجود الله .

ولذلك « أسلمهم الله » بمعنى أن هجرهم . وهى كلمة قاسية ، لكن هناك سببين لذلك :

١ — لقد أعطى الله الإنسان إرادة حرة ، والله يحترم هذه الإرادة الحرة ، ولذلك فإنه لا يتدخل فى حرية إرادة الإنسان . ويتحدث بولس عن الذين «أسلموا نفوسهم للدعارة » ، أى أنهم سلموا كل إرادتهم لها (أفسس ٤ : ١٩) . ويقول هوشع : « أفرايم موثق بالأصنام . اتركوه » (هوشع ٤ : ١٧) وهى عبارة قاسية ، ولكن الإنسان صاحب إرادة حرة ، وأمامه حرية الاختيار . ولا صلاح ولا محبة إلا فى ظل الإرادة الحرة، فإن الخير الذى يجبر عليه ليس خيراً وعلى هذا فإن الله لا يفعل شيئاً للإنسان الذى يدير ظهره له، بعد أن بذل ابنه من أجلنا . وعندما يقول بولس إن الله « أسلمهم » لا يعنى أنه فى غضبه طردهم ، ولا يعنى أنه أوقع العقاب عليهم فتركهم ، ولكن المعنى أن الله تركهم ، فى حزن عليهم ، كمحب عمل كل ما يستطيعه ، فلم يقابل إلا بالرفض ! وهى تصف مشاعر أب ، أدار ابنه ظهره له ليسافر إلى بلد بعيد .. ففى قلب الأب حزن أكثر من الغضب .

٢ — على أن فى كلمة « أسلمهم » إدانة، وهى نتيجة طبيعية للخطية، فكلما أخطأ الإنسان سهل عليه أن يتمادى فى الخطأ . قد يبدأ بالخطأ وهو يدرك ما يفعله ، فتصطك أسنانه له ! ولكنه يتمادى فى الخطأ حتى لا يحس بأنه يخطىء ! وليس فى هذا عقاب يجلبه الله على الإنسان، لكنه عقاب يجلبه الإنسان على نفسه، فهو يجعل نفسه بانتظام عبداً للخطية . هنالك أقوال عن هذا مثل « كل أداء للواجب جزاؤه واجب آخر ، وكل ارتكاب للخطية عقابه خطية أخرى » ، و « كل من يجاهد ليحفظ نفسه طاهراً يجد القوة ليزداد ، وكل من يرتكب النجاسة تنفتح أمامه أبواب الرذيلة »، و « كل من ينصب سوراً حول نفسه يكون فى أمان، وكل من يفرط فى نفسه ينهار » . إن أرد أما فى الخطية أنها تلد خطية . ومن الغريب أن حرية الإرادة التى أعطاها الله لنا يمكن أن نستعملها لنصبح عبيداً للخطية، فنسلم أنفسنا للضلال . إن الخطية كذبة كبيرة لأنها تجعل مرتكبها يظن أنه يجد السعادة،

لـكنها فى النهاية تحطم الإنسان ، لنفسه وللآخرين ، فى هـــذا العالم وفى العالم الآتى !

عصر خزى

لِذَٰلِكَ أَسْلَمَهُمُ ٱللهُ إِلَى أَهْوَاءِ ٱلْهَوَانِ . لِأَنَّ إِنَاثَهُمُ ٱسْتَبْدَلْنَ ٱلِاسْتِعْمَالَ ٱلطَّبِيعِيَّ بِٱلَّذِي عَلَى خِلَافِ ٱلطَّبِيعَةِ . وَكَذَٰلِكَ ٱلذُّكُورُ أَيْضاً تَارِكِينَ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْأُنْثَى ٱلطَّبِيعِيَّ ٱشْتَعَلُوا بِشَهْوَتِهِمْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فَاعِلِينَ ٱلْفَحْشَاءَ ذُكُوراً بِذُكُورٍ وَنَائِلِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ جَزَاءَ ضَلَالِهِمِ ٱلْمُحِقَّ .

(رومية ١ : ٢٦ ، ٢٧)

عندما نقرأ رومية ١ : ٢٦ — ٣٢ ربما يخيل لنا أن كاتبها رجل أخلاق هستيرى يبالغ فى تصوير الحالة المعاصرة له بألوان مفرطة ! ذلك أن هذه الفقرة تصف حالة انحلال خلقى قلّ أن وجد له نظير فى التاريخ . ولـكن بولس لم يـكن مبالغاً بالمرة ، ذلك أنه لم يقل شيئاً لم يذكره عن هـــذه الحقبة كاتب يونانى أو رومانى .

١ — كان ذلك العصر قد أفلت زمامه ، فيقول الشاعر فرجيل: «لقد اختلط الخطأ بالصواب ، فالحرب تغطى العالم كله ، وما أكثر الأخطاء . لم يعد هناك شرف فى المحارث ، والمزارع ترك الحقل بأشواكه . والخطاف (الصنارة) صار مستقيماً كحد السيف ! فى الشرق يثير نهر الفرات الحروب ، وفى الغرب يكسر

الألمان والحيطون بهم المعاهدات ويرفعون السيوف . آلهة الحرب غاضبة تثير النزاع فى كل أرجاء العالم . مركبات الحرب تشبه السيرك وهى تندفع من الأبواب مسرعة إلى الخراب . السائق يترك الخيول تجره ، والمركبة لاتنتبه لتوجيه المدير »!
لقد كان ذلك عصر عنف وخراب . وعندما يؤرخ تاسيتوس لهذه الحقبة يقول : « إنى أسجل تاريخ حقبة عامرة بالمصائب ، حزينة بالحرب ، ممزقة بالتحريض على الفتنة ، متوحشة حتى فى وقت السلام . . الكل رعب وكراهية . يرتشى العبيد ليخونوا سادتهم ، والأصدقاء ليغدروا بأصدقائهم . والذى ليس له أعداء هدمه أصدقاؤه ! » . وقد كتب سوتونيوس عن حكم طيباريوس يقول : « لم يمض يوم دون إعدام أحد » . كان ذلك عصر رعب قال عنه المؤرخ ليفى : « لم تكن روما تحتمل أمراضها، ولا حتى الأدوية المقدمة لعلاجها ».وقال الشاعر بروبرتيوس: « إنى أرى روما المتكبرة تهلك ضحية نجاحها » . كان ذلك عصر إنتحار أخلاق قال عنه الكاتب الهجائى جوفينال: « لم تعد الأرض تنجب غير الأردياء والجبناء! والله ، مهما كان شخصه ، ينظر إلى أسفل ساخراً من الناس الذين يكرههم » . كان هذا عصراً أفلت زمامه وصفه سنيكا بقوله : « عصر مضروب بالفوضى لم تعد روحه تحكم نفسها » .

٢ — كان ذلك عصر الفخفخة ، جرى فيه الماء الساخن والبارد فى حمامات روما العامة من حنفيات فضية ، فرش فيه الامبراطور كاليجولا أرض السيرك بتراب الذهب ، قال عنه جوفينال: « الفخفخة التى تؤذى أكثر من الحرب تحوم حول روما . لاينقصنا شر أو شهوة مادام الفقر قد فارقنا ـ المال ، أصل الشر ، فاض فى أيدينا فغمرنا بالملذات العفنة » . وقال سنيكا : « المال يفسد الشرف ! لم نعد نسأل عن صحة الشىء ، بل عن كم يكلف ! » . لقد مل الناس فى ذلك العصر الأمور العادية فمضوا يفتشون عن كل ماهو غريب ، فيتحدث لوكريشيوس عن « المرارة التى تفيض من منابع السرور » . ولم يعد الناس يجدون لذتهم إلا فى الجريمة أو فى المخادع حتى قال تاسيتوس :« كلما زاد الأمر خزياً زاد السرور ! » .

٣ — كان عصر فساد خلقى لايضارع . لم تـكن هناك حالة طلاق واحدة فى الاثنين وخمسين سنة الأولى من الامبراطورية الرومانية . وأول طلاق حدث فيها حدث عام ٢٣٤ ق . م عندما طلق « سبوريوس سرفيليوس روجا » زوجته . أما فى ذلك العصر فقد كانت السيدات يتزوجن ليطلقن ليتزوجن من جديد — على حد تعبير سنيكا . وكانت سيدات ذلك العصر يؤرخن السنوات « بسنةزواجها من فلان » . ويقول جوفينال إنه ليس من المعقول أن تجد آنسة عفيفة . ويقول أكليمندس الاسكندرى عن سيدة المجتمع الرومانى العادية إنها « مثل فينوس تحيط نفسها بحزام من الرذيلة » . ويتساءل جوفينال : « هل يـكفى أيبرينا زواج واحد ؟ إن أردت السيطرة عليها فستـكتفى بعين واحدة » . ويحـكى عن سيدة تزوجت ثمانية رجال فى خمس سنوات . كما يحـكى عن « أجريبا » زوجة الإمبراطور كلوديوس التى كانت تخرج من قصرها كل ليلة لتقدم جسدها لـكل راغب !

لم يقل بولس شيئا لم يذكره مؤرخو وكتّاب هذه الحقبة . لقد كان المجتمع عفنا من قمته إلى كل جزء فيه . لقد كان أربعة عشر إمبراطوراً من أول خمسة عشر امبراطوراً فى الإمبراطرية الرومانية يمارسون الشذوذ الجنسى !

لمثل هذا المجتمع أراد بولس أن يـكرز بالإنجيل ، الذى لم يـكن يخجل منه . كان العالم محتاجاً إلى القوة التى تنشىء الخلاص ، وكان بولس يعرف أنه ليس مصدر آخر لهذه القوة إلا فى المسيح !

الحياة التى لم تحسب حساب الله

وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا ٱللَّهَ فِى مَعْرِفَتِهِمْ أَسْلَمَهُمُ ٱللَّهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ لِيَفْعَلُوا مَا لاَ يَلِيقُ . مَمْلُوئِينَ

مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَزِنًا وَشَرٍّ وَطَمَعٍ وَخُبْثٍ مَشْحُونِينَ حَسَداً وَقَتْلاً وَخِصَاماً وَمَكْراً وَسُوءاً . نَمَّامِينَ مُفْتَرِينَ مُبْغِضِينَ لِلّٰهِ ثَالِبِينَ مُتَعَظِّمِينَ مُدَّعِينَ مُبْتَدِعِينَ شُرُوراً غَيْرَ طَائِعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ بِلاَ فَهْمٍ وَلاَ عَهْدٍ وَلاَ حُنُوٍّ وَلاَ رِضًى وَلاَ رَحْمَةٍ . ٱلَّذِينَ إِذْ عَرَفُوا حُكْمَ ٱللّٰهِ أَنَّ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هٰذِهِ يَسْتَوْجِبُونَ ٱلْمَوْتَ لاَ يَفْعَلُونَهَا فَقَطْ بَلْ أَيْضاً يُسَرُّونَ بِالَّذِينَ يَعْمَلُونَ .

(رومية ١ : ٢٨ ـ ٣٢)

لا نكاد نجد فقرة كتابية تصف حال الإنسان الذى لا يحسب لله حساباً كما تفعل هذه الفقرة . فالله لا يرسل عقاباً على الإنسان ، ولكن الإنسان هو الذى يعاقب نفسه عندما يبتعد عن الله. فالإنسان الذى لا يبقى الله فى معرفته يجعل من نفسه نوعاً خاصاً من الناس ، تصفه هذه الفقرة الكتابية . فلننظر إلى هذه القائمة الرهيبة من الأشياء التى تدخل الحياة البعيدة عن الله !

هؤلاء الناس يفعلون أشياء لاتليق بالبشر . كان الرواقيون يتحدثون عن « الأشياء التى تليق بالبشر » كأشياء طبيعية مناسبة ، كما يتحدثون عن أشياء لاتليق . وقد قال شكسبير فى « مكبث »

« سأعمل كل ما يجعل منى رجلاً

ومن يجرؤ على مزيد فلن يكون »

فالشخص الذى لا يبقى الله فى معرفته لا يخسر التقوى فقط ، لكنه يخسر الإنسانية أيضاً ! وهنا تجىء القائمة الرهيبة :

مملوئين من كل إثم : « إثم » عكس « عدل » . والإنسان العادل هو الذى يعطى كل صاحب حق حقه ، فالأثيم هو الذى يسلب الناس والله حقوقهم . إنه الذى يقيم مذبحاً لنفسه ويجعل من نفسه مركزاً للعبادة .

مملوئين من كل شر : وهى كلمة تعنى « أكثر من ردىء » لأنها تؤذى رغبة فى الأذى نفسه . كان اليونانيون يتحدثون عن نوع من الشر يؤذى بغير قصد . قد يكون أذاه بالغاً لكنه ليس «مزمناً» . أما الكلمة المستعملة هنا فهى تصف الشر الفعّال المقصود المؤذى . وعندما كانوا يصفون امرأة بهذه الكلمة كانوا يقصدون أنها تغوى البرىء لتضيع براءته . وكانوا يلقّبون بها الشيطان الذى يغوى ويهاجم بقصد تدمير براءة الإنسان وصلاحه . إنها تصف الإنسان ، لا الردىء فقط ، لكن الذى يريد أن يسحب الآخرين إلى مستواه . إنها الرداءة المدمّرة !

مملوئين من كل طمع : والطمع هو الرغبة فى المزيد . والطماع هو المضروب بحب الحصول على الأكثر . إنه رذيلة عدائية تملأ نفس الذى يريد الحصول على امتيازات دون اهتمام بحقوق الآخرين ، أو حتى بالاعتبارات الإنسانية . إنه يأخذ ما لا يحق له . ويشمل الطمع نواحى كثيرة ، مثل المال والأشخاص بغض النظر عن الشرف أو الأمانة ، حتى لو أدى ذلك إلى دوس الآخرين . إنها الشهوة التى أفلتت ويسعدها أن تحصل على غير حقها . إنها الرغبة التى لا تعرف القانون!

مملوئين من كل خبث : والخبيث هو المحروم من كل صفة تجعله صالحاً ، فالقاضى الخبيث هو المحروم من معرفة القانون والخلق والاستقامة اللازمة لإصدار حكم صالح . ويقول ثيودورت إن الخبيث هو الذى تتجه نفسه إلى الأردأ ، لأن موازينه انقلبت ، فمال إلى الأسوأ واحتوى على كل رذيلة . إنه العدّاء إلى كل خطأ ، فنمت فى نفسه كل بذور الفساد .

مشحونين حسداً : هناك حسد حسن وحسد ردىء . فالحسن هو الذى

يكشف للانسان ضعفه وتقصيره ، فيرغب في التغيير للأفضل والسمو . وهناك الحسد الرديء الذي يتذمر ، وعندما ينظر صاحبه إلى من هم أفضل منه يحقد عليهم. إنه العواطف الإنسانية الملتوية .

مشحونين قتلا : لقد وسّع يسوع معنى القتل ، فلم يعد يقتصر على العمل العنيف ، بل انسحب على الغضب والكراهية . والمسيح لا يريدنا أن نبتعد عن الغضب المتوحش فقط ، بل أن نلاشى من نفوسنا كل رغبة في الحقد . وقد يقول أحدنا إنه لم يضرب إنساناً في حياته ، لكن من منا يقدر أن يقول إنه لم يرد أن يضرب أحداً ؟ ! وقد قال توما الأكويني : « الإنسان يعتبر العمل ، لكن الله يرى الدوافع » .

مشحونين خصاما : الخصام الذي ينتج عن الحسد والطموح والرغبة في المركز والمكانة والشهرة . إنه ينبع من القلب المائض بالغيرة ، وعندما ينفصل الانسان من الغيرة فإنه يكون قد تخلص من كل ما يثير الخصام . وكم نحتاج إلى نعمة إلهية لنفرح بنجاح الناس وكأنه نجاحنا .

مشحونين مكراً : وعندما تجيء الكلمة في صيغة الفعل في اللغة اليونانية فإنها تعني من يخلط المعادن الثمينة بالخسيسة ومن يمزج الخمر . والماكر هو صاحب العقل الملتوي الذي لا يسلك باستقامة ، والذي ينحدر ليصل إلى ما يريده بطرق منحطة ، والذي لا يعمل أمراً إلا لغاية في نفسه ! إنه الذي ينصب الشراك !

مشحونين سوءاً : إنه الذي يضع التركيب الأسوأ لكل شيء ، صاحب الطبيعة الفاسدة كالورم الخبيث . قال عنه أرسطو إنه الذي يفترض الأسوأ في الناس ، وقال عنه بلني إنه الخبيث في التفسير ، وقال عنه جرمي تيلور إنه « وضاعة الطبيعة التي تأخذ الأمور باليد الشريرة وتفسر الأمور بأسوأ معنى » . وربما كانت هذه الخطية أشمل خطيه ، لأنها تعني أنه في حالة وجود تركيبين محتملين لشيء ، فإن السيء يختار الأسوأ منهما . إنه من المحزن أن نرى كم من سمعة تمرغت في الوحل

بالنميمة عند ما يفسر الناس الأمور تفسيراً سيئاً . وعندما نرى أنفسنا مجربين بهذا الخطأ لنذكر أن الله يسمع كل كلمة نقولها .

نمامين ، مفترين : هاتان الرذيلتان تصفان خطايا اللسان ، ولكنهما مختلفتان ، فالافتراء عادة يكون علنا ، أما النمام فهو الذى يغتاب سمعة الناس فى السر ، فيأخذ الإنسان فى ركن ليهمس فى أذنه بما يدمر سمعة الآخرين . كلاهما ردىء ، ولو أن الهامس أردأ .

« مبغضين لله » : إنه الذى يبغض الله ويتحداه ، لأنه يعلم أن الله هو الحاجز بينه وبين ملذاته، وهو السلسلة التى تقيده فلا ينطلق حيث يريد . وهو الذى يريد أن يبعد الله ، لو أمكنه ذلك ، لأنه يعلم أن العالم من دون الله ليس حرية له فقط ، بل هو رخصة له لعمل الشر .

« ثالبين » : كان الإغريق يقولون إن الثالب هو الذى تهلكه محاكم الآلهة . وتحمل هذه الكلمة فكرتين (١) إنها تصف الإنسان السائر فى كبريائه حتى يتحدى الله ، وهذا ما يسبق السقوط لأن الإنسان ينسى أنه مخلوق ، فيتحدى الخالق. إنه يثق فى ثروته وقوته حتى يظن أنه قادر على الحياة بقوة نفسه.(٢) وهى تصف الإنسان القاسى المتوحش الشتام . ويقول أرسطو عنه إنه الذى يؤذى الآخرين ويحزنهم ، لا رغبة فى الانتقام ، ولا لكسب يسعى وراءه ، ولكن لمجرد السعادة بالأذى والضرر . هناك من يسعدون برؤية إنسان يجفل وهو يسمع كلمة نابية أو وهو يتألم . إنها السادية التى تفرح بأذى الآخرين لمجرد إيقاع الأذى بهم !

« متعظمين » : لقد وردت هذه الكلمة ثلاث مرات فى الكتاب المقدس ، ومعها أن الله يقاوم المتعظمين المتكبرين (يعقوب ٤ : ٦ ، ١ بطرس ٥ : ٥ ، امثال ٣ : ٣٤) . ويدعو ثيوفلكات هذه الخطية « قمة كل الخطايا » . وكان ثيوفراستوس كاتباً يونانياً صوّر شخصيات مختلفة قال فيها إن المتعظم هو الذى يحتقر كل الناس ما عدا نفسه ، وهو الذى يرفض كل عمل يطلب منه لأنه مشغول

للثاية فى عمله الشخصى ، وهو لا ينظر إلى الناس فى الشارع إلا إذا كان هـذا يرضيه، وهو يدعو شخصاً ليتغدّى عنده ثم لا يحضر هو بل يرسل خادمه ليأ كل مع الضيف . . وهكذا فإن حياته كلها احتقار للآخرين !

«مدعين» او المدعى : هو الذى يتوه فى كل واد ، ويفخر بمـلاجات لم يعملها ، وبممتلـكات لا يملـكها . إنه الذى يتظاهر بما ليس عنده . وقال زينوفون إن المدّعى هو الذى يتظاهر أنه أغنى وأشجع من الواقع ، ويعد بما لا يستطيع الوفاء به ، وهو يهدف من هذا الادعاء إلى كسب وفائدة . ويقول ثيوفر استوس إن المدّعى هو المقتنع من غير مسوّغ ، فيفتخر بصفقات تجارية لا وجود لها إلا فى خياله ، وبصلات بأشخاص مشهورين لا وجود لها ، وبإحسانات لم يقدّمها أبداً . وهو يقول عن البيت الذى يسكنه إنه أصغر من اللازم ، وأنه يجب أن يشترى أ كبر منه ، هادفاً إلى إظهار نفسه بأفضل مما يجب . ولازال العالم مليئاً بالمدّعين .

«مبتدعين شروراً» : إنهم لا يـكتفون بطرق الشر المعتادة ، لـكنهم يفتشون عن طرق جديدة للشر لأنهم سئموا الطرق القديمة ، ويبحثون عن المتعة فى شر جديد !

« غير طائعين للوالدين » : كان اليهود واليونانيون يعتبرون طاعـة الوالدين فضيلة كبرى ، وقد نصت على ذلك الوصـايا العشر . وفى مطلع الإمبراطورية الرومانية كانت سلطة الأب مطلقة حتى كان له سلطان الحياة أو الموت . ويرجع التنبير على طاعة الوالدين إلى أن التسيب فى سـلطة العائلة يؤدى إلى شرور كثيرة خطيرة .

« بلا فهم » : هذا وصف للغبى الذى لا يعلمه الاختبار . إنه الذى لا يستخدم العقل الذى منحه الله له . .

« بلا عهد » : كانت الأمانة موضع تنبير قوى فى المجتمع الرومانى ، وكانت

كلمة الإنسان قيداً له . وكان هذا محل فرق بين الرومانى واليونانى ، فقد كان اليونانى يسرق ويختلس ، ومهما تعدد المشرفون عليه فقد كان يستطيع خداعهم جميعاً ليسرق .. أما الرومانى فكان يستأمن على آلاف الوزنات بكلمة وعد أمينة فلا يفقد منه الشيء . وبولس هنا يدعو الرومانيين ليكونوا أوفياء لأخلاقهم العامة ، لاللمبادىء المسيحية فقط .

بلا حنو : والحنو هو المحبة العائلية . ولكن المحبة العائلية كانت قد بدأت تموت فى ذلك العصر ، حتى هانت فيه حياة الطفل وقيمته ، فعندما كان يولد طفل كانوا يضعونه عند قدمى أبيه . فإذا رفعه كان هذا يعنى حياته ، أما إذا أدار وجهه له فكان هذا يعنى إلقاء الطفل بعيداً . فى كل ليلة كان يلقى بثلاثين أو أربعين طفلاً فى الساحة العامة! حتى سنيكا الرحيم قال : « إننا نقتل الكلب المريض ، ونذبح الثور الهائج ، ونعمل السكين فى البهيمة المريضة حتى لاتعدى بقية القطيع ، ونغرق الأطفال الضعفاء أو المشوهين » . كانت الروابط العائلية تتحطم !

بلا رحمة : فى ذلك العصر هانت الحياة الإنسانية ، فالسيد يقتل عبده أو يعذبه لأن العبد شيء وليس شخصاً ، وكان القانون يعطى السيد حرية التصرف الكاملة فى عبيده وفى ذات مرة تعثر عبد وهو يحمل صينية عليها أقداح من الكريستال فسقطت قدح منها وانكسر . . وأمر السيد أن يتمزق العبد إلى أشلاء ويطرح للأسماك الموجودة فى حديقة أسماك القصر لتلتهمه . وكان الرومانيون يتلذذون بتعذيب الناس ، إذ يشاهدون الناس يقتلون بعضهم !

ويذكر بولس شيئاً أخيراً عن أولئك الذين لم يبقوا الله فى معرفتهم . إن الذين يخطئون يعرفون أنهم يخطئون ، كما يعلمون أن الآخرين يدينون هذا الخطأ فيهم . ولكن أشرار ذلك العصر أخطأوا وفرحوا بالذين يخطئون وشجعوهم . ويقول جورج برنارد شو : « ما من أمة تعيش بعد أن تهجر آلهتها » وها نحن نرى بولس يرسم لنا صورة المجتمع الذى لم يبق الله فى معرفته .. وفى زمن قصير سقطت روما ! لقد سار الخراب مع الانحلال ، وانتهى بالمحو الكامل !

لِذَلِكَ أَنْتَ بِلاَ عُذْرٍ أَيُّهَا الإِنْسَانُ كُلُّ مَنْ يَدِينُ ، لأَنَّكَ فِي مَا تَدِينُ غَيْرَكَ تَحْكُمُ عَلَى نَفْسِكَ . لأَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تَدِينُ تَفْعَلُ تِلْكَ الأُمُورَ بِعَيْنِهَا . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ دَيْنُونَةَ اللهِ هِيَ حَسَبُ الْحَقِّ عَلَى الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هٰذِهِ . أَفَتَظُنُّ هٰذَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ الَّذِي تَدِينُ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هٰذِهِ وَأَنْتَ تَفْعَلُهَا أَنَّكَ تَنْجُو مِنْ دَيْنُونَةِ اللهِ . أَمْ تَسْتَهِينُ بِغِنَى لُطْفِهِ وَإِمْهَالِهِ وَطُولِ أَنَاتِهِ غَيْرَ عَالِمٍ أَنَّ لُطْفَ اللهِ إِنَّمَا يَقْتَادُكَ إِلَى التَّوْبَةِ . وَلٰكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ وَقَلْبِكَ غَيْرِ التَّائِبِ ، تَذْخَرُ لِنَفْسِكَ غَضَبًا فِي يَوْمِ الْغَضَبِ وَاسْتِعْلاَنِ دَيْنُونَةِ اللهِ الْعَادِلَةِ . الَّذِي سَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِ . أَمَّا الَّذِينَ بِصَبْرٍ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَطْلُبُونَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْبَقَاءَ فَبِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ . وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ التَّحَزُّبِ وَلاَ يُطَاوِعُونَ لِلْحَقِّ بَلْ يُطَاوِعُونَ لِلإِثْمِ فَسَخَطٌ وَغَضَبٌ . شِدَّةٌ وَضِيقٌ عَلَى كُلِّ نَفْسِ إِنْسَانٍ

يَفْعَلُ ٱلشَّرَّ ٱلْيَهُودِيِّ أَوَّلاً ثُمَّ ٱلْيُونَانِيِّ . وَمَجْدٌ وَكَرَامَةٌ وَسَلاَمٌ لِكُلِّ مَنْ يَفْعَلُ ٱلصَّلاَحَ ٱلْيَهُودِيِّ أَوَّلاً ثُمَّ ٱلْيُونَانِيِّ. لِأَنْ لَيْسَ عِنْدَ ٱللهِ مُحَابَاةٌ » .

(رومية ٢ : ١ — ١١)

فى هذه الفقرة الكتابية يخاطب بولس اليهود ، إذ أنه فى الأصحاح الأول رسم صورة سوداء للعالم الوثنى الذى لم يبق الله فى معرفته ، فحقت عليه دينونة الله . وكان اليهودى الذى يسمع كلمات الأصحاح الأول يوافق تماماً على كل ما قيل فيه ، فقد كانوا يعتقدون أن الله سيبيد الوثنيين بسبب خطاياهم . ولكن اليهودى لم يكن ليصدق لحظة واحدة أنه يمكن أن يقع تحت الدينونة نفسها ، لأنه كان يعتقد أنه يحتل مكانة خاصة عند الله ، وأن الله قاضى الوثنيين لكنه حامى اليهود . ولكن بولس يوضح هنا أن اليهودى خاطىء مثل الوثنى تماماً ، وأن اليهودى الذى ينتقد الوثنى ويدينه يضع نفسه تحت نفس الانتقاد ونفس الإدانة ، وأن جنسيته اليهودية لن تحميه من دينونة الله ، حيث أن الله سيقاضيه حسب عمله وليس حسب جنسيته !

على أن اليهود ظنوا أنفسهم فى مكانة خاصة عند الله ، وكانوا يقولون إن الله يحب الأمة الاسرائيلية من دون شعوب الأرض ، وأن الله سيدين الأمم بمقياس ويدين اليهود بمقياس آخر ! وكانوا يظنون أن كل اليهود سيجدون نصيباً فى العالم الآتى ، وأن إبرهيم سيجلس عند باب جهنم ليمنع إلقاء أى يهودى شرير فيها ! وفى حوار جستن مارتر مع اليهود فى كتابه « حوار مع تريفو » قال اليهودى: « إنهم نسل إبراهيم حسب الجسد ، ولذلك فإنهم حتى لو كانوا خطاة وعصاة وغير مؤمنين بالله ، فانهم سيشتركون فى الملكوت الأبدى » . ويقول كاتب سفر الحكمة فى مقارنته لموقف الله من اليهود ومن الأمم : « لأنك جربت هؤلاء

كأب إنذاراً لهم، وأولئك ابتليتهم كملك قاس قضاء عليهم » (الحكمة ١١:٩١)
ويقول: « فتؤدبنا نحن، وتجلد أعداءنا جلداً كثيراً لكي نتذكر حلمك إذا حكمنا، وننتظر رحمتك إذا حكم علينا» (الحكمة ١٢ : ٢٢). لقد كان اليهودي يؤمن أن كل الناس تحت حكم الهلاك من الله ماعدا اليهود، لا لفضيلة خاصة تحميهم، لكن لمجرد أنهم يهود!.

ولكي يعالج بولس هذه الحالة يذكّر بأربع حقائق:

١ — يقول بصراحة إنهم يستهينون برحمة الله. وفى الآية الرابعة يذكر ثلاث كلمات عظيمة. إنه يسأل: « أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته؟ » فلنتأمل هذه الكلمات الثلاث:

(أ) لطفه. يقول عنها ترنش إنها كلمة جميلة لأنها تعبر عن فكرة جميلة. وفى اليونانية توجد كلمتان تترجمان « لطف » إحداهما تصف الشخص اللطيف الذى قد يوبخ ويعاقب وينظم، والأخرى تصف الرجل الذى يظهر اللطف باستمرار. وقد مارس يسوع اللطف بنوعه الأول عندما طرد باعة الحمام والصيارف من الهيكل، كما مارس اللطف بنوعه الثانى مع المرأة الخاطئة التى مسحت رجليه بالطيب ومع تلك التى أمسكت فى الخطية. ويقول بولس لليهود إنهم يحاولون استغلال لطف الله.

(ب) إمهاله. وهى تعنى وقف العداوة والخصومة إلى حين. إنها إعطاء مهلة وفرصة يجب أن تغتنم قبل أن تضيع. ويقول بولس لليهود إنهم يظنون أنفسهم فى أمان لأن غضب الله لم يحل عليهم، ولكن ليس معنى هذا أن الله يطلق لهم العنان ليخطئوا. إنه يعطيهم مهلة ليتوبوا ويصلحوا طرقهم، فالإنسان لا يقدر أن يستمر فى الخطأ بدون عقوبة.

(ج) طول أناته. ويقول يوحنا فم الذهب إنها تصف الرجل الذى يطيل

أناته رغم قدرته على الانتقام . فهو قادر على محو عدوه ولكنه فى رحمته يدعه يبق .
وبولس هنا يقول لليهود : لاتظنوا أن عدم عقاب الله لكم معناه أنه لايقدر أن يفعل ذلك ، فليست أناته عليكم علامة ضعف عقابه،ولكنها برهان طول أناته .
إنكم مدينون بحياتكم لطول أناة الله .

وقد قال أحد كبار المفسرين إن كل إنسان تقريباً عنده إحساس غامض وأمل مبهم أن ينجو من العقاب ، ولكن اليهود أعلنوا بصراحة أنهم معافون من عقاب الله . لقد استهانوا برحمة الله ، ويبدو أن كثيرين يشاركونهم نفس الفكر .

٢ — لقد أخذ اليهود رحمة الله فرصة للشر ، بدلاً من أن يجعلوها حافزاً للتوبة ، وقد كان « هاين » أشهر من قال هذه الفكرة ، فقد أظهر ثقة فى تفكيره من جهة « العالم الآتى » . وعندما سئل عن سر هذه الثقة أجاب : « أن الله غفور رحيم » ولما سئل بعد ذلك عن سر إجابته هذه قال : « هذه وظيفة الله » .

هناك اتجاهان نحو الغفران . لنفترض أن شاباً أخطأ خطأ مخزياً ، فكسر قلب والديه. ولنفترض أنهما غفرا له . إنه يقدر أن يعمل أمراً من اثنين : قد يعود لارتكاب الخطأ نفسه معتمداً على أن الغفران سيأتيه . أو أنه سيتأثر بهذا الغفران المجانى فينفق باقى عمره فى عمل الخير. وأنه لمن المخجل أن يستغل بعض الناس الغفران فرصة للخطية وعذراً للمضى فيها ! هذا مافعله اليهود، ومازال البعض يسمله اليوم، مع أن رحمة الله ومحبته لا تهدفان إلى تشجيعنا على التساهل مع الخطأ ، بل إلى كسر قلوبنا بالأسى على الخطية حتى لا نعود نخطىء أيضاً .

٣ — ينبر بولس على أن الله لا يحابى ، وليس عند الله أمة واحدة أثيرة . قد يختار أمماً لعمل خاص أو لمسئولية خاصة ، ولكن ليست هناك أمة يختصها الله بالامتيازات واللفتات الخاصة ! وربما صدق قول ملتون : « عندما يكون عند الله عمل عظيم فإنه يكلف به الإنكليز » ولكن هذا تكليف بمسئولية وليس تشريفاً بامتياز غير أن اليهود أخطأوا وهم يحسبون أنهم أهل لمكانة خاصة فى

نظر الله . ولازال الخطأ نفسه سارياً فى العالم اليوم كما نراه فى التفرقة العنصرية ، وفى الإحساس بالتعالى نحو من يدعوهم كبلنج «السلالات الأدنى التى بلا قانون» . لسنا نقول إن كل الأمم تتساوى فى المواهب أو العبقرية أو الإمكانيات ، ولكننا نقول إن المتقدمين لا يجب أن ينظروا للآخرين باحتقار ، بل يجب أن يساعدوهم ليرتفعوا إلى مثل مستواهم الأعلى .

٤ — ونحتاج أن ندرس هذه الفقرة بعناية خاصة حتى ندرك الفكر البولسى. يقول البعض إن كل مايهم بولس هو « الإيمان » وأن كل ديانة تنبر على أهمية الأعمال يجب تنحيتها جانباً لأنها تنافى روح العهد الجديد . . ولكن ليس هذا فكر بولس ، فإنه يقول إن الله سيسوى الأمور مع كل واحد كما يكون عمله ، والإيمان الذى لا يترجم عملاً هو إيمان عاطل، بل إنه ليس إيماناً بالمرة . ويعلن بولس أن الطريقة الوحيدة التى يظهر بها الإيمان هى الأعمال الصالحة . ومن الخطورة أن نفصل بين الإيمان والأعمال ، فليس هناك إيمان لا يثمر أعمالا ، وليست هناك أعمال لا تجيء وليدة الإيمان ، فالإيمان والأعمال يسيران معاً . والله سيحاكم كل واحد حسب عمله ، وعلى هذا فمن المستحيل أن يسترخى الإنسان منا قائلاً : « أنا أؤمن وهذا يكفى » . فإن إيماننا يجب أن يظهر فى أعمالنا ، لأنه بأعمالنا نتبرر وبأعمالنا ندان .

الشريعة غير المكتوبة

لِأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ ٱلنَّامُوسِ فَبِدُونِ ٱلنَّامُوسِ يَهْلِكُ . وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ فِي ٱلنَّامُوسِ فَبِالنَّامُوسِ يُدَانُ . لِأَنْ لَيْسَ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ٱلنَّامُوسَ هُمْ أَبْرَارٌ عِنْدَ ٱللهِ بَلِ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالنَّامُوسِ هُمْ يُبَرَّرُونَ . لِأَنَّهُ ٱلْأُمَمُ ٱلَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ ٱلنَّامُوسُ مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ

فِي ٱلنَّامُوسِ فَهؤُلَاءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ ٱلنَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لِأَنْفُسِهِمِ ، ٱلَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ ٱلنَّامُوسِ مَكْتُوبًا فِي قُلُوبِهِمْ، شَاهِدًا أَيْضًا ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً أَوْ مُحْتَجَّةً . فِي ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِي فِيهِ يَدِينُ ٱللهُ سَرَائِرَ ٱلنَّاسِ حَسَبَ إِنْجِيلِي بِيَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ .

(رومية ٢ : ١٢ — ١٦)

سيسهل علينا فهم هذه الفقرة لو أدركنا أن آيتي ١٤ ، ١٥ جملة اعتراضية طويلة ، وحديث بولس متصل من آية ١٣ إلى آية ١٦ — وعلى هذا فيمكن أن نقرأ آية ١٢ ثم ١٦ ، وبعدها نقرأ آيتي ١٤ ، ١٥ . ولعل سبب كتابة بولس الجملة الاعتراضية الطويلة هو أنه كان يملي الرسالة على سكرتيره ترتيوس (رومية ١٦ : ٢٢)ولم يكن يكتبها بنفسه .

في هذه الفقرة يتحدث بولس عن الأمم ، بعد أن عالج قضية إحساس اليهود أنهم شعب متميز أثير عند الله . وهو هنا يقول إن الله اختص اليهود بالشريعة والناموس . ولكن قد يقول أممي : « من الواجب أن يدين الله اليهود وحدهم لأن عندهم قوانين الله ، وكان يجب أن يحسنوا التصرف ، أما نحن الأمم فسننجوا من الدينونة لأننا لم نعرف ناموس الله ، ولا يجب أن نطالب بما لانعرفه » . ورداً على هذا يقول بولس :

١ — كل إنسان يدان على مايعرفه ، فإذا عرف الناموس دين بحسب الناموس ، وإذا لم يكن يعرفه فإنه سيدان بحسب مايعرفه ، لأن الله عادل . وهذه إجابة على من يسألون عما جرى للناس الذين عاشوا في العالم قبل مجيء المسيح ، فلم يسمعوا الرسالة المسيحية . والإجابة هي أن الله سيحاسب النـــاس على

. ماتتهم فى مايعرفونه أنه الأفضل ، فلن يطالب الله الإنسان بأكثر من عمل أفضل ما يعرفه ! .

٢ — ويمضى بولس ليقول إن الذين ليس عندهم ناموس مكتوب ، عندهم ناموس غير مكتوب ، فى قلوبهم — ربما ندعوه « المعرفة الغريزية للخطأ والصواب ». وكان الرواقيون يقولون إن فى العالم نواميس عاملة ، إذا كسرها الإنسان يؤذى نفسه، مثل نواميس الصحة والأخلاق والحياة. وكان الرواقيون يدعون الناموس « الطبيعة » وكانوا يدعون الناس ليعيشوا « بحسب الطبيعة » . ويقول بولس هنا إن فى داخل الإنسان معرفة غريزية موروثة عما يجب أن يعمله . ويوافق اليونانيون على فكرة بولس هذه، فيقول أرسطو: «الإنسان المتحضر المتحرر الفكر يسلك كقانون لنفسه». ويسأل بلوتارك :«من يحكم الحاكم ؟» . ويجاوب : « القانون ملك الأموات والخالدين ، غير المسجل على أوراق بردى أو ألواح خشبية ، لكنه التفكير العاقل داخل نفس الإنسان ، الساكن فيه دائماً ، وهو لا يهجره فيعطه القيادة » .

رأى بولس العالم منقسماً إلى قسمين : اليهود الذين أعطاهم الله ناموسه مكتوباً فاستطاعوا أن يقرأوه ، والأمم الذين لم يكن عندهم ناموس مكتوب ، ولكن الله غرس فيهم معرفة غريزية فى قلوبهم بها يميزون بين الخطأ والصواب. وكلاهما غير معفى من دينونة الله ، فليس لليهودى أن يتهرب من الدينونة بحجة أن له مكانة خاصة عند الله ، وليس للأممى أن يتهرب لأنه لا يملك ناموساً مكتوباً . فاليهودى يدان لأنه يعرف الناموس، والأممى يدان لأنه — رغم أن الله لم يعطه ناموساً مكتوباً — إلا أنه أعطاه الضمير . . فالله يدين الإنسان بقدر المعرفة التى عنده وبقدر الفرصة التى عنده ليعرف .

اليهودى الحقيقى

هُوَذَا أَنْتَ تُسَمَّى يَهُودِيًّا وَتَتَّكِلُ عَلَى النَّامُوسِ وَتَفْتَخِرُ

بِاللهِ، وَتَعْرِفُ مَشِيئَتَهُ وَتُمَيِّزُ ٱلأُمُورَ ٱلْمُتَخَالِفَةَ مُتَعَلِّمًا

مِنَ ٱلنَّامُوسِ. وَتَثِقُ أَنَّكَ قَائِدٌ لِلْعُمْيَانِ وَنُورٌ لِلَّذِينَ

فِي ٱلظُّلْمَةِ. وَمُهَذِّبٌ لِلأَغْبِيَاءِ وَمُعَلِّمٌ لِلأَطْفَالِ وَلَكَ

صُورَةُ ٱلْعِلْمِ وَٱلْحَقِّ فِي ٱلنَّامُوسِ. فَأَنْتَ إِذاً ٱلَّذِي تُعَلِّمُ

غَيْرَكَ أَلَسْتَ تُعَلِّمُ نَفْسَكَ. ٱلَّذِي تَكْرِزُ أَنْ لاَ يُسْرَقَ،

أَتَسْرِقُ. ٱلَّذِي تَقُولُ أَنْ لاَ يُزْنَى أَتَزْنِي ٱلَّذِي تَسْتَكْرِهُ

ٱلأَوْثَانَ، أَتَسْرِقُ ٱلْهَيَاكِلَ. ٱلَّذِي تَفْتَخِرُ بِالنَّامُوسِ

أَبِتَعَدِّي ٱلنَّامُوسِ تُهِينُ ٱللهَ. لِأَنَّ ٱسْمَ ٱللهِ يُجَدَّفُ عَلَيْهِ

بِسَبَبِكُمْ بَيْنَ الأُمَمِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ. فَإِنَّ ٱلْخِتَانَ

يَنْفَعُ إِنْ عَمِلْتَ بِالنَّامُوسِ. وَلٰكِنْ إِنْ كُنْتَ مُتَعَدِّيًا

ٱلنَّامُوسَ فَقَدْ صَارَ خِتَانُكَ غُرْلَةً. إِذاً إِنْ كَانَ الأَغْرَلُ

يَحْفَظُ أَحْكَامَ النَّامُوسِ أَفَمَا تُحْسَبُ غُرْلَتُهُ خِتَاناً.

وَتَكُونُ الغُرْلَةُ الَّتِي مِنَ الطَّبِيعَةِ وَهِيَ تُكَمِّلُ النَّامُوسَ

تَدِينُكَ أَنْتَ الَّذِي فِي الْكِتَابِ وَالْخِتَانِ تَتَعَدَّى النَّامُوسَ.

لِأَنَّ الْيَهُودِيَّ فِي الظَّاهِرِ لَيْسَ هُوَ يَهُودِيًا وَلاَ الْخِتَانُ الَّذِي فِي

الظَّاهِرِ فِي اللَّحْمِ خِتَاناً. بَلِ الْيَهُودِيُّ فِي الْخَفَاءِ هُوَ الْيَهُودِيُّ.

وَخِتَانُ الْقَلْبِ بِالرُّوحِ لاَ بِالْكِتَابِ هُوَ الْخِتَانُ ا الَّذِي مَدْحُهُ
لَيْسَ مِنَ النَّاسِ بَلْ مِنَ اللهِ .

(رومية ٢ : ١٧ — ٢٩)

لابد أن اليهودى الذى يقرأ هذه الكلمات تسبيه الصدمة ! فهو يحسب أنه صاحب مكانة خاصة عند الله ، وأن الله يحابيه ، لالسبب إلا لأنه من سلالة إبرهيم ، ولأن جسده يحمل علامة الختان . ولكن بولس يقدم هنا فكرة سنرجع إليها مرة ومرات ، فليست « اليهودية » مسألة جنسية أو عنصرية ، ولاصلة بينها وبين الختان ، ولكن « اليهودية » سلوك . فمثلا إن كان هناك من يدعو نفسه يهودياً لأنه سليل إبرهيم ولأنه مختون ، فهو مخطىء . . . ولكن هناك أمياً لم يسمع مطلقاً عن إبرهيم ولم تخطر فكرة الختان على باله ، ومع ذلك يمكن أن ندعوه « يهودياً » . واليهودى الذى يقرأ هذه الفكرة يدعوها « بدعة وهرطقة » . ولكن بولس هنا ، وبخبطة واحدة ، يهدم أساس الفكر اليهودى فى عصره ، وهو يحذف من قائمة « اليهود » الكثيرين جداً ، ويفتح الباب لكل الأمم فى كل مكان ليصيروا « يهوداً » .

وتحوى الآية الأخيرة من هذه الفقرة « قفشة » لايمكن ترجمتها ، فهى تقول « الذى مدحه ليس من الناس بل من الله » والقفشة هى أن الكلمة «يهودى» (من اسم يهوذا) معناها الممدوح والمحمود (راجع تكوين ٢٩ : ٣٥ ، ٤٩ : ٨) وبولس هنا يستخدم الجناس ، وعلى هذا فإن هذه الآية تقول شيئين (أ) إن مدح هذا الإنسان يجىء من الله لا من إنسان (ب) كما أنها تعنى أن «يهودية» هذا الإنسان تجىء من الله لا من إنسان . ويريد بولس أن يقول إن مواعيد الله ليست لشعب معين يحمل علامة خاصة على جسده ، ولكنها لكل جنس وعنصر . ولكى يصير الإنسان « يهودياً » بمعنى « ممدوحاً ومحموداً من الله » فإن صفاته

يجب أن تكون حسنة . وعلى هذا فإننا نجد من الأمم من هم أفضـ
من اليهود ! .

ويقول بولس إن سلوك بعض اليهود جلب تجديف الأمم على اسم الله
ومن الواضح أن اليهود فى كل حقب التاريخ، كما لازالوا اليوم ، أكثر الشع
المحتقرة المكروهة . ولنتأمل فى كيف نظر الأمم إلى اليهود فى زمن ا
الجديد .. لقد قالوا إن اليهودية « خرافة بربرية » وقالوا إن الشعب اليهو
« أكثر الشعوب إثارة للقرف» وإنهم « جماعة عبيد مكروهين » . وقد أسر
تفسير الديانة اليهودية نتيجة المكر والجهل ، فقالوا إن أصل اليهود جماعة
البرص أرسلهم ملك مصر ليعملوا فى قطع الأحجار ؛ وأن موسى قاد أولئك ال
البرص فى الصحراء إلى فلسطين ، وأنهم يعبدون رأس حمار لأن قطيعاً من
الوحش قادهم إلى مكان الماء عندما كانوا مسافرين فى الصحراء ، وكانوا
وشك الموت عطشاً ، كما قالوا إنهم لا يأكلون لحم الخنزير ، لان الخنزير معر
لمرض جلدى يسبب الحكة ، وهو المرض الجلدى الذى عانى منه اليهود فى مه

وقد سخر الأمميون من بعض عادات اليهود ؛ مثل الإمتناع عن أكل
الخنزير ، حتى قال بلوتارك إن هذا يرجع إلى أن اليهود يعبدون الخنزير ، و
الكاتب الساخر جوفينال إن الرحمة اليهودية جعلتهم يمنحون الخنازير فر
الحياة إلى أن يصيبهم الكبر، وأنهم يعتبرون لحم الخنزير أثمن من لحم الإنسـ
كما سخر من عادة تقديس « السبت » باعتبارها علامة كسل .

وبالرغم من كل هذه السخرية ، فقد تمتع اليهود بامتيازات خاصة فى الد
الرومانية : (أ) فقد سمح لهم بتحويل ضريبة الهيكل سنوياً إلى أورشليم ،
صار هذا التحويل أمراً خطيراً ، حتى أنه فى آسيا نحو عام ٦٠ ق . م حرم تحـ
العملة ، لان اليهود كانوا سيحولون عشرين طناً من الذهب النقى إلى أورشا
(ب) وسمح لهم إلى درجة ما بتشكيل محاكمهم والحياة حسب ناموسهم الخا

فنى سنة ٥٠ ق .م ، فى آسيا ، أصدر الحاكم الرومانى لوسيوس أنطونيوس قراراً قال فيه :« جاءنى مواطنونا اليهود وأخبرونى أن عندهم اجتماعاتهم الخاصة ، التى يمارسون فيها طقوس آبائهم ، فأجبتهم إلى مطلبهم ومنحتهم هذا الامتياز ». ولكن الأمميين احتقروا هذا الشعب الغريب الذى يعيش منعزلاً ويتمتع بامتيازات خاصة . (ج) وقد احترمت الدولة الرومانية قدسية يوم السبت ، فلم يكن اليهودى يدعى للشهادة فى محكمة يوم السبت ، فإذا وزعت هدايا خاصة للشعب يوم السبت ، احتفظ اليهود بحقهم فى الحصول على هداياهم فى اليوم التالى . ولكن فوق الكل أعفى اليهود من الخدمة فى الجيش الرومانى؛ لأنهم لم يكونوا يحملون السلاح أو يعملون يوم السبت ولك أن تتصور ضيق باقى الشعوب منهم وهم يؤدون واجب الجندية فى الجيش الرومانى .

غير أن اليهود أدينوا بأمرين :

(ا) اتهموا بإنكار وجود الله ، فقد كان غريباً على الناس وقتها أن لا يروا لليهود آلهة منظورة ، حتى اتهموهم بلفى بأنهم « شعب متميز بكراهيته لكل الآلهة » .ويقول تاسيتوس : « يقول اليهود إن إلههم واحد، ولذلك فليس عندهم صور أو تماثيل فى مدنهم أو فى هياكلهم ، وهم لا يقدمون عبادة للملوك ولا حتى لقيصر » . ويقول جوفينال : « إنهم لا يقرون إلا السحب وآلهة السماء » . ولكن الحق هو أن اليهود أثاروا كراهية الأمم لهم ، لا لأن عبادتهم خالت من الصور ، لكن لأنهم احتقروا الديانات الأخرى وأصحابها ، ولا يمكن لرسول أن ينجح لو احتقر الناس الذين أرسل إليهم . وعندما قال بولس إن اليهود جلبوا التجديف على اسم الله . كان يقصد أنهم جلبوا هذا باحتقارهم للآخرين .

(ب) اتهموا بكراهية المواطنين من حولهم ، فيقول تاسيتوس :« إن أمانتهم بين بعضهم أمانة مطلقة، ورحمتهم لبعضهم تدفعهم للعمل النشيط ، ولكنهم يبدون للآخرين كراهية وعداء » . وهناك قصة أن يهود اسكندرية تعاهدوا ألا يظهروا

وحمة لأممى ، حتى أنهم كانوا يقدمون يونانياً كذبيحة لإلههم سنوياً ! ويقول ناسيتوس إن الأمميين الذين آمنوا باليهودية كانوا يتلقون الوصية بأن « يحتقروا الآلهة ويتبرأوا من جنسيتهم ويحطوا من قدر آبائهم وإخوتهم وأطفالهم » .
ويقول جوفينال إن اليهودى كان يرفض أن يجاوب سائلاً عن الطريق إلا إذا كان السائل يهودياً ، وأنه لم يكن يهدى ظامئاً إلى بئر ماء إلا إذا كان الظامىء مختوناً ! ومن هذا نرى احتقـــار اليهود للآخرين ، الذى لابد سيجد صداه كراهية وحقداً .

لقد جاب اليهود التجديف على اسم الله لأنهم عزلوا أنفسهم عن كل من عداهم ، واحتقروا الوثنيين وطريقة عبادتهم . ولـكن الديانة الحقيقية هى ديانة القلب المفتوح والباب المفتوح . أما اليهودية فـكانت عبـــادة القلب المغلق والباب المغلق !

صدق الله وكذب الانسان

إِذًا مَا هُوَ فَضْلُ الْيَهُودِيِّ أَوْ مَا هُوَ نَفْعُ الْخِتَانِ . كَثِيرٌ عَلَى كُلِّ وَجْــهٍ . أَمَّا أَوَّلاً فَلأَنَّهُمُ اسْتُؤْمِنُوا عَلَى أَقْوَالِ اللهِ . فَمَاذَا إِنْ كَانَ قَوْمٌ لَمْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ . أَفَلَعَلَّ عَدَمَ أَمَانَتِهِمْ يُبْطِلُ أَمَانَةَ اللهِ . حَاشَا . بَلْ لِيَــكُنِ اللهُ صَادِقًا وَكُلُّ إِنْسَانٍ كَاذِبًا . كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ لِــكَىْ تَتَبَرَّرَ فِي كَلامِكَ وَتَغْلِبَ مَتَى حُوكِمْتَ .

وَلَــكِنْ إِنْ كَانَ إِثْمُنَا يُبَيِّنُ بِرَّ اللهِ فَمَاذَا نَقُولُ . أَلَعَلَّ

اللهَ الَّذِي يَجْلِبُ الغَضَبَ ظَالِمٌ . أَتَكَلَّمُ بِحَسَبِ الإِنْسَانِ . حَاشَا . فَكَيْفَ يَدِينُ اللهُ العَالَمَ إِذْ ذَاكَ . فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صِدْقُ اللهِ قَدِ ازْدَادَ بِكَذِبِي لِمَجْدِهِ فَلِمَاذَا أُدَانُ أَنَا بَعْدُ كَخَاطِئٍ . أَمَا كَمَا يُفْتَرَى عَلَيْنَا وَكَمَا يَزْعُمُ قَوْمٌ أَنَّنَا نَقُولُ لِنَفْعَلِ السَّيِّآتِ لِكَيْ تَأْتِيَ الخَيْرَاتُ . الَّذِينَ دَيْنُونَتُهُمْ عَادِلَةٌ .

(رومية ٣ : ١ ــ ٨)

فى هذه الفقرة يجادل بولس الرسول بطريقة يصعب علينا فهمها، ولكن الفهم يسهل لو أدركنا أن بولس يجادل شخصاً يتخيله . وتسير المجادلة كالآتى :

المعارض : نتيجة ما قلته يا بولس ترى أنه لا فرق بين يهودى ووثنى ، فإن كليهما يقف فى نفس الموقف ، فهل هذا ما تقصده فعلاً ؟

بولس : لا بالطبع .

المعارض : إذاً ما هو الفرق ؟

بولس : يملك اليهود مالم يملكه الوثنيون . عندهم أقوال الله .

المعارض : واضح ! ولكن ماذا يحدث لو أن بعض اليهود عصوا أقوال الله ولم يكونوا أمناء له ، لحقت عليهم دينونة الله ؟ لقد ذكرت أن الله أعطى اليهود مكانة خاصة ووعداً خاصاً ، ولكنك تمضى لتقول إن بعض اليهود على الأقل تحت دينونة الله . هل معنى هذا أن الله نقض وعده فأظهر أنه ظالم لا يعتمد عليه ؟

بولس : حاشا ! إن هذا يظهر أن الله لايحابى أحداً ، وأنه يعاقب الخطية

أينما وجدت . إن عقاب الله لليهودى الكاذب هو أفضل برهان على عدالته المطلقة، ذلك أنه لم يتغاض عن خطايا شعبه ، وهذا خير دليل على عدالته المطلقة ، وعلى حقه فى إدانة كل الأرض .

المعارض : لقد واجهتنا بمشكلة جديدة ! لقد أظهرت أن عصيانى أعطى الله فرصة ليبرهن بها على بره وعدالته . إن إثمى بين بر الله ، فكيف تدعونى خاطئاً إذن ؟ إن خطيتى رائعة لأنها أعطت الله فرصة يبرهن بها على عدالته وصلاحه . صحيح أننى أخطأت ، لكن نتائج صالحة ترتبت على هذا الخطأ ! ولن تقدر أن تدين إنساناً وهب الله فرصة ليظهر عدالته !

بولس : هذه مناقشة عقيمة ، ولو فكرت فيها لاكتشفت أنها افتراء !

• • •

والآن تعالوا ندرس أفكار بولس فى هذه الفقرة :

١ — يعتقد بولس أن لليهود مكانة خاصة عند الله تصاحبها مسئولية، ولكن اليهود اعتقدوا أن لهم مكانة خاصة تصاحبها امتيازات بدون مسئوليات . ويقول بولس إن مكانة اليهود تجىء من أنهم « استؤمنوا على أقوال الله » — و «أقوال» تعنى إعلانات الله الخاصة ، ويقصد بها الوصايا العشر . إذاً لقد استأمن الله اليهود على وصايا ، لا على امتيازات ، وكأن بولس يقول لهم : « إنكم شعب خاص ، ولذلك فإنكم لا تقدرون أن تفعلوا ما يحلو لكم ، بل يجب أن تحيوا حياة خاصة » . وكأن الله يقول لهم : « بما أنكم شعب خاص فيجب أن تفعلوا ما أرضاه » . لقد صاحب المكانة الخاصة واجب خاص ، لا إعفاء من واجبات . حسناً قال اللورد دونسانى الذى نجا فى الحرب العالمية الأولى : « لقد نجوت بطريقة غريبة ، ولست أدرى ماذا يقصد الله من الحياة التى أنقذها بهذه الطريقة الخاصة » . غير أن هذه الفكرة لم تخطر لليهود ، فلم يدركوا أبداً أن مكانتهم الخاصة حملت معها مسئولية كبيرة !

٢ — فى كل ما كتب بولس هناك ثلاث حقائق عن اليهود ، يوردها بولس هنا باقتضاب ثم يوضحها فيما بعد فى الرسالة . ولنلاحظ أن بولس لا يضع كل اليهود تحت الدينونة ، ولكنه يقول : « قوم لم يكونوا أمناء » .

(أ) يرى بولس أن عقاب بعض اليهود عدالة إلهية . لقد أعطاهم الله مواعيد ومكانة ، ولكنهم لم يكونوا أمناء ، فحق عليهم القضاء ، لأن المسئولية تصحب الامتياز دائماً ، وكلما زادت فرص الإنسان لعمل الصواب عظمت عقوبته إذا ارتكب الخطأ .

(ب) على أن بعضهم كانوا أمناء ، وبولس يذكر دوماً البقية الأمينة ، التى مهما صغر عددها فهى جماعة « اليهود الحقيقيين » (حسب التعريف الوارد فى ٢ : ٢٩) . أما الأغلبية غير الأمينة فقد خسرت امتيازاتها وصارت تحت الدينونة ، ولم تصبح « يهودية » ممدوحة من الله .

(ج) ويؤمن بولس أن رفض إسرائيل للرب « ليس نهائياً » فإن رفضهم قد فتح الباب لدخول « الأمم » إلى الإيمان ، ولكن « فى النهاية » سيقود الأمم اليهود معهم إلى حظيرة الإيمان ، فيصبح اليهود والأمم رعية واحدة للراعى الواحد ، يسوع . إن مأساة اليهودى هى أنه رفض أن يحمل مسئولية الكرازة برسالة الله للعالم كله ، فأعطى الله هذه المسئولية للأمم ، وهكذا انعكس الوضع . وفى النهاية سيبشر الأمم اليهود ويقودونهم إلى المسيح .

على أن هذه الفقرة تحمل لنا فكرتين إنسانيتين عظيمتين :

١ — إن العصيان هو أساس كل شر ، فقد كان أساس خطية اليهود هو عصيانهم لناموس الله الذى عرفوه . كما أن عصيان الإنسان الأول كان سبب فقدان الفردوس . عندما أثارت الكبرياء إرادة الإنسان ضد إرادة الله جاءت الخطية ، فما لم يكن هناك عصيان ما كانت هناك خطية .

٢ — عندما يرتكب الإنسان الخطية يلتمس الأعذار لنفسه ، ويقدم بولس لنا هنا مجادلة تتكرر دوماً فى الفكر الدينى ، تقول إن الخطية صالحة لأنها تنتج شيئاً صالحاً ، فهى تظهر محبة الله ورحمته عندما يغفرها . ولكن هذه مجادلة ملتوية، فإننا قياساً عليها يمكن أن نقول إن كسر قلب شخص شيء صالح ، لأنه يعطى المكسور القلب فرصة التعبير عن المحبة. إنها مجادلة صاحب القلب القاسى المتحجر. عندما يخطىء الإنسان لا يكون محتاجاً لمجادلة ليبرر الخطأ ، لكنه يحتاج إلى تواضع ليعترف بذلك الخطأ!

العالم بلا مسيح

فَمَاذَا إِذاً . أَنَحْنُ أَفْضَلُ . كَلاَّ الْبَتَّةَ . لِأَنَّنَا قَدْ شَكَوْنَا أَنَّ الْيَهُودَ وَالْيُونَانِيِّينَ أَجْمَعِينَ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ . لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ . لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللهَ . الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعاً . لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحاً لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ . حَنْجَرَتُهُمْ قَبْرٌ مَفْتُوحٌ . بِأَلْسِنَتِهِمْ قَدْ مَكَرُوا . سِمُّ الأَصْلاَلِ تَحْتَ شِفَاهِهِمْ ، وَفَمُهُمْ مَمْلُوءٌ لَعْنَةً وَمَرَارَةً . أَرْجُلُهُمْ سَرِيعَةٌ إِلَى سَفْكِ الدَّمِ . فِى طُرُقِهِمِ اغْتِصَابٌ وَسَحْقٌ . وَطَرِيقُ السَّلاَمِ لَمْ يَعْرِفُوهُ . لَيْسَ خَوْفُ اللهِ قُدَّامَ عُيُونِهِمْ .

(رومية ٣: ٩ — ١٨)

قال بولس فى الفقرة السابقة إن لليهود مكانة خاصة لأنهم استؤمنوا على

أقوال الله ، ولا بد أن المجادل اليهودى يقول : « إذاً فنحن أفضل » . ولكن بولس هنا يعلن أن اليهود والأمم سواء ، بدون مسيح ، وتحت سلطان الخطية . وبولس عندما يقول إن « اليهود واليونانيين أجمعين تحت الخطية » يعنى « تحت قوة أو تحت سلطان » الخطية . فى متى ٨ : ٩ نقرأ « لى جند تحت يدى » بمعنى « تحت سلطانى ، يأتمرون بأمرى » . وتلميذ المدرسة تحت سلطان معلمه ، والعبد نير سيده . والإنسان البعيد عن المسيح هو تحت أمر سلطان وسيطرة الخطية . وهو عاجز عن الهروب منها .

ونجد فى هذه الفقرة كلمة هامة ، فى آية ١٢ ، هى « فسدوا » بمعنى ضاعت فائدتهم ، وهى تستعمل عن اللبن الذى فسد ولم يعد صالحاً ، والطبيعة الإنسانية بدون المسيح فاسدة بلا فائدة .

ويقتبس بولس آيات مختلفة من العهد القديم ، من مزمور ١٤ : ١ ــ ٣ ، ٥ : ٩ ، ١٤٠ : ٣ ، ١٠ : ٧ ، أشعياء ٥٩ : ٧ ، ٨ ، مزمور ٣٦ : ١ .وقد كانت عادة معلمى اليهود أن يقتبسوا الآيات ويربطوها معاً بهذا الشكل ، كما تربط اللآلىء معاً لتشكل العقد الواحد .

والأوصاف التى يوردها بولس وصف قوى للعفن الذى يصيب الطبيعة الإنسانية بعيداً عن المسيح . ويقول المفسر فوجان إنها تصف ثلاثة أشياء .

١ ــ الشخصية التى تتصف بالجهل واللامبالاة والإلتواء وعدم الفائدة .

٢ ــ اللسان الناطق بالهدم والخداع والخبث .

٣ ــ السلوك الذى يتصف بالظلم والأذى والحقد . وهذه كلها نتيجة ترك الله .

لم ير أحد شر الطبيعة الإنسانية كما رآه بولس ، ولكن بولس يرقب هذا بدون يأس ، بل بأمل كامل فى الإصلاح . وعندما نقول إن بولس آمن بالخطية

الأصلية ، وبفساد الطبيعة البشرية ، يجب ألا ننسى أنه لم يفشل من الطبيعة الإنسانية ولم يسخر منها . قال أحد رجال الله بعد أن كبر في العمر : « ذا كرتي بدأت تخونني ، لـكن هناك أمرين يجب ألا أنساهما ، وهما أنني خاطىء كبير وأن يسوع المسيح مخلص أكبر » . لم يستخف بولس أبداً بخطية الناس ، كما لم يستخف بقوة المسيح الفادية . كان أحد الوعاظ قد أصيب بالفشل نتيجة نقص ثمار خدمته لله ، وعزم أن يترك خدمة الله ، حتى لاقاه يوماً زميل له سأله : « هل وصل سامعوك إلى درجة يستحيل معها خلاصهم » فأعادته الـكلمات إلى صوابه ورجع إلى خدمته . ورأى بولس أن الناس بدون المسيح أردياء ، لـكنه لم ير رداءتهم مستحيلة التغيير ، وكان متأكداً أن المسيـــح الذي غيره قادر أن يغيرهم أيضاً .

الطريق الوحيد للعلاقة السليمة مع الله

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ النَّامُوسُ فَهُوَ يُكَلِّمُ بِهِ الَّذِينَ فِي النَّامُوسِ لِكَيْ يَسْتَدَّ كُلُّ فَمٍ وَيَصِيرَ كُلُّ الْعَالَمِ تَحْتَ قِصَاصٍ مِنَ اللهِ . لِأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لَا يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ . لِأَنَّ بِالنَّامُوسِ مَعْرِفَةَ الْخَطِيَّةِ .

وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ ظَهَرَ بِرُّ اللهِ بِدُونِ النَّامُوسِ مَشْهُوداً لَهُ مِنَ النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءِ . بِرُّ اللهِ بِالإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ إِلَى كُلِّ وَعَلَى كُلِّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ . لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ . إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ . مُتَبَرِّرِينَ مَجَّاناً

بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ. الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ لإِظْهَارِ بِرِّهِ مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ اللهِ. لإِظْهَارِ بِرِّهِ فِي الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لِيَكُونَ بَارًّا وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ.

(رومية ٣ : ١٩ — ٢٦)

ليست هذه الفقرة سهلة على الفهم ، لكنها مليئة بالمعاني الغنية ، فلنتأمل فى الحقائق العظيمة الكامنة فيها .

إن مشكلة الحياة الرئيسية هى : كيف يصل الإنسان إلى علاقة سليمة مع الله ؟ كيف يكون فى سلام وصداقة معه ؟ كيف يتخلص الإنسان من الإحساس بالغربة مع الله ومن الخوف منه ؟ قالت الديانة اليهودية ، جواباً على هذه الأسئلة : « يصل الإنسان إلى العلاقة السليمة مع الله عندما يحفظ وصاياه تماماً . ويصحح موقفه من الله ، وعندما يتمم مطالب الناموس » . ولكن هذا يعنى استحالة وصول الإنسان إلى علاقة سليمة بالله ، لأنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يحفظ مطالب الناموس . ولما كان الإنسان غير كامل فإنه يعجز عن بلوغ الطاعة الكاملة ، ولا يستطيع أحد أن يقدم خدمة كاملة لإله كامل .

فما هى فائدة الناموس إذاً ؟ إن فائدته أنه يشعر الإنسان بخطئه ، فعندما يرى الإنسان ما يجب أن يكونه يدرك أنه لم يبلغه ، وعندما يعرف مطالب الناموس ويحاول تنفيذها يتحقق أنه عاجز عن ذلك . الناموس إذن يكشف للإنسان عجزه وخطيته — فهل الإنسان إذن منفصل عن الله ؟ كلا البتة ! لأن الطريق إلى الله ليس طريق الناموس ، بل طريق النعمة ، لا طريق الأعمال ، بل طريق الإيمان .

ويقدم بولس ثلاثة أمثلة ليوضح فكرته :

١ ـــ يستخدم مثلا من قاعة المحكمة ، ويدعوه « التبرير » . ولنذكر أننا نبحث عن كيفية وصول الإنسان إلى علاقة سليمة بالله ، وبولس يقول هنا إن الإنسان يحاكم أمام الله ، والله يبرره . والكلمة المترجمة هنا « يبرر » معناها فى اليونانية أن « يحسب ويعتبر » شخصاً ما أنه أصبح فى حالة خاصة ، ولا تعنى أن « يجعل » الشخص فى حالة خاصة . فعندما يظهر برىء أمام القاضى فإن القاضى يعامله كبرىء ، ولكن بولس ، يقول هنا إن الخاطىء الذى يظهر أمام الله هو أبعد ما يكون عن البراءة ، بل هو مخطىء أثيم . ومع ذلك فإن الله ـ فى محبته الكاملة ـ يعامله ويحسبه ويعتبره كأنه إنسان برىء . وهذا ما يقصده بولس بكلمة « التبرير » . وعندما يقول بولس إن الله يبرر الفاجر يعنى أن الله فى محبته الكاملة يعامل الفاجر كأنه صالح . وقد صدم هذا الفكر اليهود صدمة قاسية ، فإن معاملة الفاجر كإنسان صالح يعنى أن القاضى شرير : « مبرىء المذنب ومذنب البرىء كلاهما مكرهة للرب » (أمثال ١٧ : ١٥) ـ « لأنى لا أبرر المذنب » (خروج ٢٣ : ٧). ولكن بولس يقول إن الله يبرر المذنب ـ فكيف يحدث هذا ؟ يحدث لأن يسوع فعل هذا ، فقد جاء ليخبرنا أن الله يحبنا ، رغم شرنا ، وأننا أعزاء على الله رغم رداءتنا . ولكن عندما نكتشف هذه الحقيقة تتغير صلتنا بالرب ، وإذ نشعر بخطيئتنا لا نقع فى الرعب ، ولكننا نجىء إلى الله فى انكسار وتوبة كما يجىء الطفل النادم إلى أمه ، ونحن واثقون أنه يقبلنا لأنه يحبنا . هذا إذن هو معنى « التبرير بالإيمان بيسوع المسيح » . إنه يعنى أننا نصبح فى علاقة سليمة مع الله لأننا نؤمن أن ما قاله لنا يسوع عن الله صحيح تماماً ، فلا نرتعب لأننا غرباء على الله الغاضب علينا ، ولكننا أطفال مخطئون يجيئون للآب السماوى المحب واثقون فى الغفران . وما كان يمكننا أن ندرك هذه الحقيقة لو لم يأت المسيح ليحيا ويموت ليخبرنا بهذا ، ولن نتبرر حتى نصدق أن كل ما قاله لنا يسوع عن الله صحيح تماماً .

٢ — ويقدم بولس لنا مثلاً من التضحية ، فيقول إن الله قدم المسيح عنا لننال غفران خطايانا ، « كفارة » ، وهناك صلة بين الكفارة وبين الذبيحة . ففي ناموس العهد القديم كان المخطىء يقدم لله ذبيحة يهدف منها إلى جلب رضا الله ، وإزالة غضبه ورفع العقوبة عنه . لنفترض أن إنساناً أخطأ ، فالخطية تفسد العلاقة بينه وبين الله ، ولكي تعود العلاقة السليمة يقدم المخطىء ذبيحة ! ولكننا نعلم أن الذبائح الحيوانية فشلت في تحقيق هذا « لأنك لا تسر بذبيحة وإلا فكنت أقدمها . بمحرقة لا ترضى » (مزمور ٥١ : ١٦)ـ« بم أتقدم إلى الرب وأنحني للإله العلي ؟ هل أتقدم بمحرقات ، بعجول أبناء سنة ؟ هل يسر الرب بألوف الكباش ، بربوات أنهار زيت ؟ هل أعطي بكري عن معصيتي ؛ ثمرة جسدي عن خطية نفسي »؟ (ميخا ٦ : ٦ ، ٧) لقد شعر الناس أن الذبائح لا تكفر عن خطاياهم . ولكن بولس هنا يقول إن يسوع المسيح بحياته حياة الطاعة الكاملة ؛ وبموته موت الحب الكامل ، قدم نفسه ذبيحة لله ، كفرت الكفارة الحقيقية عن الخطية. ويقول بولس إن ما حدث على الصليب فتح الباب للعلاقة السليمة مع الله ، الأمر الذى فشلت فيه كل ذبيحة أخرى .

٣ ـــ والمثل الثالث يقدمه بولس من « العبودية » ـ « من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله» . وكلمة « الصفح » هنا تعني الفداء والتحرير . كان الإنسان تحت سلطة الخطية وسطوتها ولكن يسوع وحده يحرره منها .

وينهي بولس حديثه في الفقرة بقوله إن الله فعل هذا كله لأنه بار ، ولأنه يقبل كل من يؤمن بالمسيح ليكون في علاقة سليمة معه . . وهذا يعني أن الله البار يقبل الخاطىء كشخص بار . ربما كان الأمر الطبيعي أن نقول أن الله البار يدين الإنسان الخاطىء كمجرم ، ولكن الله في إنعامه المعجزي الذى لا يصدق يقبل الخاطىء لا كمجرم بل كإبن يستحق الحب !

والآن ماهو جوهر هذا كله ؟ أين الفرق بين هذا وبين كلام الناموس القديم؟

الفرق أن طاعة الناموس تعنى مايقدر الإنسان أن يفعله لنفسه ، لـكن النعمة تهتم بما يقدر الله أن يفعله ، وقد فعله لأجل الإنسان . ويقول بولس إن كل ما نفعله لا يمكن أن يكسبنا غفران الله ، ولـكن مافعله الله وحده هو الذى يجعل الغفران ممكناً . وعلى هذا فإن الطريق إلى العلاقة السليمة مع الله ليس السعى المحموم المرتعب من جانبنا ، لـكن الخضوع التائب المتواضع ، وقبول محبة الله التى قدمها لنا المسيح

نهاية طريق الجهد البشرى

فَأَيْنَ الافْتِخَارُ. قَدِ انْتَفَى. بِأَيِّ نَامُوسٍ. أَبِنَامُوسِ الأَعْمَالِ . كَلاَّ . بَلْ بِنَامُوسِ الإِيمَانِ . إِذاً نَحْسِبُ أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَبَرَّرُ بِالإِيمَانِ بِدُونِ أَعْمَالِ النَّامُوسِ . أَمِ اللهُ لِلْيَهُودِ فَقَطْ . أَلَيْسَ لِلأُمَمِ أَيْضاً . بَلَى لِلأُمَمِ أَيْضاً . لأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ هُوَ الَّذِي سَيُبَرِّرُ الْخِتَانَ بِالإِيمَانِ وَالْغُرْلَةَ بِالإِيمَانِ . أَفَنُبْطِلُ النَّامُوسَ بِالإِيمَانِ . حَاشَا . بَلْ نُثَبِّتُ النَّامُوسَ .

(رومية ٣ : ٢٧ — ٣١)

يعالج بولس هنا ثلاث نقاط :

١ — مادام الطريق إلى الله هو طريق الإيمان والقبول ، فإن كل افتخار بالجهد البشرى ينتهى تعامل بعض اليهود مع الله بطريقة تجارية ، فعند كل تنفيذ لمطالب الشريعة أضاف اليهودى نقطة إلى حسابه الدائن لله ، حتى انتهى الأمر به إلى الاعتقاد أن الله مدين له ! ولـكن بولس يقول إن كل إنسان خاطىء ، وإنه لا يستطيع أحد أن يضع نفسه فى إطار العلاقة السليمة مع الله بمجهوده ، وإن كل إنسان مديون لله ، وعلى هذا فقد انتهت إلى الأبد كل تفـكيرات الإنسان الخاطئة فى أنه صاحب فضل على الله يستحق الفخر !

٢ — وقد يقول يهودى: « هذا كلام صحيح بالنسبة للأممى الذى لم يعرف الناموس ، ولـكنه لا ينطبق على أنا الذى أعرفه! ويجاوب بولس مقتبساً الـكلمة التي تتلى في قانون الإيمان في كل معبد يهودى « اسمع يا إسرائيل ! الرب إلهنا رب واحد » (تثنية ٦ : ٤) ليس هناك إله خاص بالوثن وآخر خاص باليهودى فإن الله واحد ، والطريق إليه بالنسبة لليهودى أو للوثنى هو طريق واحد . . إنه طريق الثقة والقبول بإيمان لا طريق الفخر بالجهد البشرى .

٣ - وقد يسأل يهودى : هل هذا نهاية الناموس ؟ وكنا نظن أن بولس يقول : نعم ! ولـكن بولس يقول : « حاشا ! بل نثبت الناموس » : لقد حاول اليهودى أن يكون إنساناً صالحـاً . وحاول أن يحفظ الوصايا وأن يخدم الله ، لأنه كان يخاف الله وهو مرتعب من العقاب الذى سيوقعه الناموس عليه . . ولـكن هذا اليوم مضى ، وحل محله يوم آخر . . يوم « محبة الله » والآن يحاول الإنسان أن يكون صالحاً ويحفظ الوصايا ، لاخوفاً من عقاب الله ، ولـكن محاولة فى إرضائه بكل ذرة من قوته يحبه . إنه يسعى نحو الصلاح حباً فى الله . لا خوفاً منه . وهو يعلم أن الخطية ليست كسراً لناموس الله ؛ بل كسراً لقلب الله ، وعلى هذا فإنه يخاف الخطية جداً.

يجرب إنسان بالخطأ ولا يرتـكبه . لماذا ؟ لا لأنه يخاف القانون ؛ فإنه قد لا يهتم كثيراً بدفع غرامة أو حتى لو سجن ، ولـكنه لا يرتـكب الخطأ لانه لا يريد أن يكسر قلب محبيه المحيطين به ؛ وعلى هذا فإن الذى يحكمه هو ناموس المحبه لا ناموس الخوف . ويصدق هذا على موقفنا من الله . أننا نحبه ولا نريد أن نـكسر قلبه . إن قانون المحبة أقوى قانون . . أقوى من الخوف . لأن المحبة الـكاملة تطرح الخوف إلى خارج !

الايمان الذي يصدق الله

فَمَاذَا نَقُولُ إِنَّ أَبَانَا إِبْرٰهِيمَ قَدْ وَجَدَ حَسَبَ الْجَسَدِ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ إِبْرٰهِيمُ قَدْ تَبَرَّرَ بِالْأَعْمَالِ فَلَهُ فَخْرٌ. وَلٰكِنْ لَيْسَ لَدَى اللهِ. لِأَنَّهُ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ. فَآمَنَ إِبْرٰهِيمُ بِاللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا. أَمَّا الَّذِي يَعْمَلُ فَلَا تُحْسَبُ لَهُ الْأُجْرَةُ عَلَى سَبِيلِ نِعْمَةٍ بَلْ عَلَى سَبِيلِ دَيْنٍ. وَأَمَّا الَّذِي لَا يَعْمَلُ وَلٰكِنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي يُبَرِّرُ الْفَاجِرَ فَإِيمَانُهُ يُحْسَبُ لَهُ بِرًّا. كَمَا يَقُولُ دَاوُدُ أَيْضًا فِي تَطْوِيبِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَحْسِبُ لَهُ اللهُ بِرًّا بِدُونِ أَعْمَالٍ. طُوبَى لِلَّذِينَ غُفِرَتْ آثَامُهُمْ وَسُتِرَتْ خَطَايَاهُمْ. طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَا يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً.

(رومية ٤ : ١ — ٨)

يتحدث بولس عن إبرهيم لثلاثة أسباب :

١ — اعتبر اليهود إبرهيم مؤسس جنسهم العظيم ، وأنه النموذج لما يجب على الإنسان أن يكونه . ومن الطبيعي لليهودي أن يسأل بولس : « إن كان كل ماتقوله صحيحاً ، فما هو الشيء الذي خص الله إبرهيم به عندما اختاره ليكون أبا لشعبه الخاص ؟ أين هي مكانة إبرهيم الخاصة ؟ وما هو إمتياز شعب إبرهيم ؟ » . وبولس هنا يجاوب على هذه التساؤلات .

٢ — يحاول بولس أن يبرهن على أن يجعل علاقة الإنسان بالله علاقة سليمة (التبرير) هو الثقة الكاملة فى كلمة الله التى تقول إن الله يحبنا رغم أننا لم نفعل شيئاً يستحق هذا الحب . . لا فى اعتمادنا على الأعمال التى يطلبها الناموس. ولابد أن اليهودى يقول : « هذا شىء جديد علينا ، ينافى ما سبق أن تعلمناه وآمنا به . هذا تعليم غريب لا نصدقه » وبولس يقول هنا : « ليس هذا التعليم جديداً ، لكنه قديم قدم الإيمان اليهودى . وليس فى هذا بدعة ، بل هو صلب العقيدة اليهودية » . ثم يبرهن بولس صدق كلامه هذا .

٣ — تحدث بولس عن إبرهيم لأن بولس معلم حكيم يعرف العقل البشرى وكيفية أدائه . إنه يتكلم عن « الإيمان » وهى كلمة تجريدية نظرية ويصعب على الإنسان العادى أن يدرك المعانى المجردة ، ولذلك فإن المعلم الحكيم بولس يجسد الفكرة التجريدية المجردة بمثال ملموس واقعى ، فيستطيع الإنسان العادى أن « يلمس » الفكرة ويفهمها لأنها تجسدت فى شخص . وكأن بولس هنا يقول : « لقد كنت أتكلم عن الإيمان ، فإن أردتم أن تدركوه ، فها كم إبرهيم المؤمن » وهكذا يرى قراء بولس الإيمان المجرد متجسداً فى إبرهيم المؤمن ، فيفهمون فكرة الإيمان . .

كان كل يهودى يعرف إبرهيم ويحبه ، لأنه كان يحتل أعظم مكانة فى الفكر اليهودى ، فهو مؤسس الجنس ، وأول من كلمه الله واختاره بطريقة خاصة ، ووجد فيه الطاعة الكاملة . وكان بولس يرى عظمة إبرهيم فى أن الله دعاه ليترك أهله وبلاده واعداً أن يجعله أمة عظيمة ، إن هو قبل المغامرة مع الله بالإيمان . وصدق إبرهيم كلمة الله ، ولم يجادل ولم يتردد ، بل أطاع وهو لا يعلم إلى أين يأتى (عبرانيين ١١ : ٨) . لم تكن عظمة إبرهيم فى طاعته لمطالب الناموس ، ولم ينل صلته الخاصة بالرب بسبب أعمال الناموس ، لكنه وصل إلى ما بلغه بفضل ثقته الكاملة بالله ، وخضوعه الكامل ومغامرته فى سبيل الله . هذا هو الايمان الذى جعل الله يعتبر أن إبرهيم رجل صالح .

وقد آمن قليل من المعلمين اليهود التقدميين بهذه الفكرة ، فقد جاء فى تفسير لهم : « إبرهيم أبونا ورث هذا العالم والعالم الآتى باستحقاق إيمانه وحده ، إذ آمن بالله فحسب له براً » . غير أن معظم المعلمين اليهود شرحوا قصة إبرهيم بما يناسب أفكارهم ، فقالوا إنه كان الرجل الوحيد البار فى زمانه ، فاختاره الله جداً لشعبه الخاص . ولكن كان لابد أن يجاوب هؤلاء على سؤال يقول: « ولكن كيف حفظ إبرهيم الناموس ، مع أنه عاش قبل مجىء الناموس ببضع مئات من السنين ؟ » . وكانت إجابتهم أنه حفظه « بالبديهة والحدس والاستباق ». وتقول رؤيا باروك (٥٧ : ٢)« فى ذلك الوقت كان الناموس غير المكتوب معروفاً لديهم ، وهكذا تنفذت أعمال الناموس » ـ « لقد حفظ ناموس الله العلى ، فأكد الله له عهده ، وأدخله فى العهد معه ، وحلف له أنه سيبارك نسله » (٤٤ : ٢٠ ، ٢١) . وقد أعجب المعلمون اليهود بهذه الفكرة حتى قالوا إن الله اختار إبرهيم بسبب أعماله ، رغم أن هـــذا جرهم إلى القول إن إبرهيم عرف الناموس بالبديهة !

ويكمن هنا الاختلاف بين اليهودية التقليدية وبين الإيمان المسيحى ، فقد قال اليهود إن الانسان يجب أن « يكسب » رضى الله ، بينما يقول الإيمـــان المسيحى إن الإنسان لن يكسب رضى الله ، لكنه يجب أن يثق فى كلام الله ويصدق كل وعد من مواعيده . وقد دلل إبرهيم على صدق نظريته هذه بأن إبرهيم وصل إلى العلاقة السليمة مع الله ، لا بسبب أعمال الناموس التي قام بها ، لكن لأنه وثق ثقة كاملة فى وعود الله وكلمته . وما أجمل ما قيل : « لتكن محبتك بسيطة ، وثق فى كلمة الله ، حتى تشرق حياتك بالنور بفضل حلاوة الله » .

وعلينا أن نكتشف أننا لسنا فى حاجة إلى تعذيب نفوسنا فى معركة فاشلة لنكسب رضى الله ، ولكننا يجب أن نفتح قلوبنا بثقة لنقبل محبة الله التى يعرضها علينا . وعلينا بعد ذلك أن نثبت أننا أهل لهذه المحبة ، لا كمجرمين نحاول أن

نطيع الناموس الطاعة المستحيلة ، لكن كأبناء أحباء نبذل كل شيء في سبيل من أحبنا أولاً فاستحق كل الحب !

عندما ذهب روبرت لويس ستيفنسون إلى « ساموا » بنى كوخاً صغيراً ، ثم انتقل إلى بيت كبير . وفي ليلته الأولى في البيت الكبير شعر بأسف لأنه لم يطلب من خادمه أن يحضر له القهوة . وما أن خطر هذا الفكر بباله حتى رأى خادمه داخلاً غرفته وقد حمل إليه القهوة ! فقال له ستيفنسون : « عظيم تفكيرك ! » فصحح الخادم التعبير وقال : « بل عظيمة هي المحبة ! » . لقد جاءت الخدمة ، لا بدافع الطلب والتوصية ، بل بدافع المحـــبة . . والمحبة دافع كل صلاح مسيحي !

أب المؤمنين

أَفَهٰذَا التَّطْوِيبُ هُوَ عَلَى الْخِتَانِ فَقَطْ أَمْ عَلَى الْغُرْلَةِ أَيْضاً . لأَنَّنَا نَقُولُ إِنَّهُ حُسِبَ لإِبْرٰهِيمَ الإِيمَانُ بِرًّا . فَكَيْفَ حُسِبَ . أَوَ هُوَ فِي الْخِتَانِ أَمْ فِي الْغُرْلَةِ . لَيْسَ فِي الْخِتَانِ بَلْ فِي الْغُرْلَةِ . وَأَخَذَ عَلاَمَةَ الْخِتَانِ خَتْماً لِبِرِّ الإِيمَانِ الَّذِي كَانَ فِي الْغُرْلَةِ لِيَكُونَ أَباً لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَهُمْ فِي الْغُرْلَةِ كَيْ يُحْسَبَ لَهُمْ أَيْضاً الْبِرُّ . وَأَباً لِلْخِتَانِ لِلَّذِينَ لَيْسُوا مِنَ الْخِتَانِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً يَسْلُكُونَ فِي خُطُوَاتِ إِيمَانِ أَبِينَا إِبْرٰهِيمَ الَّذِي كَانَ وَهُوَ فِي الْغُرْلَةِ .

(رومية ٤ : ٩ — ١٢)

قبل أن تدرك معنى هذه الفقرة الكتابية يجب أن نعرف الأهمية التى أضفاها اليهود على الختان ، فقد اعتبر اليهودى أن الأغلف (غير المختون) غير يهودى ، مهما كانت جنسية أبويه . وكانت صلاة الختان اليهودية تقول : « مبارك الله الذى قدس حبيبه من الرحم ، ووضع علامته على جسده ، وختم نسله بعلامة العهد المقدس » . وكانت وصايا معلمى الدين تقول : « لا يجب أن تأكل من وليمة الفصح إلا إذا كانت علامة إبرهيم فى جسدك » . وعندما كان أممى يقبل الإيمان اليهودى كان عليه أن يفعل ثلاثة أشياء : المعمودية ، الذبيحة والختان ، فقد اعتبروا كل أغلف أممياً .

وعلى هذا فإن إبرهيم يجاوب هنا على تساؤل لابد أن القارىء اليهودى يثيره ، فيقول : « سأفترض معك أن إبرهيم حقق علاقته السليمة مع الله بثقته الكاملة وإيمانه . ولكنك يجب أن توافق أن إبرهيم اختتن ». وكان عند بولس الرد المفحم ، فقد دعا الله إبرهيم ووعده بالبركة فى تكوين ١٥ : ٦ ولكن قصة ختانة جاءت فى تكوين ١٧ : ١٠ . والواقع أن إبرهيم ختن بعد أربع عشرة سنة من قبوله دعوة الله ودخوله فى العهد معه ، وعلى هذا فلم يكن الختان باب الدخول إلى العلاقة السليمة بالله ، ولكنه كان العلامة والختم على صحة هذه العلاقة. لقد حسب الله إيمان إبرهيم براً عندما كان إبرهيم أغلفاً ، فلم يكن للختان دخل فى ذلك . أما حسبان البر فكان بناء على الايمان . ومن هذه النقطة يمضى بولس ليستنتج حقيقتين عظيمتين :

١ — ليس إبرهيم أباً لكل مختون ، لكنه أب لكل من يخطو ذات خطوته فى الايمان ، وهو أب لكل إنسان فى كل عصر يثق فى كلمة الله ، كما فعل هو .

وهذا يعنى أن اليهودى الحقيقى الذى مدحه من الله ليس هو اليهودى جنسية ولا هو المختون فى جسمه ، ولكنه هو الذى يؤمن كما آمن إبرهيم ، مهما كانت جنسيته (رومية ٢ : ٢٩) . وهكذا فإن كل مواعيد الله ليست للأمة اليهودية ، بل لكل المؤمنين على نسق إبرهيم . وكلمة «يهودى» فى لغة العهد الجديد

لاتصف نسل إبرهيم الجسدى ، بل تصف الذين يستجيبون لله بقبولهم دعوته . وعلى هذا فإننا فى كل أمه نجد « نسل إبرهيم » الروحى ، الذين هم أعضاء عائلة الله .

٢ — وعكس هذا الكلام صحيح أيضاً ، فقد يكون هناك يهودى بالمولد ، ومختون ، لكنه ليس من نسل إبرهيم ، ولا يحق له أن يدعو إبراهيم أباه ، ولا نصيب له فى مواعيد الله،لأنه لم يشترك مع إبرهيم المؤمن فى إيمانه وثقته .

وعلى هذا فإن بولس ــ فى هذا الفقرة القصيرة ــ حطم الفكر اليهودى الذى كان يظن أنه يتمتع بكل الامتيازات أو توماتيكياً ولا يتعرض لدينونة الله ، لأنه يجىء من نسل ابرهيم بالميلاد . كما حطم فكرة أن الختان هو الباب للتمتع بأبوة إبرهيم . لقد كان معلمو اليهود يقولون إن اليهودى المختون ، مهما كان شريراً ، لاتصيبه دينونة الله . فإذا كانت الدينونة واقعة عليه ولا بد ، فإن ملاكاً متخصصاً كان يلغى ختانه ، ويعيده إلى الغرلة ، قبل توقيع العقوبة عليه !

ولقد أوضح بولس هنا أن الطريق إلى الله ليس عن طريق الانضمام إلى أمة معينة ، ولا بوضع علامة جسدية مميزة . . ولكنه الثقة فى كل مايقول الله ، فيكون الاعتماد على نعمة الله وحدها ، لاعلى أى مجهود بشرى .

الكل من النعمة

فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالنَّامُوسِ كَانَ الْوَعْدُ لِإِبْرَهِيمَ أَوْ لِنَسْلِهِ أَنْ يَكُونَ وَارِثاً لِلْعَالَمِ بَلْ بِبِرِّ الإِيمَانِ . لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الَّذِينَ مِنَ النَّامُوسِ هُمْ وَرَثَةً فَقَدْ تَعَطَّلَ الإِيمَانُ وَبَطَلَ الْوَعْدُ . لِأَنَّ النَّامُوسِ

يُنشِئُ غضباً إذ حيث ليس ناموس ليس أيضاً تعد . لهذا هو من الإيمان كي يكون على سبيل النعمة ليكون الوعد وطيداً لجميع النسل ليس لمن هو من الناموس فقط بل أيضاً لمن هو من إيمان إبرهيم الذي هو أب لجميعنا . كما هو مكتوب إني قد جعلتك أباً لأمم كثيرة . أمام الله الذي آمن به الذي يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة .

(رو ٤ : ١٣ — ١٧)

وعد الله إبرهيم وعداً عظيماً ، أن يجعل منه أمة عظيمة ، وأن كل أمم الأرض تتبارك به (تكوين ١٢ : ٢ ، ٣) . والحقيقة أن الأرض كلها أعطيت له ميراثاً . ولقد أعطى الوعد لإبرهيم بسبب إيمانه وثقته فى الرب ، لابسبب أفضاله التى جمعها من أعماله الصالحة ، ولا بسبب أى مجهود بذله . لقد جاء الوعد نتيجة إنعام الله وكرمه ، رداً على ثقة إبرهيم الكاملة . ويرى بولس أن وعد الله يتوقف على أمرين اثنين فقط : نعمة الله المجانية ، وثقة إبرهيم فى هذه النعمة . كان اليهود يسألون : « كيف يدخل الإنسان إلى العلاقة السليمة بالله ، ليصبح هو أيضاً وارثاً للمواعيد الإلهية ؟ » وكانت إجابتهم : « بواسطة كسب وربح رضا الله عن طريق الأعمال التى يطلبها الناموس » وهذا يعنى أنه يحصل عليها بمجهوده الشخصى . ولكن بولس يقول إن هذا الرد يحطم وعد الله تماماً ، لأنه لم يوجد الإنسان الذى استطاع أن يحفظ كل وصايا الناموس أو عاش الحياة الكاملة التى لم يكسر فيها وصية واحدة ، ولا يوجد إنسان يستطيع أن يوفى مطالب الله الكامل ، لأن الإنسان ناقص . وعلى هذا فإننا لو

اعتمدنا على عملنا وحفظنا لوصايا الناموس لما استطعنــا الحصول على مواعيد الله !

ويرى بولس أمامه طريقين للوصول إلى العلاقة السليمة بالله ، أحدهما طريق الإعتماد على الجهد البشرى ، والآخر الإعتماد على النعمة الإلهية . فى الطريق الأول فشل محقق لأن طاعة كل مطالب الناموس مستحيلة ، ولـكن الطريق الثانى ممكن ، لأنه طريق الثقة فيما يقوله الله .

وفى كل طريق من هذين نجد ثلاثة أمور:

١ — نرى وعد الله — وهناك كلمتان يونانيتان تعنيان «وعد» — هناك الوعد المشروط الذى يقول : « سأعمل كذا لو أنك أنت عملت كيت » وهناك الوعد غير المشروط الذى يعد به إنسان صالح . وبولس يتحدث هنا عن الوعد غير المشروط ، وكأن بولس يقول : « يشبه الله أباً محباً ، يعد أن يحب أطفاله مهما يفعلون » . صحيح أن محبته لبعضهم تسعد قلبه ، ومحبته للبعض الآخر تكسر قلبه ، ولـكنها محبة صادقة على كل حال ، لاتدعنا نضيع ، وهى محبة لاتتوقف على استحقاقنا بل على كرم قلبه .

٢ — نرى الثقة بأن الله فعلاً أب محب وهذه الثقة تساعدنا على المخاطرة فى سبيله، وعلى إسناد رءوسنا المتعبة على صدره، فيهرب الخوف عنا .

٣ — ثم نرى النعمة،العطية المجانية التى لم نشتغل لنكسبها والتى لانستحقها. والواقع أن الإنسان لا يمكن أن يكسب محبة الله ، وسيجد الإنسان سعادته لافيما سيفعله هو للرب ، لـكن فيما فعله الرب لأجله .

وعلى الطريق الآخر :

١ — نجد الناموس. والعيب فى الناموس أنه تشخيص للداء ولـكنه لايعالج

العلاج . وهو يكشف للإنسان نقطة ضلاله لكنه لا يقدر أن يساعده ليتجنب الضلال . ويرى بولس الصعوبة فى أن كل ممنوع مرغوب ، والفاكهة المسروقة لذيذة ، وعلى هذا فإن الناموس يحرك فى الإنسان أحياناً الرغبة فى الخطأ الممنوع عنه . وليس للناموس من فائدة إلا أنه سلاح العقاب ضد المخطىء ، والشخص الذى يحيا تحت ظل ديانة ناموسية لا يرى نفســه إلا مجرماً مداناً ينتظر غضب الله !

٢ — نجد المعصية ، فحيثما قدمنا الناموس تبعته المعصية ، إذ لا يستطيع أحد أن يكسر قانوناً غير موجود ، كما أنه لا يدان أحد بسبب أوامر لم تصدر ! فلو جعلنـا الديانة ، ناموسية لصارت الحياة سلسلة متصلة من المعاصى التى تنتظر العقاب !

٣ — نجد الغضب ، لأننا عندما نرى الناموس والمعصية نتأكد أن الغضب يتبعهما ، فعندما نرى الله من خلال الناموس نتوقع العدالة الصارمة ، وعندما نرى الإنسان من خلال الناموس نتوقع العقوبة القاتلة !

وهكذا يضع بولس أمام أهل رومية طريقين : طريق الإنسان الذى يريد الوصول إلى العلاقة السليمة مع الله (التبرير) بواسطة مجهوده الشخصى ، فيصادفه الفشل . . . والآخر طريق الإيمان الواثق اعتماداً على إنعـام الله الصادق ونتيجته النعمة .

الثقة بالله الذى يجعل المستحيل ممكنا

فَهُوَ عَلَى خِلاَفِ الرَّجَاءِ آمَنَ عَلَى الرَّجَاءِ لِكَيْ يَصِيرَ أَبًا لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ كَمَا قِيلَ هٰكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ . وَإِذْ لَمْ يَكُنْ ضَعِيفاً فِى الإِيمَانِ لَمْ يَعْتَبِرْ جَسَدَهُ وَهُوَ قَدْ صَارَ مُمَاتاً إِذْ كَانَ

ابْنَ نَحْوِ مِئَةِ سَنَةٍ وَلاَ مُمَاتِيَّةَ مُسْتَوْدَعِ سَارَةَ . وَلاَ بِعَدَمِ إِيمَانٍ ارْتَابَ فِي وَعْدِ اللهِ بَلْ تَقَوَّى بِالإِيمَانِ مُعْطِياً مَجْداً لِلهِ. وَتَيَقَّنَ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَهُ أَيْضاً لِذَلِكَ أَيْضاً حُسِبَ لَهُ بِراً . وَلَكِنْ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ أَجْلِهِ وَحْدَهُ أَنَّهُ حُسِبَ لَهُ . بَلْ مِنْ أَجْلِنَا نَحْنُ أَيْضاً أَلَّذِينَ سَيُحْسَبُ لَنَا الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِمَنْ أَقَامَ يَسُوعَ رَبَّنَا مِنَ الأَمْوَاتِ . الَّذِي أُسْلِمَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَأُقِيمَ لِأَجْلِ تَبْرِيرِنَا

(رو ٤ : ١٨ — ٢٥)

انتهت الفقرة السابقة التي درسناها بالقول: إن الله يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة. وهنا يورد بولس مثلاً رائعاً لإيمان ابرهيم وثقته بالله، فقد أعطى ابرهيم وعداً أن يكون أباً لجمهور عندما كان عجوزاً، وكانت زوجته سارة عاقراً. وعندما بلغ ابرهيم من العمر مئة سنة، وسارة تسعين، جاءه الوعد مجدداً أنه سيكون أباً (تكوين ١٧ : ١٧). وقد ظهر الوعد بعيداً عن التحقيق لأن ابرهيم وسارة قد تخطيا عمر الإنجاب، ولكن ابرهيم وثق في الوعد الإلهي، وآمن أن الله سينفذ ما قاله. وقد حسب الله لإبرهيم هذا الإيمان براً. لقد كان ابرهيم في علاقة سليمة مع الله لأنه صدق كلام الله. وكان معلمو الدين اليهود يقولون: « ما كتب عن ابرهيم كتب عن نسله أيضاً » بمعنى أن الوعد الذي أعطاه الله لابرهيم يمتد إلى نسله أيضاً. ويشير بولس هنا إلى هذه الفكرة (آية ٢٣) ويقول إنه مادام الإيمان كان واسطة وصول ابرهيم إلى علاقة سليمة مع الله، فإنه يكون أيضاً الواسطة لنا. فليست المسألة إذاً في أعمال الناموس، بل

فى ثقة الإيمان ... والإيمان وحده يعطينا التبرير ، الذى هو العلاقة السليمة بالله .

ولقد اتضح إيمان ابرهيم فى أنه صدق أن الله يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة . والحق أنه عندما نظن أن كل شىء متوقف على مجهودنا نتعرض للفشل والتشاؤم لأن الإختبار علمنا أن نتيجة مجهودنا قليلة . ولكن عندما نؤمن أن قوة الله ونعمته عاملتان فينا نمتلىء بالرجاء والتفاؤل ، لأننا نعلم أنه لا شىء يستحيل على الله .

يقال إن القديسة تريزا بدأت ببناء دير ، وكان كل الرصيد الموجود معها نصف قرش . فقال لها أحدهم : « ولا القديسة تريزا نفسها تقدر أن تحقق الكثير بنصف قرش » فأجابت : « صحيح ! ولكن القديسة تريزا ونصف قرش مع الله يحققون أى شىء » . قد يتردد إنسان فى عمل شىء بنفسه ، ولكن لاحاجة للتردد مادمنا نحاول مع الله . قالت سيدة فاضلة : « الكنيسة الحية تجرؤ على عمل أى شىء » فإن المجازفة والجرأة ممكنتان للرجل أو للكنيسة فى حالة الإيمان بالله .

فَإِذْ قَدْ تَبَرَّرْنَا بِالإِيمَانِ لَنَا سَلاَمٌ مَعَ اللهِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ. الَّذِي بِهِ أَيْضًا قَدْ صَارَ لَنَا الدُّخُولُ بِالإِيمَانِ إِلَى هٰذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا مُقِيمُونَ وَنَفْتَخِرُ عَلَى رَجَاءِ مَجْدِ اللهِ. وَلَيْسَ ذٰلِكَ فَقَطْ بَلْ نَفْتَخِرُ أَيْضاً فِي الضِّيقَاتِ عَالِمِينَ أَنَّ الضِّيقَ يُنْشِىءُ صَبْراً. وَالصَّبْرُ تَزْكِيَةً وَالتَّزْكِيَةُ رَجَاء. وَالرَّجَاء لاَ يُخْزِي لأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدْ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا.

(رو ٥ : ١ — ٥)

هذه إحدى مقطوعات بولس التي يغنى فيها أفراح ثقته بالله ، فإن الإيمان الواثق الذى يصدق كلمته ينتج مالا تستطيع أعمال الناموس أن تحققها . . لقد أعطى الإيمان سلاماً مع الله . ولا يمكن أن يجد الإنسان وفاقاً مع الله حتى يصدق ما أعلنه لنا المسيح عن الله . ذلك أن بعض النـــاس لا يرون فى الله الخير الأسمى ، بل الشر الأكبر ! فقد قال شاعر اسمه سونبرن ماترجمته : « إن وجهه المختفى وقدميه الحديديتين قد أشعرت الإنسان بوجوده . إنه يهدد ويطأ كل شيء تحت قدميه كل يوم! من أرسل لنا الجوع ،ومن لعن نفوسنا وأجسادنا بالأشواق، ومن جفف شفاهنا التى تصرخ إليه ، بالعطش ، إلا هو ! » . وقد تحدث بعض الناس عن الله باعتبــــار أنه غريب عنا ، لا نستطيع أن نلمسه . فى أحد كتب هـ . ج ويلز قصة رجل أعمال كان فى حالة من التوتر تهدد بانهياره العصبى . وقال له طبيبه إن علاجه الوحيد هو أن يجد سلامه فى شركته مع الله

فصاح رجل الأعمال قائلاً : « ماذا تقول ؟ أتعنى أن هذا الساكن فوق يصادقنى وتكون لنا شركة معاً ! إن مصالحتى لنجوم السماء أقرب مما تقول! » . لقد كان الله بالنسبة لرجل الأعمال هذا « غير موجود » . قالت الرحالة روزيتا فوربز إنها ذات ليلة لم تجد مكاناً للمبيت إلا فى هيكل القرية الصينية التى تزورها. واستيقظت فى الليل لترى ضوء القمر وقد تسلل من النافذة على وجوه آلهة الهيكل ، فإذا على كل وجه ابتسامة سخرية وزمجرة كما من كراهية للبشر . والحقيقة أنه لا يمكن أن نجد السلام مع الله حتى نتعرف على أبى ربنا يسوع المسيح . عندئذ ندخل فى صلة جديدة معه ، يدعوها بولس « التبرير » .

ويقول بولس إننا بالمسيح صار لنا «الدخول» إلى النعمة التى نقيم فيها الآن. وهذه الكلمة تقدم لنا صورتين :

(١) إنها الكلمة التى تشرح تقديم شخص إلى محضر الملك ، أو قدوم العابد إلى الله . وكأن بولس يقول هنا : « إن يسوع يقودنا إلى محضر الله ويقدمنا له ، وهو يفتح لنا الباب إلى محضر ملك الملوك . فإذا انفتح الباب وجدنا النعمة ، لا العقوبة ولا المحاكمة ولا الإنتقام ، لكن نجد الترحيب الذى لا نستحقه والذى لم نكسبه ، الذى لنا بفضل رحمة الله .

(٢) ولكن كلمة « الدخول » تقدم لنا صورة ثانية ، هى صورة المرفأ الذى تدخله السفينة . وكأن بولس يريد أن يقول إنه عندما نكون متعبين ، تداهمنا الرياح والأمواج ، دون أن نجد عوناً من مجهوداتنا الشخصية . ونرى أننا ملاحون عاجزون يهاجمنا الخطر ، يجىء المسيح ويدخلنا إلى الميناء الأمين بسلام . لقد سمعنا كلمات المسيح التى قادتنا إلى مرفأ النعمة ، فلم نعد نعتمد على مجهودنا الشخصى ، بل على مايفعله الله لأجلنا . وهكذا فإننا فى المسيح ندخل إلى محضر الملك السماوى ؛ ونصل إلى ميناء النعمة فى سلام .

ولكن عندما يصل بولس إلى هذه الفكرة يرى الجانب الآخر من الأمور .

إن ما قاله صحيح ، وهو مجيد حقاً .. ولـكن المسيحى يلاقى مقاومات . وقد كان من الصعب على الإنسان أن يكون مسيحياً فى روما . ولذلك يقول بولس إن « الضيق ينشىء صبراً » وكلمة « ضيق » تعنى ضغوط ، وما أكثر الضغوط على المؤمن . . هناك ضغط الحاجة والعوز ، وضغط الظروف العسيرة ، وضغط الحزن والإضطهاد ، وعدم قبول الناس ، والوحدة . ولـكن بولس يقول إن هذه الضغوط تنشىء الصبر . والـكلمة التى يستعملها بولس عن « الصبر » هنا لاتعنى الإحتمال فقط ، لـكنها تعنى الروح التى يمكن أن تغلب العالم ، لأنها بإيجابية تهزم المتاعب والتجارب . عندما هدد الصمم بيتهوفن ، وهو أكبر كارثة تصيب الموسيقى ، قال : « سأمسك بزمام الحياة » . وعندما تورط « سكوت » فى الديون التى دفعت به إلى الإفلاس قال : « لن يقول أحد عنى : يامسكين ! . فإن يدى اليمنى ستدفع الدين » . وكان شخص عظيم يجوز فى آلام مريرة فقيل له : « الحزن يصبغ الحياة » . فأجاب : « ولـكنى أنا الذى أختار اللون » . وعندما كان هنلى راقداً فى مستشفى أدنبره وقد بترت ساقه ، والساق الثانية على وشك أن تبتر كتب شعراً ترجمته : « من ظلام الليل الذى يغشانى ، ومن الحفرة السوداء التى أنا فيها ، أسير من عمود إلى عمود شاكراً الله ، لأجل نفسى التى لم تهزم ». هذا هو الصبر الإيجابى! فالصبر المسيحى لاينتظر حتى تغمره السيول، لـكنه يواجه الأمور بقوة ويهزمها . ويقول بولس إن هذا الصبر ينشىء تزكية ، والتزكية هى حالة الشخصية التى دخلت النار فتطهرت من كل شىء دنىء ،وزال منها كل انحطاط . وعندما نواجه المشاكل بالصبر فإننا نخرج من المعارك أقوياء أطهار أقرب إلى الله . وهذه التزكية تنشىء الرجاء .والحقيقة أن شخصين يواجهان مشكلة . واحد منهما يتصرف أمامها فى يأس وقد فارقه الأمل، بينما يواجهها الآخر فى عراك منتصر ، وكأنها تدعوه للعظمة . حسناً قال اللورد ريث : « أنا لا أحب الأزمات ، ولـكنى أحب الفرص التى تقدمها » . والفرق فى مواجهة مشكلة يكمن داخل الشخص نفسه ، فإن الإنسان الذى يترك نفسه للضعف والفتور تهزمه الظروف لأنه يسمح لنفسه أن يسقط تحتها ، وعندما يواجه المشاكل لايجـــد

إلا اليأس . أما الذى يواجه الحياة بشجاعة فإنه يهزم المشاكل لأنه يواجهها بنظرة عامرة بالرجاء . والشخصية التى نالت التزكية والتطهير تحتمل الضيقات بالرجاء . وأخيراً يقول بولس إن الرجاء لايخزى ، لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا . قال عمر الخيام عن الرجاء البشرى ماترجمته : « يضع الناس قلوبهم على آمال زائلة كالرماد ، وحتى لو صدق أملهم فإلى حين ، مثل الجليد الذى يغطى وجه الصحراء المغبر ، يضيء ساعة أو اثنتين ، ثم ينتهى » . لكن عندما يضع الإنسان رجاءه فى الله فإنه لاينتهى إلى رماد أو غبار ، بل يمتلىء بالسرور ، لأن محبة الله تسند نفسه بقوة مستمرة لاتقهر !

البرهان النهائى للمحبة

لأَنَّ الْمَسِيحَ إِذْ كُنَّا بَعْدُ ضُعَفَاءَ مَاتَ فِى الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ لأَجْلِ الْفُجَّارِ . فَإِنَّهُ بِالْجَهْدِ يَمُوتُ أَحَدٌ لأَجْلِ بَارٍّ . رُبَّمَا لأَجْلِ الصَّالِحِ يَجْسُرُ أَحَدٌ أَيْضاً أَنْ يَمُوتَ . وَلٰكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا . فَبِالأَوْلَى كَثِيراً وَنَحْنُ مُتَبَرِّرُونَ الآنَ بِدَمِهِ نَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْغَضَبِ . لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا وَنَحْنُ أَعْدَاءٌ قَدْ صُولِحْنَا مَعَ اللهِ بِمَوْتِ ابْنِهِ فَبِالأَوْلَى كَثِيراً وَنَحْنُ مُصَالَحُونَ نَخْلُصُ بِحَيَاتِهِ . وَلَيْسَ ذٰلِكَ فَقَطْ بَلْ نَفْتَخِرُ أَيْضاً بِاللهِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ الَّذِى نِلْنَا بِهِ الآنَ الْمُصَالَحَةَ .

(رو ٥ : ٦ — ١١)

إن موت المسيح لأجلنا هو أعظم برهان على محبة الله لنا ، فمن الصعب أن نجد رجلاً يموت لأجل شخص صالح وربما أمكننا أن نجد شخصاً يقبل الموت لأجل مبدأ عظيم صالح . وقد نجد من يظهر محبة أكثر بأن يموت لأجل صديقه . ولكن الذهل فى المسيح هو أنه مات لأجل خطاة أشرار فى حالة العداوة مع الله . وليست هناك محبة أعظم من هذه !

فى عام ١٩١٥ كان الكولونيل لورانس يسافر فى الصحراء مع بعض العرب فى حالة سيئة . كان الطعام قد انتهى وقل الماء ! وكانوا يحمون وجوههم بأغطية رؤوسهم من الرياح الملتهبة التى تلفحهم بالرمال . وفجأة سأل أحدهم : « أين ياسين ؟ » فسأله آخر : « ومن هو ياسين ؟ » فجاءت الإجابة : « الرجل ذو الوجه الأصفر ، من معن ، الذى قتل صرافاً تركياً وهرب فى الصحراء » . وقال الأول : « هاهو جمل ياسين بلا راكب ، ومسدسه فى السرج ، ولكن ياسين غير موجود » . فقال الثانى « شخص قتله » فقال الثالث : « هو ضعيف العقل ، فلعله تبع السراب وضل ، كما أنه ضعيف البدن فربما أغمى عليه وسقط من على جمله » . فقال الأول : « وماذا يعنينا ؟ إنه لا يساوى نصف قرش » . واستمرت القافلة فى السير ، ولكن لورانس أدار جمله وعاد من حيث أتى ، فى الحرارة الشديدة ، مجازفاً بحياته . وبعد ساعة وجد ياسين واقعاً على الأرض تكاد الصحراء تقتله ، فرفعه لورانس على جمله ، ورواه ببضع نقط من الماء القليل الثمين الباقى معه ، فاستعاد إحساسه بالحياة وأسنده لورانس وعاد به إلى بقية القافلة . وعندما رآه الرجال هتفوا قائلين : « هذا ياسين الذى لا يساوى نصف قرش أنقذته مخاطرة سيدنا لورانس » . وهذا مثل ! فلم يمت المسيح ليخلص الصالحين ، بل الخطاة ، ولم يمت ليخلص أصدقاء الله بل أعداءه .

ويمضى بولس ليقول إن المسيح غير وضعنا إذ أعاد لنا الحالة السليمة مع الله . على أن هذا لم يكن كل شىء ، فقد غير حالتنا ، فالخاطىء الذى خلص لا يعود بعد للخطية ، لأنه قد صار صالحاً ، وهكذا غير موت المسيح حالتنا كما غير وضعنا .

فالمسيح حى ، معنا دوماً هادياً وموجهاً ، يملأنا بالقوة لنغلب التجارب ، يلبسنا البهاء فنحيا دوماً فى محضره المنتصر . لقد غير وضعنا أمام الله ، كما يغير حياتنا ، فقد أعطى الخطاة العلاقة السليمة مع الله ، رغم خطاياهم ، ثم يستمر بنعمته ليمكنهم من ترك الخطية ، والسير فى الحياة الصالحة . وهناك كلمات لاهوتية توصف هذا الذى جرى ، فتغيير الوضع أمام الله اسمه « التبرير » أما تغيير حالتنا فاسمه « التقديس » . وهكذا فإن عملية الخلاص مستمرة لا تتوقف حتى نراه وجهاً لوجه فنصير مثله

على أننا نرى فى هذه الفقرة شيئاً هاماً للغاية ، فإن بولس يعتبر كل عملية الخلاص ، من مجىء المسيح وموته ، برهان محبة الله لنا ، وقد جرت كلها لتظهر لنا كم يحبنا الله ، كما أنها جرت لأن الله يحبنا فعلا . ونحن نرسم أحياناً هذه الصورة بطريقة تظهر الله فى صورتين متناقضتين : صورة الإله الغاضب المنتقم ، وصورة الله المحب الغافر . ويقال إن المسيح هو الذى حول اتجاه الله من النقمة إلى النعمة ! ولكن هذا خطأ رهيب ، فلم يأت المسيح ليغير اتجاه الله من نحونا ، لكنه جاء ليرينا كيف كان اتجاه الله من نحونا دائماً اتجاه الحب . جاء ليرينا أن الله محبة !

الخراب والإنقاذ

مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ ٱلْخَطِيَّةُ إِلَى ٱلْعَالَمِ وَبِالْخَطِيَّةِ ٱلْمَوْتُ وَهٰكَذَا ٱجْتَازَ ٱلْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِذْ أَخْطَأَ ٱلْجَمِيعُ فَإِنَّهُ حَتَّى ٱلنَّامُوسِ كَانَتِ ٱلْخَطِيَّةُ فِي ٱلْعَالَمِ . عَلَى أَنَّ ٱلْخَطِيَّةَ لاَ تُحْسَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ . لٰكِنْ قَدْ مَلَكَ ٱلْمَوْتُ مِنْ آدَمَ إِلَى مُوسَى وَذٰلِكَ

عَلى الَّذِينَ لَمْ يُخْطِئُوا عَلَى شِبْهِ تَعَدِّي آدَمَ الَّذِي هُوَ مِثَالُ الآتِي. ولٰكِنْ لَيْسَ كَالْخَطِيَّةِ هٰكَذَا أَيْضًا الْهِبَةُ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ وَاحِدٍ مَاتَ الْكَثِيرُونَ فَبِالْأَوْلَى كَثِيرًا نِعْمَةُ اللهِ والْعَطِيَّةُ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي بِالإِنْسَانِ الْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ قَدِ ازْدَادَتْ لِلْكَثِيرِينَ. وَلَيْسَ كَمَا بِوَاحِدٍ قَدْ أَخْطَأَ هٰكَذَا الْعَطِيَّةُ. لِأَنَّ الْحُكْمَ مِنْ وَاحِدٍ لِلدَّيْنُونَةِ. وَأَمَّا الْهِبَةُ فَمِنْ جَرَّى خَطَايَا كَثِيرَةٍ لِلتَّبْرِيرِ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ الْوَاحِدِ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ بِالْوَاحِدِ فَبِالْأَوْلَى كَثِيرًا الَّذِينَ يَنَالُونَ فَيْضَ النِّعْمَةِ وَعَطِيَّةَ الْبِرِّ سَيَمْلِكُونَ فِي الْحَيٰوةِ بِالْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. فَإِذًا كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ هٰكَذَا بِبِرٍّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِتَبْرِيرِ الْحَيٰوةِ. لِأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً هٰكَذَا أَيْضًا بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَارًا. وَأَمَّا النَّامُوسُ فَدَخَلَ لِكَيْ تَكْثُرَ الْخَطِيَّةُ. وَلٰكِنْ حَيْثُ

كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِـــداً. حَتَّى كَمَا مَلَـكَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْمَوْتِ هـكَذَا تَمْلِكُ النِّعْمَةُ بِالْبِرِّ لِلْحَيوةِ الأَبَدِيَّةِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا.

(رو ٥ : ١٢ — ٢١)

لا توجد فقرة كتابية أثرت فى الفكر اللاهوتى المسيحى كما أثرت هذه الفقرة، كما لا توجد فقرة أصعب من هذه على الفكر المعاصر، فهى صعبة لأن بولس يعبر عن فكره بطريقة صعبة، فالجملة الأولى مثلاً تبدأ ولا تنتهى، لأن بولس يعالج بعدها فكرة جانبية. ولكن أكثر من ذلك، ترجع صعوبتها إلى أن بولس يتحدث فيها بطريقة كانت معروفة لليهود فى وقته واضحة لهم، لكنها ليست واضحة لنا.

ولو أننا وضعنا جملة بولس الأولى فى إسلوبنا، لقلنا : « بخطية آدم أصبح كل الناس خطاة غرباء عن الله ومنفصلين عنه، وببر يسوع المسيح صار كل الناس أبراراً واستعادوا علاقتهم السليمة مع الله ». وقد قال بولس هذه الفكرة نفسها بوضوح أكبر فى كورنثوس الأولى ١٥ : ٢١، ٢٢ « فإنه إذ الموت بإنسان، بإنسان أيضاً قيامة الأموات، لأنه كما فى آدم يموت الجميع هكذا فى المسيح سيحيا الجميع ».

فما هى الأفكار اليهودية الأساسية التى يجب أن نعرفها حتى نقرأ هذه الفقرة فى نورها ؟ هناك فكرتان هامتان جداً :

(١) هناك فكرة « التكافل والتضامن » فإن اليهودى لم ينظر لنفسه أبداً أنه فرد قائم بذاته، لكن كجزء من سبط وعائلة وأمة، ولا وجود له خارج سبطه. ولا تزال هذه الفكرة موجودة اليوم عند الاستراليين الأصليين، فإذا سئل أحدهم عن إسمه أعطى اسم قبيلته، لأنه لا يفكر فى نفسه كشخص بل كعضو

فى جماعة . ونرى هذا واضحاً فى منازعات القبائل البدائية ، فعندما يقتل فرد من قبيلة تصبح مسئولية الانتقام له على قبيلته كلها ، ولا يصبح النزاع بين فردين بل بين قبيلتين ، فالقبيلة هى التى أوذيت ، وهى التى تنتقم . ونجد فى العهد القديم حادثة واضحة تحمل هذه الفكرة ، نعنى بها حادثة عخان فى الأصحاح السابع من سفر يشوع ، ففى وقت حصار أريحا احتفظ عخان ببعض الممنوعات لنفسه بخلاف أمر الله بإبادة كل الغنائم . أخطأ عخان . وكانت الخطوة التالية هى غزو عاى ، التى كان يجب أن تسقط بدون حرب ، ولكن على خلاف المنتظر خابت غزوة عاى خيبة مرة . لماذا ؟ لأن عخان خان ، فحل عقاب الله على أمته كلها ، فإن خطية عخان لم تكن خطية فرد ، بل خطية أمة ! لم تكن الأمة أفراداً منفصلين ، بل كانت جماعة متكافلة متضامنة . وعندما اكتشفت خطية عخان واعترف بها ، حل العقاب على عائلته كلها وليس على عخان وحده ! لم يكن عخان فرداً قائماً بذاته ، لكنه عضو فى جماعة متكافلة ، ولا ينفصل عنها !

ويرى بولس هنا أن آدم لم يكن فرداً قائماً بذاته ، لكنه فرد فى الجنس البشرى ، وكل البشر متكافلون متضامنون معه ، وهكذا فإن خطيته هى خطية الجميع . « كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم ، وبالخطية الموت ، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس » . وقد حاول المفسرون فى كل حقب التاريخ المسيحى تفسير الصلة بين خطية آدم وخطية البشر بطرق مختلفة :

(أ) قد تعنى « كلكم آدم » . وكل البشر يخطئون كما أخطأ آدم ، ومع أنه لا صلة حقيقية بين خطية آدم وخطية الجنس البشرى ، إلا أن خطية آدم نموذج لخطية البشر .

(ب) هناك التفسير « القانونى » الذى يقول إن آدم ممثل الجنس البشرى ، وأن البشر يشتركون ممثلهم فى غلطته ولكن الثغرة فى هذا التفسير هى أن الشعب يجب أن يختار ممثله ، ولم يحدث أن البشر اختاروا آدم ممثلاً لهم !

(ﺟ) هناك تفسير يقول إننا ورثنا من آدم ميله للخطية . ولـكن خط تفكير بولس المنطق فى هذه الفقرة الـكتـابية لا يتفق مع هذا التفسير ، بل أنه يتعارض معه !

(د) والتفسير الأخير الذى نرى أنه أكثر اتساقاً مع خط فـكر بولس هنا ، هو التفسير الواقعى ، المبنى على مواجهة الوقائع التى أوردها بولس فى هذه الفقرة ، وهو أن البشر أخطأوا مع آدم بسبب التكافل والتضامن البشرى .

وقد كانت هذه الفـكرة عادية عند المفـكرين اليهود . ففى سفر اسدراس الثانى نقرأ : « زرعت بذرة شريرة فى قلب آدم منذ البدء ، وكم من الشرور نتجت عنها منذ ذلك الوقت ، وكم من الشرور ستنتجها حتى يجىء وقت الدراس » (٤ : ٣٠) كما يقول : « فآدم الأول ، بقلبه الشرير ، أخطأ وانهزم ، وليس هو وحده بل تبعه نسله كله ! » (٣ : ٢١) .

(٢) الفـكرة الثانية الهامة التى يقدمها بولس هنا هى فكرة أن الموت نتيجة مباشرة للخطية ، فقد كان الفـكر اليهودى يقول أنه لو أن آدم لم يخطىء لبقى الإنسان خالداً ، فقد جاء العالم نتيجة للخطية . ويكتب سيراخ : « كانت امرأة بداية الخطية وبواسطتها يموت الجميع » . ويقول سفر الحـكمة : « خلق الله الإنسان خالداً على صورته فى الطبيعة الـكاملة ، ولـكن بحسد الشيطان دخل الموت إلى العالم » . فالخطية والموت متلازمان فى الفـكر اليهودى ، وهذا ما يوضحه بولس هنا فى الآيات ١٢ — ١٤ . ويمكن أن نتابع بولس فى الأفـكار التالية :

(ا) أخطأ آدم لأنه كسر وصية مباشرة أوصاه الله بها (الأكل من الشجرة الممنوعة) ولما أخطأ آدم ، الذى كان من المفروض أن يكون خالداً ، مات .

(ب) لم يجىء الناموس حتى زمن موسى ، وما لم يكن هناك ناموس فلن يـكون هناك خرق له — أى أنه لو لم يكن هناك ناموس أو وصايا

فلن تكون هنالك خطية. وعلى هذا فإن البشر من آدم إلى موسى أخطأوا دون أن تحسب الخطية ضدهم، لأنه لم يكن عندهم ناموس، ولا يمكن إدانتهم لأنهم كسروا ناموساً لم يعط لهم.

(ج) على أنهم ماتوا، بالرغم من أن الخطية لم تحسب ضدهم، وملك الموت عليهم رغم عدم اتهامهم بكسر الناموس، الذى لم يكن موجوداً.

(د) إذاً لماذا ماتوا؟ ـ ماتوا لأنهم أخطأوا فى آدم. كان تورطهم فى خطية آدم سبب موتهم، رغم أنهم لم يكسروا الناموس. وهذا هو البرهان الذى يسوقه بولس على أنه فى آدم قد أخطأ الجميع.

. . .

قال بولس إنه بسبب نظرية « التكامل والتضامن » أخطأ البشر فى آدم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس نتيجة الخطية! ويمكن أن ننظر إلى هذه الفكرة كأساس لليأس من البشر، ولكن بولس نظر إليها من زاوية أفاضت عليها المجد كله، فإن يسوع قد جاء للبشر فى حالتهم اليائسة، وقدم لله طاعة وبراً وصلاحاً كاملاً، وكما تكافل البشر مع آدم فى خطيته وموته، ارتبطوا بالمسيح فى صلاحه ونصرته على الموت، فصارت لهم الحياة الأبدية! وعندما جاء الناموس فجعل خطية الناس تبدو رهيبة، جاءت نعمة المسيح لتغلب الدينونة، التى جلبها الناموس.

ونحن نرى هنا حقيقة لامعة عظيمة:

١ — لنفترض أن ارتباطنا بآدم ارتباط طبيعى، فما هو ذنبنا؟ إننا لم نختره كما لا يختار أى طفل أباه! إنه ارتباط قائم، لسنا مسئولين عنه، ولكنه موجود. غير أن ارتباطنا بالمسيح اختيارى، يمكن أن نقبله ويمكن أن نرفضه. إن ارتباطنا بالمسيح يختلف عن ارتباطنا بآدم.

٢ — يوضح بولس أن البشر وجدوا أنفسهم متورطين مع آدم فى حالة ليس لهم منها فكاك، فقد قيدت الخطية البشر، بلا أمل فى النجاة، ولكن المسيح جاء ومعه الإنقاذ والتحرير والخلاص وبما كانه، وبما فعله، وبما يعطيه، مكن الإنسان من الهروب من حالة اليأس التي سيطرت عليه بسبب الخطية ..

صحيح أن الخطية حطمت حياة الإنسان، لكن المسيح جاء لينقذ!

نموت لنحيا

فَمَاذَا نَقُولُ . أَنَبْقَى فِي الْخَطِيَّةِ لِكَيْ تَكْثُرَ النِّعْمَةُ . حَاشَا . نَحْنُ الَّذِينَ مُتْنَا عَنِ الْخَطِيَّةِ كَيْفَ نَعِيشُ بَعْدُ فِيهَا . أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلَّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ . فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الْأَمْوَاتِ بِمَجْدِ الْآبِ، هٰكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضاً فِي جِدَّةِ الْحَيٰوةِ . لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا قَدْ صِرْنَا مُتَّحِدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ، نَصِيرُ أَيْضاً بِقِيَامَتِهِ . عَالِمِينَ هٰذَا أَنَّ إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْطَلَ جَسَدُ الْخَطِيَّةِ كَيْ لاَ نَعُودَ نُسْتَعْبَدُ أَيْضاً لِلْخَطِيَّةِ . لِأَنَّ الَّذِي مَاتَ قَدْ تَبَرَّأَ مِنَ الْخَطِيَّةِ . فَإِنْ كُنَّا قَدْ مُتْنَا مَعَ الْمَسِيحِ نُؤْمِنُ أَنَّنَا سَنَحْيَا أَيْضاً

مَعَهُ عَالِمِينَ أَنَّ ٱلْمَسِيحَ بَعْدَمَا أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يَمُوتُ أَيْضاً . لاَ يَسُودُ عَلَيْهِ ٱلْمَوْتُ بَعْدُ . لِأَنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي مَاتَهُ قَدْ مَاتَهُ لِلْخَطِيَّةِ مَرَّةً وَاحِدَةً وَالْحَيٰوةَ الَّتِي يَحْيَاهَا فَيَحْيَاهَا لِلَّهِ . كَذٰلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً احْسِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَمْوَاتاً عَنِ الْخَطِيَّةِ وَلٰكِنْ أَحْيَاءً لِلَّهِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا »

(رومية ٦ : ١ — ١١)

كما يفعل بولس فى فقرات أخرى من هذه الرسالة ، يفعل فى هذه الفقرة ،فهو يتخيل مجادلاً يسأله ، فيرد على ما يثيره مجادله من نقاط . وتنشأ المجادلة عن الآية العشرين فى الأصحاح الخامس والتى تقول «حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً » . وتجرى المجادلة كالآتى :

المعترض : لقد قلت إن نعمة الله زائدة بالدرجة التى تكفى لمغفرة كل خطية.

بولس : هذا صحيح .

المعترض : حسناً ! إذاً فلنستمر فى الخطية ، لأنه حيث كثرت خطيتنا ازدادت نعمته . إن الخطية لا تهم لأن الله سيغفرها على كل حال ، بل إننا نقدر أن نقول إن الخطية رائعة لأنها تعطى نعمة الله فرصة للعمل . إن نتيجة حديثك هى أن الخطية تنتج النعمة ، وعلى هذا فإن الخطية يجب أن تكون صالحة لأنها تنتج أعظم ما فى العالم .

أما إجابة بولس على هذا المعترض فهى الرعب الشديد . إنه يقول : هل تقصد أن تمادى فى الخطية لتعطى النعمة فرصة للعمل ؟ حاشا ! إن هذا طريق الضلال! ثم يسأل : ألم تعرف معنى المعمودية ؟

ولكي ندرك قصد بولس من هذا يجب أن نذكر أن المعمودية زمن بولس تختلف عن المعمودية اليوم (أ) فقد كانت معمودية للكبار. لسنا نقول إن فى العهد الجديد ما يمنع معمودية الصغار، فإن معمودية الصغار نتيجة للعائلة المسيحية، ولم تكن العائلة المسيحية قد تكونت زمن بولس. فى العصر المسيحى الأول كان الفرد يجىء إلى المسيح وقد هجر عائلته فى معظم الأحيان.

(ب) كانت المعمودية فى العصر الأول ترتبط بإعلان الإيمان، فكان الشخص يتعمد عندما ينضم لعضوية الكنيسة، بعد أن يهجر الوثنية، وعلى هذا فقد كانت المعمودية علامة الخط الفاصل فى حياته، تقسمها إلى قسمين، ما قبل الإيمان ومابعده.. فكانت المعمودية تعنى بدء حياة جديدة تماماً.

(ج) كانت المعمودية عادة بالتغطيس، فقدمت رمزاً لا يمكن وجوده فى المعمودية برش الماء أو سكبه، فعندما كان الرجل ينزل للماء حتى يغطى رأسه كان كأنه مات ودفن فى قبر، وكان خروجه من الماء كأنه قيامة من الموت. وهذا يعنى أنه مات لنوع من الحياة وقام لنوع جديد، مات لحياة الشر وقام لحياة النعمة. نزل للماء وهو إنسان العالم، وصعد من الماء وهو إنسان المسيح.

وعلينا أن ندرك أن بولس كان يستخدم أسلوباً مفهوماً فى عصره. وقد يكون الأسلوب غريباً علينا، لكنه لم يكن غريباً على قرائه. كان الوثنى الذى يعتنق اليهودية يعمل ثلاثة أشياء: الذبيحة والختان والمعمودية، وهكذا فإن الأممى يدخل اليهودية بالمعمودية. وكانت معموديته تستلزم أن يقص أظافره وشعره، ويخلع ملابسه تماماً. وكان حوض المعمودية يملأ بيرميلين من الماء. وكان الماء يلمس كل جزء فى الجسد. وأثناء وجوده فى الماء كان يعلن إيمانه الجديد أمام ثلاثة آباء لاعترافه، ثم كان يستمع إلى نصائح ويعطونه البركة. وكانت المعمودية تعتبر ميلاداً جديداً له، فهو إنسان جديد ولد من جديد، وكانوا يعتبرونه طفلاً ابن يوم واحد، غفر الله له كل الخطايا السابقة للمعاد. وقد وصلت الدرجة ببعض معلمى اليهود إلى أنهم اعتبروا أول طفل يولد للشخص الذى تعمد هو ابنه البكر، مهما كان

عدد أطفاله السابقين على العماد . بل إنهم قالوا إنه شخص جديد حتى يقدر أن يتزوج أخته أو حتى أمه (ولو أن هذا الأمر لم يكن يحدث) . ولم ينظر اليهود إلى الشخص الذى تعمد على أنه تغير ، بل على أنه شخص مختلف تماماً . وعلى هذا فإن قراء « رومية » كانوا يدركون ما يقصده بولس على أن المعمودية تنتج إنساناً جديداً .

وكان اليونانيون يفهمون ما يقصده بولس ، فقد كانت الديانات اليونانية الموجودة وقت بولس « صوفية سرية » . وكانت تعد معتنقها بالحرية من الهموم والأحزان والمخاوف الأرضية . وتجىء هذه الحرية باتحاد المؤمن بأحد الآلهة . وكانت قصص الديانات عن إله تألم ومات ثم قام ، وكانوا يمثلون هذه القصص بطريقة الدراما . وكان المؤمن الجديد يلقّـن أصول الديانة ليعرف معنى «الدراما» ، كما كان يجوز فى حالة من النسك المنظم ، وهكذا يجرى إعداده جيداً قبل الانضمام للدين الجديد . وكان تمثيل قصة الإله تجرى بروعة ، مصحوبة بالموسيقى والبخور والأنوار . وعندما كان التمثيل يجرى كان الشخص يشعر أنه اتحد بالإله ، ودخل فى اختبار عاطفى يربطه بهذا الإله . على أن المنضم للدين كان يجب أن يلقن أصول الدين ، وكان هذا التلقين يعتبر موتاً يعقبه ميلاد جديد ، يقولون إن الإنسان ولد به إلى الخلود . وكان الملقَّـن (بفتح القاف) يقول إنه جاز فى «موت اختيارى» . وفى أحد هذه الديانات الصوفية كانوا يدعون الشخص الذى سينضم « المائت » ويدفنونه فى خندق . وعند قيامته من الخندق يخاطبونه على أنه طفل جديد ، يسقونه اللبن كطفل مولود حديثاً . وكان يصلى قائلاً : «أدخل إلى روحى وفكرى وكل حياتى لأنك أنت أنا وأنا أنت » . وعلى هذا فإن اليونانيين الذين سمعوا ماقاله بولس فى هذه الفقرة أدركوا قصده تماماً من الموت والحياة والقيامة بواسطة المعمودية متحداً بالمسيح . ولسنا نقول أبداً إن بولس استعار كلامه عن المعمودية من أفكار اليهود أو الوثنيين ، ولكننا نقول إنه كان يستخدم صوراً يستطيع كل من اليهودى والوثنى أن يفهمها ويدركها .

ونجد فى هذه الفقرة الكتابية ثلاث حقائق عظيمة :

١ — من المرعب أن يستهين الإنسان برحمة الله، وأن يتخذها عذراً للخطية كم يكون حقيراً لو أن ابناً أو إبنة تمادى فى الخطأ لأنه يعلم أن أبويه يغفران له بمحبة ! إن هذا يكون استغلالاً حقيراً للمحبة يكسر قلب المحب .

٢ — الإنسان الذى ينضم إلى طريق المسيح يكرس نفسه لنوع جديد من الحياة ، ذلك أنه قد مات للحياة القديمة وقام للحياة الجديدة ، فهو إنسان مختلف . إن قبول المسيح يحدث الإختلاف كله فى حياة من يقبله .

٣ — على أنه سيحدث ما هو أكثر من التغيير الأخلاقى فى حياة من يقبل المسيح ، لأن هناك الاتحاد الكامل به . إن التغيير الأخلاقى مستحيل بدون اتحاد بالمسيح ، فالمسيحى هو إنسان «فى المسيح» . قال أحدهم إننا لانقدر أن نحيا حياتنا الطبيعية إلا إذا كنا فى الهواء والهواء فينا، وهكذا مع المسيح، فإن لم نسكن فيه وهو فينا فلن نحيا حياة الله . وليست المسيحية مطلباً أخلاقياً ، ولو قلنا هذا لقدمنا نصف المسيحية فقط . المسيحية أخلاق جديدة « فى المسيح » .

ممارسة الايمان

يَسُوعَ رَبِّنَا . إِذًا لاَ تَمْلِكَنَّ الْخَطِيَّةُ فِي جَسَدِكُمُ الْمَائِتِ لِكَيْ تُطِيعُوهَا فِي شَهَوَاتِهِ . وَلاَ تُقَدِّمُوا أَعْضَاءَكُمْ آلاَتِ إِثْمٍ لِلْخَطِيَّةِ بَلْ قَدِّمُوا ذَوَاتِكُمْ لِلَّهِ كَأَحْيَاءٍ مِنَ الأَمْوَاتِ وَأَعْضَاءَكُمْ آلاَتِ بِرٍّ لِلَّهِ .

فَإِنَّ الْخَطِيَّةَ لَنْ تَسُودَكُمْ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ .

(رومية ٦ : ١٢ — ١٤)

كانت الفقرة السابقة من قلم « متصوف » يتحدث عن الصلة السرية بين المسيح والمؤمن كما تظهر فى المعمودية ، وعن الطريقة التى يجب أن يحيا بها المسيحى قريباً من المسيح حتى تكون حياته « فى المسيح » . أما هنا فيتحدث عن الجانب العملى ، فليست المسيحية إختباراً عاطفياً ، لكنها طريقة حياة ، وليس من المفروض أن يحيا المسيحى فى نفخة اختبار ، مهما كان رائعاً ، لكنه يجب أن يحيا حياة المواجهة مع العالم ومشاكله . ومن الأسهل أن يجلس المسيحى فى الكنيسة تغمره موجات السعاده الروحية ، أو فى المخدع وحيداً يشعر بقربه من المسيح . لكن المسيحية لا تتوقف فى منتصف الطريق هذا ، فإن العواطف يجب أن تترجم عملاً لأنها لا يمكن أن تكون بديلا للسلوك . ليست المسيحية اختباراً فى الخلوة ، لكنها حياة فى السوق والمدرسة والمكتب !

وعندما يخرج الإنسان إلى العالم تواجهه حالة مخيفة ، فإن الله والخطية يفتشان على آلات . ولما كان الله لا يعمل إلا بواسطة البشر ، فإنه يفتش دوماً عن إنسان يستخدمه ليقول كلمة أو ليؤدى خدمة أو ليشجع خائراً أو ليقوى ضعيفاً أو ليرفع ساقطاً . وهكذا تفتش الخطية عن بشر يجرون آخرين للخطية بكلامهم أو بقدوتهم . ويوضح بولس أن الله والخطية يدعوان الناس ، وعلى كل إنسان أن يختار أن يجعل نفسه آلة فى يد الله ، أو فى يد الخطية !

وقد يقول قائل : هذا الاختيار صعب علىَّ ، ولابد أننى فاشل ! فيجيبه بولس : لا تفشل ، فإن الخطية لن تسودكم . لماذا ؟ « لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة » — وماهو الفرق ؟ الفرق أننا لا نحاول إرضاء مطالب الناموس ، ولكننا نحاول أن نحيا كما يحق لمن يحبون الله الذى أنعم عليهم بالكثير .

إننا لا ننظر إلى الله كقاض قاس ، لكن كمحب البشر . ولا يوجد دافع فى العالم أقوى من المحبة ، فمن يدخل إلى محضر الحبيب دون أن يريد أن يكون أفضل؟ ليست الحياة المسيحية حملاً ثقيلاً لكنها امتياز محبب . وما أجمل ما قاله دنى : « ليست المسيحية قيداً بل إلهاماً يحرر من الخطية . إن جبل سيناء لا يصنع قديسين ، لكن جبل الجلجثة يخلقهم » .

لقد خلص كثيرون من الخطية ، لا بسبب وصايا الناموس ، لكن لأنهم لم يطيقوا أن يكسروا أو يحزنوا قلب إنسان يحبونه ويعلمون أنه يحبهم. إن الناموس يقوّم الإنسان بالتخويف ، ولكن المحبة تفدى الإنسان بأن تلهمه الأفضل ، وهكذا فإن سعى المسيحى لطاعة الله لا تجىء خوفاً من العقاب ، بل بإلهام من محبة الله التى فعلت الكثير لأجله .

الامتلاك الكلى

فَمَاذَا إِذاً . أَنُخْطِئُ لِأَنَّنَا لَسْنَا تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ لِلْمَوْتِ أَوْ لِلطَّاعَةِ . حَاشَا . أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ ٱلَّذِي تُقَدِّمُونَ ذَوَاتِكُمْ لَهُ عَبِيداً لِلطَّاعَةِ ، أَنْتُمْ عَبِيدٌ لِلَّذِي تُطِيعُونَهُ إِمَّا لِلْخَطِيَّةِ لِلْبِرِّ . فَشُكْراً لِلّٰهِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَبِيداً لِلْخَطِيَّةِ وَلٰكِنَّكُمْ أَطَعْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ صُورَةَ ٱلتَّعْلِيمِ الَّتِي تَسَلَّمْتُمُوهَا . وَإِذْ أُعْتِقْتُمْ مِنَ ٱلْخَطِيَّةِ صِرْتُمْ عَبِيداً لِلْبِرِّ . أَتَكَلَّمُ إِنْسَانِيًّا مِنْ أَجْلِ ضَعْفِ جَسَدِكُمْ . لِأَنَّهُ كَمَا قَدَّمْتُمْ أَعْضَاءَكُمْ عَبِيداً لِلنَّجَاسَةِ وَٱلْإِثْمِ هٰكَذَا ٱلْآنَ قَدِّمُوا أَعْضَاءَكُمْ

عَبِيداً لِلْبِرِّ، لِلْقَدَاسَةِ . لِأَنَّكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ عَبِيدَ ٱلْخَطِيَّةِ كُنْتُمْ أَحْرَاراً مِنَ ٱلْبِرِّ. فَأَيُّ ثَمَرٍ كَانَ لَكُمْ حِينَئِذٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَسْتَحُونَ بِهَا ٱلْآنَ . لِأَنَّ نِهَايَةَ تِلْكَ ٱلْأُمُورِ هِيَ ٱلْمَوْتُ . وَأَمَّا ٱلْآنَ إِذْ أُعْتِقْتُمْ مِنَ ٱلْخَطِيَّةِ وَصِرْتُمْ عَبِيداً لِلّٰهِ فَلَكُمْ ثَمَرُكُمْ لِلْقَدَاسَةِ وَٱلنِّهَايَةُ حَيٰوةٌ أَبَدِيَّةٌ . لِأَنَّ أُجْرَةَ ٱلْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ . وَأَمَّا هِبَةُ ٱللّٰهِ فَهِيَ حَيٰوةٌ أَبَدِيَّةٌ بِٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا .

(رومية ٦ : ١٥ – ٢٣)

عقيدة النعمة المجانية تشكل تجربة لنوع خاص من العقول! فإن البعض يقولون: « إن كان الغفران أكيداً وسهلاً ، وإن كان الله يريد أن يغفر للبشر ، ونعمته تكفي لستر كل خطاياهم وعيوبهم ، فلماذا القلق على الخطية ؟ لماذا لا نفعل كما نشاء ؟ إن الأمور تتساوى في النهاية ! » . وحالما يذكر بولس أن المسيحي تحت النعمة وليس تحت الناموس ، فإن هذا الخاطر يثور في ذهن بعض الناس !

١ — ولكن بولس يدحض هذا الخاطر الخاطىء بقوله : « لقد كنتم يوماً عبيداً للخطية لأنكم سلمتم نفوسكم لها ، وعندها لم يكن للبر أو للصلاح سلطان عليكم . أما الآن فإنكم قدمتم نفوسكم لله كعبيد للبر . وما أن فعلتم هذا لم يعد للخطية سلطان عليكم » .

ولكي ندرك معنى أقوال بولس هذه نحتاج أن نعرف حال العبيد في زمانه . عندما نفكر اليوم في الخادم فإننا نفكر في شخص يتفق مع شخص آخر على أن يعطيه وقته وجهده ، في مواعيد معروفة ، لقاء أجر متفق عليه .وخلال المواعيد

المعروفة يخضع للسيد ، أما بعد ذلك فإنه حر يفعل مايشاء ، فهو ملك سيده فى وقت العمل ، وملك نفسه فى غير ذلك ، فقد يلعب على الكمان فى الأمسيات ! على أن بولس يتحدث عن حالة « العبيد » وهى مختلفة تماماً ، فلم يكن للعبد وقت خاص به ، فكل لحظة ملك لسيده لأنه هو كله ملك سيده . لم يكن العبد يقدر أن يعمل ما يحلو له ، ولم يكن يقدر أن يخدم سيدين . ويضع بولس هذه الصورة فى فكره عندما يقول : « كنتم يوماً ما عبيداً للخطية ، وكان للخطية الملكية الكاملة عليكم . وقتها لم تكونوا تقدرون أن تقولوا أو تفعلوا شيئاً إلا لخدمة الخطية . أما الآن فقد قبلتم الله سيداً لكم ، فله كل السلطان عليكم ، وعلى هذا فإنكم لا تملكون حتى أن تتكلموا عن الخطية ، إذ يجب أن تتكلموا عن القداسة فقط ! » .

٢ — ويعتذر بولس عن استعمال هذا التشبيه ، ويقول إنه يستعمل هذه الطريقة فى الكلام حتى يقدروا أن يفهموها « أتكلم إنسانياً من أجل ضعف جسدكم » ، وهذا الاعتذار سببه أنه لا يحب أن يشبه الحياة المسيحية بالاستعباد، ولكن الحقيقة هى أن المسيحى لاسيد له إلا الله وحده ، وهو لا يقدر أن يخدم سيدين ، فلا يقدر أن يصرف جزءاً من وقته لله ، وجزءاً آخر للعالم ، فالكل للرب ، وإلا فلا ! وعندما يحتفظ الإنسان بجزء من حياته لغير الله فإنه لا يكون مسيحياً ، لأن المسيحى هو الذى أعطى السلطان كله للرب ، ولا يسحب شيئاً من تحت سلطانه . وكل من يفكر هكذا لا يمكن أن يجعل النعمة فرصة للخطية .

٣ — ويمضى بولس ليقول : « لقد أخذتم قراراً قاطعاً بطاعة التعليم الذى قبلتموه ، فأنتم تفعلون هذا بكامل حريتكم واختياركم » . ولنذكر أن هذه المناقشة جاءت نتيجة لفكرة المعمودية التى تحدثنا عنها فى مطلع هذا الأصحاح . ولم يكن الشخص يتعمد قبل أن يتلقى تعليماً كاملاً عن العقيدة، كما كان يتعمد وهو بالغ . . وعلى هذا فقد كانت المعمودية إعلاناً للايمان ، فلم يكن الشخص

ينضم للكنيسة تحت تأثير العواطف ، بل تحت تأثير التفكير الواعى ، عالماً بما قدمه المسيح لأجله وما يطلبه المسيح منه . . وهكذا كان القرار الذى يأخذه المسيحى بالإنضمام للمسيح والكنيسة عميقاً حراً فاهماً . عندما يريد شخص أن ينضم إلى نظام رهبنة القديس بندكت فإنه يقضى سنة تحت الاختبار ، يعلق خلالها ملابسه الدنية فى « قلايته » فإذا شاء أن يترك حياة الرهبنة فإنه يلبس ملابس العالم ويذهب ، دون أن يعترضه أو ينتقده أحد . وفى نهاية السنة يبعدون الملابس المدنية من غرفته ، لأنه قرر الإنخراط فى حياة الرهبنة بكل قلبه وفكره . وهكذا مع المسيح ، فإنه يطالب من أتباعه أن يحسبوا نفقة اتباعه ، فلا يتبعونه عن عاطفة . وعلى الكنيسة اليوم أن تبصّر أعضاءها بمسئولياتهم من نحو انضمامهم لعضويتها .

٤ — ويمضى بولس ليرسم خطاً فاصلاً بين الحياة القديمة والجديدة ، فالحياة القديمة « نجاسة وإثم » (آية ١٩) . وقد كان العالم الوثنى نجساً لا يعرف معنى العفة . ويتحدث جستن مارتر عن مصيبة فى العالم الوثنى ، هى إلقاء الأطفال ، خصوصاً الإناث فى ساحة المدينة . وكان بعض المجرمين يجمعون هؤلاء الأطفال حتى يكبروا ويشغلوهم فى بيوت للدعارة . ويقول جستن مارتر للوثنيين إنهم بإلقائهم أطفالهم فى ساحة المدينة ينتهون إلى ارتكاب النجاسة مع بناتهم . كان العالم الوثنى فعلاً عالم نجاسة وإثم ، كانت الشهوة فيه هى القانون ، وهذا هو ناموس الخطية ، فالخطية تلد خطية . عندما يرتكب أحد الخطأ للمرة الأولى يرتكبه فى خوف وتردد ، لكنه يسهل فى المرة الثانية ، وبعدها تفقد الخطية رعبها ، فنمارس كشىء عادى ، وللخطية قانون آخر ، فنحن نكتفى فى أولها بالقليل ، ولكن الوقت يجىء عندما نطلب الكثير ، فالخطية تلد خطية والإثم ينتج الإثم .

٥ — على أن الحياة الجديدة مختلفة تماماً . إنها حياة البر . والبر هو إعطاء

الله والناس حقهم ، فالحياة المسيحية تعطى الله مكانه المناسب ، وتحترم الشخصية الإنسانية ، والمسيحى لايعصى الله ولا يستغل إخوانه البشر بطريقة تشبع رغبته ومسرته فى الشهوة . هذه الحياة تؤدى إلى « القداسة » . والكلمة اليونانية المترجمة « قداسة » هنا لاتعنى حالة القداسة الكاملة ، بل « معالجة بسلسلة من العمليات المتعاقبة » . فالمقصود هنا هو الاتجاه إلى القداسة ، فالإنسان الذى يسلم حياته للمسيح لايقف عند ذلك ، فيصير إنساناً كاملاً ، لكنه يجاهد باستمرار لبلوغ القداسة . على أن المسيحية تعتبر اتجاه الإنسان أمراً فى غاية الإهمية ، فمندما يصبح « فى المسيح » يبدأ سلسلة العمليات المتعاقبة التى تؤدى به إلى القداسة . وقد عبر عنها شاعر غربى بما ترجمته « إننى أترك خلفى شيئاً ربما يعطلنى ، وأجرى بسرعة كل يوم لأزداد فى الطهارة واللطف » . وقد قال روبرت لويس ستيفنسون : « إن السفر على الأمل أفضل من الوصول » . وما أعظم أن نضع أمامنا هدفاً كبيراً نسعى نحوه ، حتى لو لم نبلغ كماله .

٦ ـــ ويختم بولس حديثه هنا بقوله : « أجرة الخطية هى موت ، وأما هبة الله فهى حياة أبدية » . يقول بولس إن للخطية «أجرة» وهى كلمة تعنى مايكسبه الجندى من مال جزاء مخاطرته بحياته وعرقه وجهده . إن الأجرة حقه ولا يجوز أن تؤخذ منه . أما كلمة « هبة » فهى تعنى الشىء الذى لم نكسبه، لكنه إنعام؛ كالهدية التى ينالها الجندى ، فقد كان الإمبراطور يوم عيد ميلاده أو عيد جلوسه يعطى لجنوده « هبة » لم يكسبوها ، لكنها هدية من كرم الإمبراطور وعطفه . ويقول بولس هنا إن الخطية قد ربحت الموت كأجر مستحق لها ، وكشىء لازم يتبعها . أما الهبة المجانية ، التى لم نعمل مايبرر كسبها ، فإننا لانستحقها ، لكنها تعطى لنا من محبة الله وكرمه . إننا نستحق الموت ؛ لكن الله من نعمته أهدانا الحيـــاة .

الولاء الجديد

أَمْ تَجْهَلُونَ أَيُّهَا الإِخْوَةُ . لِأَنِّي أُكَلِّمُ الْعَارِفِينَ بِالنَّامُوسِ . أَنَّ النَّامُوسَ يَسُودُ عَلَى الإِنْسَانِ مَا دَامَ حَيًّا . فَإِنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَحْتَ رَجُلٍ هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّامُوسِ بِالرَّجُلِ الْحَيِّ . وَلَكِنْ إِنْ مَاتَ الرَّجُلُ فَقَدْ تَحَرَّرَتْ مِنْ نَامُوسِ الرَّجُلِ . فَإِذًا مَا دَامَ الرَّجُلُ حَيًّا تُدْعَى زَانِيَةً إِنْ صَارَتْ لِرَجُلٍ آخَرَ وَلَكِنْ إِنْ مَاتَ الرَّجُلُ فَهِيَ حُرَّةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى إِنَّهَا لَيْسَتْ زَانِيَةً إِنْ صَارَتْ لِرَجُلٍ آخَرَ . إِذًا يَا إِخْوَتِي أَنْتُمْ أَيْضًا قَدْ مُتُّمْ لِلنَّامُوسِ بِجَسَدِ الْمَسِيحِ لِكَيْ تَصِيرُوا لِآخَرَ لِلَّذِي قَدْ أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لِنُثْمِرَ لِلهِ . لِأَنَّهُ لَمَّا كُنَّا فِي الْجَسَدِ كَانَتْ أَهْوَاءُ الْخَطَايَا الَّتِي بِالنَّامُوسِ تَعْمَلُ فِي أَعْضَائِنَا لِكَيْ نُثْمِرَ لِلْمَوْتِ . وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ تَحَرَّرْنَا مِنَ النَّامُوسِ إِذْ مَاتَ الَّذِي كُنَّا مُمْسَكِينَ فِيهِ حَتَّى نَعْبُدَ بِجِدَّةِ الرُّوحِ لَا بِعِتْقِ الْحَرْفِ .

(رومية ٧ : ١ ــ ٦)

هذه الفقرة صعبة حتى أن المفسر شارلس دود قال إنه عندما درسها حاول أن ينسى مايقوله بولس ليكتشف مايقصده بولس ! والذى يريد بولس أن يوضحه هو أن الموت يلغى كل الإرتباطات . ويقول بولس إن المسيحى قد مات للناموس فلم يعد للناموس سلطان عليه . إن الزوجة مرتبطة بالزواج برجل ، فلا تقدر أن تتزوج غيره ، فإذا تزوجت بآخر اعتبرت زانية . أما إن مات الزوج فإن الإرتباط ينتهى ، ولا تعتبر زانية إن تزوجت بآخر . كان يمكن أن بولس يقول إننا كنا مرتبطين بالخطية ، ولكن المسيح ذبح الخطية، وعلى هذا فإننا الآن أحراراً لنرتبط بالرب . ولابد أن بولس قصد هذا المعنى . وكان يمكن أن يقول إننا كنا مرتبطين بالناموس، ولكن المسيح أبطل الناموس ، وهكذا أصبحنا أحراراً لنرتبط بالرب ولكن بولس يقول إننا نحن متنا للناموس ـ فما معنى هذا ؟ إننا فى المعمودية نشترك مع المسيح فى موته ، وبهذا تحررنا من كل واجبات الناموس ، وأصبحنا أحراراً لأن « نتزوج » من جديد ، وفى هذه المرة نتزوج المسيح ، وهكذا تصبح طاعتنا غير متوقفة على وازع خارجى مفروض علينا من مجموعة قوانين ، بل يكون نتيجة دافع داخلى يبعث فينا الولاء لربنا يسوع المسيح .

ويرسم بولس المفارقة بين حالنا بدون المسيح وحالنا بالمسيح ، فقبل معرفتنا بالمسيح حاولنا أن نحكم حياتنا بطاعة ناموس مكتوب ، وذلك عندما كنا « حسب الجسد » . ولا يقصد بولس بالجسد « اللحم والدم » ذلك أننا نحتفظ بجسدنا من لحم ودم حتى نهاية الأيام ، ولكن بولس يقصد بالجسد مايشد الإنسان إلى غواية الخطية ، ذلك أنه لو لم يكن فى الإنسان ماينادية الخطية لكان نداء الخطية للإنسان عديم الضرر ، ولكن فى داخل الإنسان ميلاً للخطأ ، وهذا الميل هو الذى يدعوه بولس هنا « الجسد » . الجسد إذاً هو الطبيعة الإنسانية المنفصلة عن الله التى لا تتلقى معونته . ويقول بولس إننا لما كنا فى هذه الحالة حرك الناموس فينا ميولنا للخطية . لاحظوا أن بولس كرر أكثر من مرة أن الناموس ينتج الخطية ، لأن كل ممنوع مرغوب ، والماء المسروق حلو وخبز الخفية

لذيذ ، وعلى هذا فإن الممنوعات حسب الناموس توقظ فينا الرغبة للخطية . فعندما لم يكن لنا إلا الناموس كنا تحت رحمة الخطية . وبعد ذلك يتحدث بولس عن حالة الإنسان مع المسيح . . فعندما يحكم الإنسان حياته باخلاص للمسيح الذى يملك قلبه ، لايعود يحكمه قانون مكتوب يوقظ فيه الشهوة للخطية . وهكذا تسوده المحبة التى تمكنه من حفظ الوصايا التى كان عاجزاً عن حفظها .

الخطية الخاطئة جدا

فَمَاذَا نَقُولُ . هَلْ اَلنَّامُوسُ خَطِيَّةٌ . حَاشَا . بَلْ لَمْ أَعْرِفِ اَلْخَطِيَّةَ إِلاَّ بِالنَّامُوسِ . فَإِنَّنِى لَمْ أَعْرِفِ اَلشَّهْوَةَ لَوْ لَمْ يَقُلِ اَلنَّامُوسُ لاَ تَشْتَهِ . وَلٰكِنَّ اَلْخَطِيَّةَ وَهِىَ مُتَّخِذَةٌ فُرْصَةً بِالْوَصِيَّةِ أَنْشَأَتْ فِىَّ كُلَّ شَهْوَةٍ . لِأَنْ بِدُونِ اَلنَّامُوسِ اَلْخَطِيَّةُ مَيِّتَةٌ . أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ بِدُونِ اَلنَّامُوسِ عَائِشاً قَبْلاً . وَلٰكِنْ لَمَّا جَاءَتِ اَلْوَصِيَّةُ عَاشَتِ اَلْخَطِيَّةُ فَمُتُّ أَنَا . فَوُجِدَتِ الْوَصِيَّةُ الَّتِى لِلْحَيٰوةِ هِىَ نَفْسُهَا لِى لِلْمَوْتِ . لِأَنَّ اَلْخَطِيَّةَ وَهِىَ مُتَّخِذَةٌ فُرْصَةً بِالْوَصِيَّةِ خَدَعَتْنِى بِهَا وَقَتَلَتْنِى . إِذًا اَلنَّامُوسُ مُقَدَّسٌ وَالْوَصِيَّةُ مُقَدَّسَةٌ وَعَادِلَةٌ وَصَالِحَةٌ . أَفَهَلْ صَارَ لِى اَلصَّالِحُ مَوْتاً . حَاشَا . بَلِ اَلْخَطِيَّةُ . لِكَىْ تَظْهَرَ

خَطِيَّةً مُنْشِئَةً لِي بِالصَّالِحِ مَوْتاً لِكَيْ تَصِيرَ الْخَطِيَّةُ خَاطِئَةً جِدّاً بِالْوَصِيَّةِ .

(رومية ٧ : ٧ — ١٣)

ببداية هذه الفقرة يبدأ جزء من أهم أجزاء العهد الجديد المؤثرة ، لأن بولس يرى تاريخ اختباره الروحى ، ويكشف لنا قلبه ونفسه . ذلك أنه يعالج هنا التناقض الظاهرى للناموس ، فالناموس ، شيء ممتاز ومقدس ، وهو صوت الله ، والكلمة « مقدس » معناها « مختلف » وهى تصف شيئاً من محيط خارج محيط عالمنا ، يخص حياة أبعد مدى من الحياة الإنسانية . ثم يقول بولس إن الناموس عادل ، وقد رأينا أن العدل يعنى (فى اليونانية) إعطاء الله والآخرين حقوقهم الشرعية ، وعلى هذا فالناموس يوضح المسئوليات الإنسانية والسماوية . ولو حفظ أحد الناموس فإنه يصير فى صلة ممتازة مع الله والناس . والناموس صالح أى أنه يختص بأفضل ما فى الإنسان ، ويهدف إلى جعل الإنسان صالحاً .

ولكن رغم هذا كله تبقى الحقيقة الواقعة : أن الناموس صار رأس جسر للخطية لتدخل الإنسان ، فكيف حدث هذا ؟ يمكن أن نجد إجابتين :

(١) الناموس يحدد الخطية ، فالخطية بدون الناموس لا وجود لها ، فما لم يقل الناموس عن شيء انه خطية ، فإن الإنسان لا يعرف أنه يخطىء . ولنأخذ مثلا من لعبة التنس لنفرض أن شخصاً لا يعرف قانون اللعبة ، فيسمح للكرة أن تضرب الأرض مرتين قبل أن يقذف بها فى إتجاه الشبكة . فما لم يكن هناك قانون ضد ذلك فسيبقى لعبه قانونياً . ولكن إن وضع قانون يقول إن اللاعب لا يجب أن يسمح للكرة أن تضرب الأرض إلا مرة واحدة ، فانه يحسب مخطئاً لو ضربت الكرة الأرض مرتين . فالقانون هنا حدد الخطأ ، وما كان يسمح به قبل صدور القانون يصير محرماً بعد صدوره . ومثال آخر : إن ما نقبله من طفل آت من مكان غير متحضر لا يمكن أن نقبله من رجل قادم من بلد متحضر ، ذلك لأن الرجل

الآن من بلد متحضر يعرف القوانين . ومثال ثالث : نحن نقبل أن يسوق الشخص سيارته فى أى إتجاه يعجبه ، مادام الشارع طريقين . لكن لو أن رجال المرور أعلنوا أن الشارع إتجاه واحد لأصبح من الخطأ أن يسوق الإنسان فيه سيارته فى الاتجاه الممنوع . القانون إذاً يحدد الخطية، أو قل : يخلق الخطية .

لكن هناك شيء أخطر . إن الناموس ينشىء الخطية . ومن أغرب أمور الحياة أن كل ممنوع مرغوب ، وقد بدت هذه الظاهرة فى جنة عدن ، فقد كان آدم يحيا فى براءة حتى جاءته الوصية بعدم الأكل من شجرة معينة . وكان هدف الوصية صالح آدم ومصلحته ، ولكن الحية حولت هذه الوصية إلى تجربة . وكان المنع سبباً فى جعل الشجرة تبدو أكثر جمالا ! وهكذا مد آدم يده ليأخذ منها ، وكانت النتيجة موتاً . وقد فسر « فيلو » القصة فقال إن الحية هى اللذة ، وحواء هى الحواس . واللذة تجعلنا نطلب الممنوع ، وتهاجمنا عن طريق الحواس أما آدم فهو العقل . وعن طريق مهاجمة اللذة ظل العقل ، وجاء الموت ! وفى اعترافات القديس اغسطينوس فصل مشهور يتحدث فيه عن جاذبية الأشياء الممنوعة قال فيه : « كانت هناك شجرة كمثرى محملة بالثمار بجوار كرمة ، وذات ليلة عاصفة ، قررنا فى شقاوة الصبا أن نتزو الشجرة ونعود بغنائمنا . وفعلا أخذنا كمية كبيرة من الكمثرى، لا لنأكلها بل لنرميها للخنازير ، ولكننا أكلنا القليل منها لنتلذذ بالثمر الممنوع . كانت الكمثرى حلوة ، لكنها لم تكن الشيء الذى تطلبه نفسى ، لأن عندى الكثير أفضل منه فى بيتى . لقد أخذنا كمثرى جارنا بهدف السرقة وحسب ، وكان الإحتفال الوحيد بما أخذنا هو الخطية التي استمتعنا بها إلى أقصى الحدود ! فماذا أعجبنى فى هذه السرقة ؟ هل كان التصرف ضد القانون ، حتى أشعر بحرية الحصول على الممنوع ، أنا الأسير للقانون ؟ لقد استيقظت الرغبة فى السرقة داخل نفسى لمجرد أن السرقة ممنوعة » .

حالما تضع لافتة « ممنوع الدخول » ستجد أن المكان أصبح مطلوباً . بهذا المعنى « تنشىء » الوصية الخطية .

ويقول بولس أن « الخطية خدعتني » . والخطية تخدع بثلاثة أمور :

(١) إنها تخدع فى إشباعها ، فإن الخطية تقول إنها ستشبعنا وتسعدنا ، ولكن أحداً لم يجد فيها ما وعدت به !

(٢) وهى تخدع فى أعذارها ، فكل إنسان يظن أنه قادر على تبرير أخطائه ولكن هذه الأعذار كلها تسقط فوراً فى محضر الله .

(٣) وهى تخدع عندما تحاول الهروب من نتائجها ، فلا يخطىء إنسان إلا وهو يظن أنه يقدر أن يهرب من نتائج خطيته ، ولكن آجلا أو عاجلا يدفع الإنسان أجرة خطيته .

هل الناموس خاطىء لأنه ينشىء الخطية ؟ أن بولس يرى فى الأمر كله حكمة .

(١) فهو مقتنع أولا أننا يجب أن ننظر إلى الخطية باعتبار أنها خطية ، مها كانت مكانة الناموس .

(٢) وهو يرى طبيعة الخطية المريعة ، إذ أنها أخذت الوصية الصالحة وجعلت منها شيئاً مؤذياً ، فجعلت المقدس والعادل والصالح سلاحاً شريراً . وهذا ما تفعله الخطية ، إذ تأخذ المحبة الصالحة وتجعلها شهوة ، وتأخذ الرغبة الصالحه فى الاستقلال وتجعلها محبة للمال وللسلطة ، وتأخذ جمال الصداقة وتجعل منه استغلالا . وهذا مادعاه كارلايل : « اللعنة الدائمة للخطية » . ان سوء استغلال الخطية للوصية الصالحة ، وتحويلها إياها إلى رأس جسر لها يظهر أن « الخطية خاطئة جداً » . وليس هذا شيئاً جزافياً ، لكنه يكشف لنا كيف تفسد الخطية أجمل الأشياء وتشوهها وتلوثها !

فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّامُوسَ رُوحِيٌّ وَأَمَّا أَنَا فَجَسَدِيٌّ مَبِيعٌ تَحْتَ ٱلْخَطِيَّةِ. لِأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ إِذْ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. فَإِنْ كُنْتُ أَفْعَلُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِنِّي أُصَادِقُ ٱلنَّامُوسَ أَنَّهُ حَسَنٌ. فَالْآنَ لَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُ ذٰلِكَ أَنَا بَلِ ٱلْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ. فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ أَيْ فِي جَسَدِي شَيْءٌ صَالِحٌ. لِأَنَّ ٱلْإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ ٱلْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. لِأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ ٱلَّذِي أُرِيدُهُ بَلِ الشَّرَّ ٱلَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. فَإِنْ كُنْتُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ إِيَّاهُ أَفْعَلُ فَلَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُهُ أَنَا بَلِ ٱلْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ. إِذاً أَجِدُ ٱلنَّامُوسَ لِي حِينَمَا أُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ ٱلْحُسْنَى أَنَّ الشَّرَّ حَاضِرٌ عِنْدِي. فَإِنِّي أُسَرُّ بِنَامُوسِ ٱللّٰهِ بِحَسَبِ ٱلْإِنْسَانِ الْبَاطِنِ. وَلٰكِنِّي أَرَى نَامُوساً آخَرَ فِي أَعْضَائِي يُحَارِبُ نَامُوسَ ذِهْنِي وَيَسْبِينِي إِلَى نَامُوسِ ٱلْخَطِيَّةِ الْكَائِنِ فِي أَعْضَائِي.

وَيْحِي أَنَا ٱلْإِنْسَانُ ٱلشَّقِيُّ . مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هٰذَا ٱلْمَوْتِ . أَشْكُرُ ٱللهَ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ رَبِّنَا . إِذاً أَنَا نَفْسِي بِذِهْنِي أَخْدِمُ نَامُوسَ ٱللهِ وَلٰكِنْ بِٱلْجَسَدِ نَامُوسَ ٱلْخَطِيَّةِ .

(رومية ٧ : ١٤ — ٢٥)

فى هذه الفقرة الكتابية يكشف لنا بولس خفايا نفسه ، كما يخبرنا عن أساس اختبار كل إنسان . إنه يعرف الصواب ويريد أن يفعله ، ولكنه بطريقة ما يجد نفسه عاجزاً عن عمله . وهو يعرف الخطأ ، وهو آخر مايريد أن يفعله ، لكنه يجد نفسه يرتكبه ، إنه يرى انقساماً فى شخصيته ، وكأن إنسانين منفصلين يعيشان داخله ، وهو مشدود إلى اتجاهين متناقضين . إنه حرب داخلية متحركة! وهو حائر جداً بين قدرته على رؤية الصواب وعجزه عن عمله ! وبين معرفته للخطأ وعجزه عن الإبتعاد عنه .

وقد عرف المعاصرون لبولس هذه الفكرة ، كما نعرفها نحن ، فقد تحدث سنيكا عن « عجزنا تجاه الأمور اللازمة » كما تحدث عن كيف يبغض الناس خطاياهم وكيف يحبونها فى الوقت نفسه ، وكان الشاعر الرومانى أوفيد قد قال : « إننى أرى الأمور الأفضل ، وأقرها ، ولكنى أتبع الأسوأ » .

وقد عرف اليهود هذه المشكلة ، وقد حلوها بالقول إن داخل الإنسان طبيعتين ودافعين وميلين . . وأن الله خلق الناس هكذا . وقال بعض معلمى اليهود إن الدوافع الشريرة موجودة فى الجنين قبل ولادة الطفل ، وهى كالشخصية الثانية الشريرة ، كعدو للانسان يربض منتظراً اللحظة المناسبة ليحطم الإنسان إلى الأبد ولكنهم قالوا إن الإنسان ليس مضطراً للخضوع لهذا العدو الشرير ، فلكل إنسان

حق الاختيار . وقد قال ابن سيراخ : « هو صنع الإنسان فى البدء وتركه فى يد اختياره ، فإن شئت حفظت الوصايا ووفيت مرضاته . وعرض لك النار والماء ، فتمد يدك إلى ما شئت . الحياة والموت أمام الإنسان ، فما أعجبه يعطى له . . . لم يوص أحداً أن ينافق ولا أذن لأحد أن يخطأ » (ابن سيراخ ١٥: ١٤ـ٢٢).

وهناك أشياء تساعد الإنسان على الابتعاد عن الخطأ . كان هناك الناموس ، وقد فكروا أن الله يقول للانسان : « لقد خلقت لك الميل الشرير ، وخلقت لك الناموس كمطهر . فإذا أشغلت نفسك بالناموس ، فإنك لن تسقط فى قبضة الميل الشرير القوية» . وهناك الإرادة والعقل ، فقالوا : عندما خلق الله الإنسان وضع فيه العواطف والميول ، وفوق الكل ملك عليه العقل المقدس الحاكم » . وعلى هذا فقد قال اليهود إنه عندما يهاجم الميل الشرير فإن الحكمة والعقل يهزمانه ، وعلى هذا فالإنشغال بدرس ناموس الله يقود للأمان ، لأن الناموس واق من المرض . وهكذا فان المنشغل بناموس الله يدعو الميل الصالح لنجدته .

ولا بد أن بولس عرف هذا كله ، كما أن هذا كله صحيح نظرياً ، ولا بد أن يكون صحيحاً . لكن عندما يجئ التطبيق العملى نجده خاطئاً ، لأن المعركة قائمة ويقول بولس إن بداخله « جسد هذا الموت » الذى يستجيب لنداء التجربة والخطية . وكلنا نعلم الصواب ونعمل الخطأ ، وأننا لا نرقى إلى الصلاح الذى نعرف أننا يجب أن نصل إليه . إننا تحت طلب الصالح وتحت طلب الشرير، على السواء ! ويمكن أن ندعو هذه الفقرة « مسيرة العجز » .

١ ـ نرى هنا مسيرة عجز المعرفة الإنسانية ، فلو أن معرفة الصواب تجعلنا نفعله لسهلت الأمور ، ولكن المعرفة وحدها لا تكفى لتجعل الإنسان صالحاً . قد نعرف كل قوانين لعبة الجولف ولكننا نكون أبعد ما يكون عن القدرة على اللعب . وربما نعرف كيف يكتب الشعر ولكننا نعجز عن قرضه . وربما نعرف قواعد السلوك فى موقف معين ، ولكننا لا نطبق هذه القواعد . وهنا يكمن

الفرق بين الدين والأخلاق، فالأخلاق هي معرفة مايجب أن نفعله ، لـكن الدين هو معرفة المسيح . الأخلاقيات قواعد ، لـكن الدين معرفة شخص. ومالم نعرف المسيح فلن نقدر على عمل ما يجب أن نفعله .

(٢) ونرى مسيرة عجز التصميم البشرى ، فقد نصمم على عمل شيء ، ولـكننا لانعمله ، وهذا يرجع إلى ضعف الإرادة الإنسانية ، فطالما نصطدم بمشكلة أو صعوبة أو مقاومة تنهار إرادتنا ! مرة أخذ بطرس قراراً عظيماً ، قال فيه : « ولو اضطررت أن أموت معك ، لا أنـكرك » (متى ٢٦ : ٣٥) ولـكن الإرادة الإنسانية بدون قوة المسيح معرضة للـكسر .

(٣) ونرى مسيرة محدودية التشخيص ، فقد عرف بولس بوضوح مـكمن الخطأ ، ولـكنه لم يستطع أن يجرى الإصلاح . كان بولس كالطبيب الذى شخص المرض تشخيصاً صحيحاً ، لـكنه فشل فى وصف الدواء الناجع . ويسوع وحده هو الذى يعرف الخطأ ، لـكنه يقدر أن يعالج ، ذلك أنه لايقدم لنا نقداً ولوماً ، لـكن عطفاً ومحبة !

تحرير الطبيعة الإنسانية

إِذًا لاَ شَيْءَ مِنَ ٱلدَّيْنُونَةِ ٱلآنَ عَلَى ٱلَّذِينَ هُمْ فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ ٱلْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ ٱلرُّوحِ . لِأَنَّ نَامُوسَ رُوحِ ٱلْحَيٰوةِ فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ ٱلْخَطِيَّةِ وَالْمَوْتِ . لِأَنَّهُ مَا كَانَ النَّامُوسُ عَاجِزًا عَنْهُ فِي مَا كَانَ ضَعِيفًا بِالْجَسَدِ فَاللهُ إِذْ أَرْسَلَ أبْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ ٱلْخَطِيَّةِ

وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ . لِكَيْ يَتِمَّ حُكْمُ النَّامُوسِ فِينَا نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ .

(رومية ٨ : ١ — ٤)

فى هذه الفقرة يقدم بولس الكثير من المعلومات ، ويرجع فيها إلى ماسبق أن قاله فى الرسالة كلها . وخلال هذا الإصحاح تتكرر كلمتان عدة مرات ، هما « الجسد» و« الروح » . ولن نستطيع الفهم حتى نعرف ما قصده بولس بهما.

(١) كلمة « جسد » . يستعمل بولس هذه الكلمة بثلاث طرق مختلفة .

(أ) يستخدمها حرفياً عندما يتحدث عن الختان المصنوع فى الجسد (فى اللحم)(رومية٢ : ٢٨) .

(ب) ويستخدم التعبير « حسب الجسد » بمعنى « النظر إلى الأمور من وجهة النظر الإنسانية » ، فيقول إنه من وجهة النظر الإنسانية : إبرهيم أب لليهود « حسب الجسد » . ويقول إن المسيح ابن داود « من جهة الجسد » (بحسب وجهة النظر الإنسانية» (رومية ١:٣) . ويقول إن اليهود أقرباؤه حسب الجسد (رومية ٩ : ٣) . . وهو يعنى بهذا أنهم أقرباؤه وأنسباؤه من وجهة النظر الإنسانية .

(جـ) ولكن بولس استعمل الكلمة بطريقة خاصة به . فعندما يتكلم عن المؤمنين يذكر أياماً « لما كنا فى الجسد » (رومية٧: ٥) . ويفارق بين الذين يسلكون حسب الجسد والذين يسلكون حسب الروح (رومية ٨ : ٤،٥) ويقول إن الذين فى الجسد لايقدرون أن يرضوا الله (رومية ٨ :٨) . ويقول إن إهتمام الجسم موت لأنه معاد لله (رومية ٨ : ٦ ، ٧) ويتحدث عن المعيشة

حسب الجسد (رومية ٨ : ١٢) ويقول للمؤمنين : «فلستم فى الجسد » (رومية ٨ : ٩) . ومن الواضح ، خصوصاً فى الشاهد الأخير ، أن بولس لايتحدث عن اللحم والدم . إن بولس يقصد فى هذا المعنى الثالث « الطبيعة البشرية فى ضعفها وعجزها وتقصيرها وقابليتها للتجربة والخطأ » . إنها الجزء من الإنسان الذى يكون رأس الجسر للخطية ، وهى الطبيعة الإنسانية الفاسدة المنفصلة عن الله ، وكل مايشد الإنسان إلى العالم بعيداً عن الله . وهكذا فإن العيشة « حسب الجسد» معناها الحياة العالمية التى تمليها العبودية للخطية ، لا الحياة المسيحية التى تمليها المحبة لله . ويجب أن ندرك أن بولس لايقصد بالحياة « حسب الجسد » أنها حياة الزنا والخطايا الجسديه فقط ، ذلك أن الخطايا التى يذكرها فى غلاطية ٥ : ١٩ — ٢١ باعتبار أنها « أعمال الجسد» يورد فيها خطايا الجسد من زنا وقتل وغضب ونزاع وبدع وحسد وعبادة أوثان . . فهى خطايا الجسد والنفس . ان بولس يقصد إذاً استعباد النفس الإنسانية لكل ما هو ضد المسيح .

(٢) كلمة « روح » وقد وردت هذه الكلمة فى هذا الاصحاح نحو عشرين مرة .

ولهذه الكلمة أساس كتابى هام ، فهى فى العهد القديم تعنى فكرتين .

(أ) الريح ، وفيها فكرة القوة ، كقوة الريح العاصفة .

(ب) ماهو أكثر من الإنسانى ، شىء ليس من الإنسان وفوق طاقته . إنها القوة الإلهية .

وبولس يقول هنا إنه مضى وقت على المسيحى ، قبل أن يعرف المسيح ، كان فيه تحت رحمة طبيعته البشرية الخاطئة . وفى هذه الحالة حرك الناموس فيه الشهوة للخطأ ، فسار من الردىء إلى الأردأ فى هزيمة وخيبة أمل . ولكن عندما صار مسيحياً جاءت قوة روح الله نفسه ، فصارت له قوة ليست من عنده ، فبدأت انتصاراته بعد الهزائم !

وفى الجزء الثانى من هذه الفقرة يتحدث بولس عن تأثير عمل المسيح علينا. ولنذكر إنه قد سبق أن قال إن كل الناس أخطأوا فى آدم، وكيف وجد بولس فى فكرة « التكافل والتضامن » ماجعله يقول إن كل الناس مخطئون مع آدم، وكيف اجتاز الموت إلى جميع الناس. ولكن المسيح جاء إلى هذا العالم، إنساناً مولوداً من امرأة بطبيعة إنسانية كاملة، وعاش كإنسان بلا خطية، فهزم الخطية وأدانها وهزمها.. وقدم لله حياة كاملة بلا عيب متمماً كل مطالب الناموس. وقدتم التكافل بين المؤمنين وبين المسيح، فصار لنا كماله وانتصاره، وفيه تمم البشر ناموس الله. وكما جاء العصيان لكل البشر فى تضامنهم مع آدم، جاءت الطاعة إليهم فى تضامنهم مع المسيح. نال المؤمنون بالمسيح الخلاص لأنهم اتحدوا معه فى صلاحه. وقد فهم قرَّاء رسالة رومية ماقصده بولس، لأنهم كانوا يدركون معنى نظرية التضامن والتكافل. وباتحادنا بالمسيح تنفتح لنا الحياة المسيحية التى لا يسيطر عليها « الجسد » بأهوائه وشهواته، بل يسيطر عليها « الروح » الذى يملأ المؤمن بقوة من خارج نفسه. وهكذا تنتهى العقوبة على الماضى، وتتأكد لنا قوة الروح للمستقبل.

قانون الحياة

فإنَّ الَّذِينَ هُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَبِمَا لِلْجَسَدِ يَهْتَمُّونَ وَلَكِنَّ الَّذِينَ حَسَبَ الرُّوحِ فَبِمَا لِلرُّوحِ. لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ مَوْتٌ وَلَكِنَّ اهْتِمَامَ الرُّوحِ هُوَ حَيَوةٌ وَسَلاَمٌ. لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ عَدَاوَةٌ لِلّهِ إِذْ لَيْسَ هُوَ خَاضِعاً لِنَامُوسِ اللهِ لأَنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ. فَالَّذِينَ هُمْ فِي الْجَسَدِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرْضُوا اللهَ. وَأَمَّا أَنْتُمْ

فَلَسْتُمْ فِي الْجَسَدِ بَلْ فِي الرُّوحِ إِنْ كَانَ رُوحُ اللهِ سَاكِنًا فِيكُمْ وَلٰكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ فَذٰلِكَ لَيْسَ لَهُ. وَإِنْ كَانَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ فَالْجَسَدُ مَيِّتٌ بِسَبَبِ الْخَطِيَّةِ وَأَمَّا الرُّوحُ فَحَيَوةٌ بِسَبَبِ الْبِرِّ. وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَاكِنًا فِيكُمْ فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ.

(رومية ٨ : ٥ ـ ١١)

فى هذه الفقرة يقدم لنا بولس مفارقة بين نوعين من الحياة :

١ — هناك الحياة التى تسيطر عليها الطبيعة الإنسانية الخاطئة ، فتتركز على ذاتها ، تستوعبها اهتمامات الشهوة ، وتستغرقها اللذة . ويختلف نوع هذه الحياة باختلاف الأشخاص ، فبعضهم تسيطر عليه الشهوة ، وغيرهم الكبرياء ، وغيرهم الطموح الخاطىء ، وغيرهم الإنتقام . ولكنهم جميعاً تستوعبهم الإهتمامات المعادية للمسيح . .

٢ — وهناك الحياة التى يسيطر عليها روح الله . وكما يحيا الإنسان فى الهواء يحيا المسيحى فى المسيح ولا ينفصل عنه ، وكما يتنفس الإنسان الهواء فيملأه ، هكذا يملأ المسيح المسيحى ، فالمسيح فكره . لا إرادة شخصية له ، بل ارادة المسيح هى قانون حياته ، لأنه تحت سيطرة الروح ، وكل فكره مركز على الله .

وهذان النوعان من الحياة يسيران فى اتجاهين متضادين ، فالحياة التى تسيطر عليها رغبات الطبيعة الإنسانية الخاطئة ونشاطاتها تسير نحو الموت ، ولا مستقبل لها ، لأنها تبتعد تدريجياً عن الله . وكل من يسمح للعالم أن يسيطر عليه يحكم على نفسه بالإعدام ، ويهلك نفسه بكل ما فى الهلاك من معنى . وعندما يحيا الإنسان حسب الجسد يجعل من نفسه شخصاً غير مناسب للوقوف فى محضر الله ، لأنه معاد لله كاره لوصاياه وسيطرته . وهو ليس صديقاً لله ، بل عدو له ، ولم يحدث أبداً أن إنسانا ربح المعركة ضد الله !

أما الحياة حسب الروح ، فمركزها المسيح وكل نظرها موجه إليه ، وهى تقترب إلى السماء كل يوم ، رغم أنها تحيا على الأرض . وهى تقترب من التشبه بالمسيح كل يوم ، كما أنها فى تقدم مستمر نحو الله ، حتى يصبح تخطيها للموت مرحلة مفروضة . انها مثل أخنوخ الذى سار مع الله ، ولم يوجد لأن الله « نقله » وقد وصف طفل حياة أخنوخ ، قال : « كان أخنوخ يتنزه مع الله وهو يسير كل يوم ، وذات يوم خرج للتنزة مع الله فلم يرجع » !

ولكن ما أن قال بولس هذا حتى شعر أن شخصاً سيسأله : « تقول إن الحياة التى يسيطر عليها روح الله حياة دائمة ، لكننا نرى أن كل الناس يموتون فماذا تقول ؟ » . ويجاوب بولس على هذه الفكرة فيقول إن كل الناس يموتون لأنهم متورطون فى الحياة الإنسانية فقد دخلت الخطية إلى العالم ، ومعها الموت ، لأن الموت نتيجة للخطية ، فكل الناس يموتون . ولكن صاحب الحياة « حسب الروح » الذى جعل المسيح مركزاً لحياته يموت ليقوم . إن بولس يرى أن المسيحى متحد بالمسيح ، وعلى ذلك فهو غير قابل للانحلال . ولقد مات المسيح وقام منتصراً على الموت ، وكل من يتحد بالمسيح يتحد معه فى انتصاره على الموت ، وفى القيامة . وعلى هذا فالذى يحيا « حسب الروح » يسير فى الطريق إلى الحياة ، وما الموت إلا فترة فاصلة نمر بها فى طريقنا للحياة .

الدخول إلى عائلة الله

فَاذًا أَيُّهَا ٱلإِخْوَةُ نَحْنُ مَدْيُونُونَ لَيْسَ لِلْجَسَدِ
لِنَعِيشَ حَسَبَ ٱلْجَسَدِ لِأَنَّهُ إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ ٱلْجَسَدِ
فَسَتَمُوتُونَ. وَلٰكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ ٱلْجَسَدِ
فَسَتَحْيَوْنَ. لِأَنَّ كُلَّ ٱلَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ ٱللهِ
فَأُولٰئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ ٱللهِ. إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ
ٱلْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا لِلْخَوْفِ بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ ٱلتَّبَنِّي ٱلَّذِي
بِهِ نَصْرُخُ يَا أَبَا ٱلْآبُ. اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ
لِأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلَادُ ٱللهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلَادًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ
أَيْضًا وَرَثَةُ ٱللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ ٱلْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ
مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ.

(رومية ٨ : ١٢ — ١٧)

فى هذه الفقرة يقدم لنا بولس صورة للمسيحى تصف علاقته الجديدة مع الله، فيقول إن الله قد تبناه فى عائلته. ولن نفهم عمق فكرة بولس هذا حتى ندرك الخطوات المعقدة التى كان الرومانى يجوز فيها قبل أن يتبنى طفلاً، فقد كان نظام « الوصاية الأبوية » قاسياً، وكان التبنى أقسى. أما الوصاية الأبوية فقد كانت تعطى الأب السلطة المطلقة على بنيه حتى الحياة والموت. ولم يكن الإبن الرومانى يخرج أبداً من وصاية أبيه، مهما بلغ من العمر. كان الأب يملك أسرته تماماً ويحكمها. وقد جعلت هذه « الوصاية الأبوية » مسألة التبنى صعبة للغاية ،

لأن الابن المتبنى (بتشديد النون وفتحها) كان يخرج من وصاية أبيه إلى وصاية أب آخر . وكان لهذا التبنى خطوتان. فى الخطوة الأولى كان يتم بيع وشراء رمزى، ثلاث مرات . كان الأب يبيع ابنه مرتين ثم يشتريه ، وفى المرة الثالثة كان يبيعه ولا يشتريه ، وهكذا تنكسر وصايته على ابنه . وبعد ذلك تجىء الخطوة الثانية، وهى خطوة التبنى ، عندما يأخذ المتبنى (بتشديد النون وكسرها) الإبن أمام الحاكم الرومانى ليقوم بنقله قانونياً إلى وصاية « الأب الجديد » . وعندما يتم هذا يكمل التبنى .

أما نتيجة التبنى فقد كانت الصورة الماثلة فى ذهن بولس هنا . كانت هناك أربع نتائج :

(١) كان الابن يفقد كل حقوقه فى عائلته القديمة ، ويربح كل الحقوق فى عائلته الجديدة . وكان هكذا يحدث عرفياً وطبقاً للقانون . وهكذا يصبح له أب جديد .

(٢) يصبح الإبن وارثاً لتركة أبيه الجديد . وحتى لو أنجب الأب الجديد أولاداً من صلبه ، فإن حقوق الإبن المتبنّى (بتشديد النون وفتحها) تبقى دون تغيير ، إذ يصبح وارثاً معهم .

(٣) قانونياً تنتهى حياة الإبن السابقة للتبنى ، فتسقط مثلا كل الديون التى كانت عليه وكأنها لم تكن ، ويعتبر صاحب حياة جديدة بدأت يوم تبنيه . الحياة القديمة قد مضت . هوذا الكل قد صار جديداً .

(٤) قانونيا يصبح الإبن حرفياً وكاملا ابناً للأب الجديد . وهناك حادثة تاريخية توضح هذا ، فقد تبنى الأمبراطور كلوديوس نيرون ليخلفه على العرش ، دون أن تكون هناك أية صلة قرابة بينهما . وكان كلوديوس قد أنجب بنتاً هى «أوكتافيا». وقد أراد نيرون أن يثبت العلاقة الجديدة بالزواج من أوكتافيا . والواقع أنه لم يكن هناك أى نوع من القرابة بين نيرون وأوكتافيا ، ولكن

القانون (بسبب التبنى) اعتبرها أخا وأختاً . وكان على البرلمان الرومانى أن يصدر قانونا خاصا يسمح بزواج نيرون من أوكتافيا ، التى كانت أخته فى نظر القانون !

ويقدم بولس صورة أخرى للتبنى الرومانى ، فيقول إن الروح يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله . وكانت حفلة التبنى تتم بحضور سبعة شهود . ولنفترض أن الأب المتبنى (بتشديد النون وكسرها) مات وحدث خلاف حول تقسيم التركة . هنا يتقدم أحد الشهود السبعة ويحلف أن التبنى كان قانونياً وصحيحاً وقد حدث أمامه، وهذا ينهى الإشكال ، ويضمن للابن الجديد نصيبه فى التركة . ويقول بولس هنا إن الروح القدس شاهد على أننا قد دخلنا فى عائلة الله .

من هذا نرى أن كل خطوة من خطوات التبنى واضحة فى ذهن بولس ، الذى نقل التشبيه إلى التبنى فى عائلة الله . لقد كنا تحت سلطان الخطية الكامل ، وتحت وصاية الطبيعة البشرية الساقطة الثائرة على سلطان الله ، ولكن الله تبنانا ونقلنا تحت وصايته ، فلم تعد للحياة القديمة أية سلطة علينا ، وشطب الماضى وانتهى بكل ديونه . وهكذا بدأنا حياة جديدة مع الله ، صرنا معها ورثة لكل غنى الله . صرنا ورثة الله ووارثين مع المسيح ، ابن الله . وما يرثه المسيح نرثه نحن أيضاً . وإن كان المسيح قد ورث الألم ، فهكذا نرثه نحن أيضاً ، وما دام المسيح قد قام للحياة والمجد ، فإننا سنرث هذا أيضاً !

إن بولس يوضح لنا هنا أن الإنسان يدخل عائلة الله عندما يصير مسيحياً ، دون أن يكون قد فعل شيئاً لكسب هذا الامتياز . إن الله فى كامل محبته ورحمته قد أخذ الخاطىء الساقط العاجز الفقير المديون وتبناه داخل عائلته ، فانتهت ديونه ونال المحبة والمجد اللذين لا يستحقهما !

فَإِنِّي أَحْسِبُ أَنَّ آلاَمَ ٱلزَّمَانِ ٱلْحَاضِرِ لاَ تُقَاسُ بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِينَا . لِأَنَّ ٱنْتِظَارَ ٱلْخَلِيقَةِ يَتَوَقَّعُ ٱسْتِعْلاَنَ أَبْنَاءِ ٱللهِ . إِذْ أُخْضِعَتِ ٱلْخَلِيقَةُ لِلْبُطْلِ . لَيْسَ طَوْعاً بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلَّذِي أَخْضَعَهَا . عَلَى ٱلرَّجَاءِ . لِأَنَّ ٱلْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضاً سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلاَدِ ٱللهِ . فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ ٱلْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعاً إِلَى ٱلْآنَ . وَلَيْسَ هٰكَذَا فَقَطْ بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوحِ نَحْنُ أَنْفُسُنَا أَيْضاً نَئِنُّ فِي أَنْفُسِنَا مُتَوَقِّعِينَ ٱلتَّبَنِّي فِدَاءَ أَجْسَادِنَا . لِأَنَّنَا بِالرَّجَاءِ خَلَصْنَا . وَلٰكِنَّ ٱلرَّجَاءَ ٱلْمَنْظُورَ لَيْسَ رَجَاءً . لِأَنَّ مَا يَنْظُرُهُ أَحَدٌ كَيْفَ يَرْجُوهُ أَيْضاً . وَلٰكِنْ إِنْ كُنَّا نَرْجُو مَا لَسْنَا نَنْظُرُهُ فَإِنَّنَا نَتَوَقَّعُهُ بِالصَّبْرِ .

(رومية ٨ : ١٨ — ٢٥)

تحدث بولس عن أمجاد التبنى فى عائلة الله ، ثم عاد يتحدث عن الآلام التى يواجهها أولاد الله فى العالم الحاضر . وهو يرى الأمور بعين الشاعر الذى يرى الخليقة كلها من مخلوقات وطبيعة تنتظر المجد الآتى ، لأنها تعانى من العبودية

والفساد ، فإن الجمال فى عالمنا يذوى والحلاوة تفسد . إنه عالم مائت ! ولكن الخليقة كلها تتوقع حالة الحرية والمجد القادمة .

وعندما كا بولس يستخدم هذه الكلمات ، كان يخاطب اليهود الفاهمين لما يقول ، فهو يتحدث عن العالم الحاضر ، والأمجاد المنتظرة له . وكان الفكر اليهودى قد قسم الدهر إلى قسمين : الدهر الحاضر ، والدهر الآتى . فالدهر الحاضر شرير مستعبد للخطية والموت والفساد . ولكن « يوم الرب » آت ، وهو يوم عقاب تهتز له الأساسات وترتعب . ولكن منه يبدأ الدهر الآتى والعالم الجديد . وكان تجديد العالم من أفكار اليهود العظيمة ، يتحدث العهد القديم عنها فى غير تفصيل « لأنى هأنذا خالق سماوات جديدة وأرضاً جديدة » (أشعياء ٦٥ : ١٧) ولكن فى فترة ما بين العهدين ، عندما شعر اليهود بالظلم والعبودية والإضطهاد ، بدأوا يحلمون بتجديد العالم وتغييره فيقول باروك فى رؤياه : « ستعطى الكرمة ثمرها عشرة آلاف ضعف ، ففى كل كرمة تجد ألف غصن ، يحمل كل غصن ألف عنقود ، ويحمل كل عنقود ألف حبة ، وتعطى كل حبة (وزناً كبيراً) من العصير . سيفرح الجائعون ، وسيرون عجائب كل يوم ، لأن الريح ستخرج من أمامى كل صباح حاملة روائح الفواكه ، وفى المساء تخرج السحب لتنزل الندى المروى » (٢٩ : ٥) .

ويقول سبلين : « ستعطى الأرض والأشجار والقطعان إنتاجها الكبير للناس ، من خمر وعسل ولبن وقمح ، وهى أجمل العطايا للناس . ستعطى الأرض أجمل هداياها للبشر المائتين ، من قمح وخمر وزيت ، وستمطر العسل الحلو ، وتعطى الأشجار والنعاج أفضل الإنتاج . ستنبثق ينابيع اللبن الأبيض وستمتلىء المدن من الصالحات والحقول من الغنى . لن يكون هناك سيف ولا معركة حربية ، ولن يكون فى الأرض أنين ..لا حرب ولا قحط ولا جوع ولا وباء ولا آفات على الزرع أو على البشر » .

كان حلم التجديد عزيزاً على اليهود . ويقول بولس إن الخليقة كلها تتوقع هذا اليوم عندما تتحطم عبودية الخطية ، ويزول الموت ، ويجيء مجد الرب ! ويقول بولس إن حالة الطبيعة الحالية أسوأ من حالة الناس ، فإن البشر أخطأوا باختيارهم ، ولكن الطبيعة لم تختر الخطأ ، لكنها « أخضعت للبُطل » فاحتملت نتيجة الخطية ، فقد قال الله لآدم « ملعونة الأرض بسببك » (تكوين ٣ : ١٧) وهاهو بولس -- بعين الشاعر — يرى الطبيعة تتوقع التحرير من الفساد الذى جاء إلى العالم بسبب الخطية .

وإن كان هذا يصدق على الطبيعة ، فهو يصدق على البشر ، فيمضى بولس ليتحدث عن انتظارات الناس ، فيقول إنه فى اختبار الروح القدس رأى الناس باكورة المجد الآتى ، وهذا يجعلهم يتطلعون إلى إستكمال هذا المجد عندما يصيرون أعضاء عائلة الله . وسيكون التبنى الأخير فداء الأجساد. ففى العالم الحاضر يوجد الإنسان بالروح والجسد ، أما فى العالم الآتى فإن الإنسان « كله » سيخلص. ولن يكون جسده قابلا للفساد ، ولا آلة للإثم ، ولكنه سيكون جسداً روحياً مناسباً لحياة الإنسان الروحية .

ثم يقول الرسول : « لأننا بالرجاء خلصنا » . لقد امتلأ فكر بولس بالحقيقة الرائعة أن حالة الإنسان ليست ميئوساً منها . لم يكن بولس متشائماً . قال هـ . ج . ويلز : « إن الانسان الذى بدأ حياته فى كهف يخاف الريح ، سيموت بالمرض المدمر ، فى كوخ » . لم يكن هذا فكر بولس . لقد رأى خطية الإنسان ، وحالة العالم والبشر ، ولكنه رأى أيضاً محبة الله وقوته الفادية ، فوجد الرجاء والأمل ، فلم يعش بولس فى عالم فاسد بالخطية مائت بالإثم ينتظر خرابه ، بل عاش فى التحرير وإعادة الخلق ، بقوة الله ، ولمجده !

ويستخدم بولس فى آية ١٩ كلمة جميلة للغاية ، هى كلمة « يتوقع » وهى تصف الشخص الذى يطالع الأفق برأس مرفوع مفتشاً عن أول علامات بزوغ

الفجر . أن بولس لا يرى الحياة تعباً فى انتظار الهزيمة ، ولـكنها حية عامرة بالانتظارات. ويحيا المؤمن وسط الصراعات الداخلية مع طبيعته البشرية ، والخارجية مع العالم الملىء بالفساد والموت ، ولـكنه لا يحيا فى العالم فقط ، بل فى المسيح أيضاً ، وهو لا يرى العالم فقط ، لـكنه يتطلع إلى الله خلف العالم ، وهو لا يرى نتائج خطية الإنسان فقط ، لـكنه يرى قوة الله ومراحمه ومحبته ، وعلى هذا فإن نبرة الحياة المسيحية هى نبرة الرجاء لا اليأس . والمؤمن لا يتوقع الموت ، بل الحياة !

الـكل من الله

وَكَذٰلِكَ الرُّوحُ أَيْضاً يُعِينُ ضَعَفَاتِنَا . لِأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لِأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي وَلٰـكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لَا يُنْطَقُ بِهَا . وَلٰـكِنَّ ٱلَّذِي يَفْحَصُ الْقُلُوبَ يَعْلَمُ مَا هُوَ ٱهْتِمَامُ الرُّوحِ . لِأَنَّهُ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ ٱللهِ يَشْفَعُ فِي الْقِدِّيسِينَ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ ٱلْأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعاً لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱللهَ ٱلَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ . لِأَنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَـكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ٱبْنِهِ لِيَـكُونَ هُوَ بِكْراً بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ . وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ فَهٰؤُلَاءِ

دَعَاهُمْ أَيْضاً . وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ فَهؤُلَاءِ بَرَّرَهُمْ أَيْضاً . وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ فَهؤُلَاءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضاً .

(رومية ٨ : ٢٦ — ٣٠)

تقدم هذه الفقرة لنا فكرة من أجمل الأفكار عن الصلاة ، إذ يقول بولس إنه بسبب ضعفنا لا نعرف ما نصلى لأجله ، ولذلك فإن الروح القدس يصلى فينا كما ينبغى أن نصلى . وقد عرّف «دود» الصلاة بأنها «الالهى الذى فينا يدعو الإلهى الذى فوقنا» وهناك سببان واضحان لكوننا لا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغى ، أولهما لأننا لا نرى المستقبل ،ولا حتى ساعة واحدة مقدماً ، فقد نصلى أن ينقذنا الله من أشياء هى لصالحنا ، وقد نطلب أشياء تضرنا ، وذلك لأننا لا نعرف فائدة أو ضرر ماسيحدث لنا مستقبلا . وثانيهما أننا فى الظرف الذى نعيشه لا نعرف ما هو الأفضل لنا ، فإننا كالطفل الذى يصر على نوال ما يؤذيه ، والله كالأب الذى يرفض طلب ابنه ، ويجبره على عمل شىء لا يريد أن يفعله ، لأنه يعرف مصلحة الطفل أفضل من معرفة الطفل لها . وقد منع فيثاغوراس تلاميذه من الصلاة التى يطلبون فيها أشياء شخصية ، لأنهم بسبب جهلهم لن يعرفوا ما هو الأفضل لهم. أما زينوفون فقدأخبرنا أن سقراط علم تلاميذه أن يصلوا لأجل الأشياء الصالحة بدون تحديد هذه الاشياء ، تاركين لله تحديد الصالح بنفسه ! ويقول «دود» إننا لا نعرف احتياجاتنا الحقيقيه ، ولا نقدر بعقولنا المحدودة أن نعرف مقاصد الله . ويقول بولس إننا نقدر أن نجىء إلى الله بأنات يفسرها الروح القدس ويفهمها الله ؟ فالصلاة «من الله» كما أن كل شىء هو من الله، فالتبرير لا يجىء من مجهوداتنا، كما أن الصلاة الحكيمة لا يمكن أن تنتج عن ذكائنا . وعلى هذا فإن الصلاة النموذجية هى : «يا أبتاه ، فى يديك استودع روحى . لكن لا إرادتى بل إرادتك» .

ولكن بولس يمضى ليقول إن المدعوين من الله ، حسب قصده ، يعلمون أن

الله يدبر كل الأمور لخيرهم . والمسيحى يعرف من اختباره أن كل الأشياء تعمل معاً لخيره . ولا داعى للانتظار حتى نكبر فى العمل ، فنتطلع إلى وراء لنرى كيف حول الله المصائب إلى بركات ، وأن الأشياء التى ضايقتنا انتهت بالخير كله لنا .. لكن من الآن ننظر لنرى اليد الهادية الموجهة تتخلل كل ماضينا .

على أن هذا الاختيار من نصيب « الذين يحبون الله » فقط . كان الرواقيون يتحدثون عن « كلمة الله » بقصد أن « الكلمة » هى فكر الله ، ذلك أن « كلمة الله » خلقت العالم وتحفظه ، وتعطى العالم النظام والمعنى ، وتحفظ الأفلاك فى مداراتها ، وتتابع الليل والنهار والصيف والشتاء . وباختصار « الكلمة » هى الفكر الإلهى الذى يعطى الكون نظامه ويحفظه من الفوضى . ولكن الرواقيين ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فقد قالوا إن للكلمة برنامجاً لحياة كل فرد ، وأنه لا يحدث شىء لانسان ما لم يكن من الله . وما لم يكن فى خطة الله لحياة ذلك الإنسان . وقد كتب أبكتيتوس : « لتكن لك الشجاعة لتتطلع للرب وتقول : تعامل معى كما تريد من الآن وصاعداً . فإنى واحد معك . إنى لك . ولن أتخاذل عن قبول شىء تراه أنت صالحاً لى ، فقدنى إلى حيث تريد ، وألبسنى الرداء الذى يرضيك . هل تريدنى أن أبقى فى وظيفتى أم أهجرها ، أبقى أو أهرب ، أغتنى أو أفتقر ؟ سأطيعك وأدافع عما تفعل معى أمام كل الناس » . وهكذا نرى أن الرواقيين علموا الانسان « القبول والتسليم » فإذا سلم الإنسان بما يجىء الله عليه به ، وجد السلام ، ولكن إن قاوم فسيكون كمن يضرب رأسه ليحطم مقاصد الله !

ويقدم بولس الفكرة نفسها ، فيقول إن كل الأشياء تعمل معاً للخير ، لكن للذين يحبون الله ، فإذا أحب انسان الله ووثق فيه على أنه الأب الحكيم المحب ، فإنه سيقبل فى تواضع ما يرسله الله له . قد يذهب إنسان إلى طبيب أو إلى جراح فيصف له الأدوية التى تضايقه ، ولكن الثقة فى حكمة الطبيب تجعله يقبل

ما يصنعه له. وهـكذا نعمل نحن مع الله إن كنا نحبه. ولـكن إن كان أحد لا يحب الله ولا يثق فيه ، فإنه يتذمر ويقاوم ما يأتى الله به عليه . أنه يغضب ويثور على الآلام والأحزان والتجارب. وعلى هذا فإن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله فقط ، الذين يثقون فى حكمته الأبوية .

ويمضى بولس ليتحدث عن فـكرة أخرى ، عن اختبار كل مسيحى . إنه يقول: «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه» ليكون هو بـكراً بين إخوة كثيرين . والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضاً .والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضاً ، والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضاً » . وقد أسىء تفسير هذه الآيات كثيراً ، فإننا يجب أن ندرك أن بولس هنـــا لم يـكن يتـكلم لاهوتيا أو فلسفيا ، لـكنه كان يتـكلم اختباريا .. ذلك أنه إن كنا نفسر هذه الآيات لاهوتياً لقلنا إن الله اختار بعض الناس ولم يختر البعض الآخر ، ولوجدنا فى محبة الله تفصيلات غريبة . ولـكن بولس هنا يتحدث عن الاختبار المسيحى ، وكلما فـكر المسيحى فى اختباره اكتشف أنه لم يفعل شيئاً يستحق به كل ما فعله الله لأجله ، فإن المسيح جاء إلى العالم وعاش وصلب وقام، دون أن يفعل أى مسيحى شيئاً فى هذا . كله من عمل الله . ولقد سمعنا قصة حبه العجيب ، ولـكننا لم نـكتبها . لقد آمنا بها فقط ، فاستيقظ حبه فى قلوبنا ، وتبـكّتنا على خطيتنا ، واعترفنا بها ، فنلنا الغفران والخلاص ، دون أن يـكون لنا ضلع فى ذلك . الـكل من الله ! ان هذا ما يقوله بولس هنا .

ونجد فى العهد القديم معنى مضيئاً لـكلمة « عرف » . ويقول الله : « أنا عرفتك فى البرية » (هوشع ١٣ : ٥) . « إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض » (عاموس ٣ : ٢) . وعندما يقول الـكتاب إن الله عرف الإنسان يعنى أن لله قصداً وهدفاً وعملا لذلك الإنسان . وعندما نتطلع إلى ماضى اختباراتنا مع الله نقول : « أنا لم أفعل هذا . ما كان يمـكن أن أفعله . لقد عمل الله كل شىء» . نقول هذا ونحن نعلم أنه لا يعنى أن الله سلبنا حرية الارادة . لقد عرف الله إسرائيل

لـكن جاء وقت رفضت فيه إسرائيل مقاصد الله من جهتها • إن يد الله غير المنظورة ترشد حياتنا وتهدينا ، لـكننا أحرار أن نرفض هذه القيادة أو نقبلها ، ولـكن المسيحى الحقيقى يختبر أن الـكل من الله ، وأنه لم يفعل شيئاً ، لأن الله فعل كل شيء . وهذا ما يقصده بولس هنا •• إنه يقصد أن الله من البدء عيننا للخلاص ، وفى الوقت المناسب جاءت دعوته لنا • ولـكن بولس يعلم أن كبرياء قلب الإنسان يمـكن أن يحطم خطط الله إذ يعصى إرادته ، ويرفض دعوة الله له .

المحبة التى لا يفصلنا عنها شيء

فَمَاذَا نَقُولُ لِهٰذَا . إِنْ كَانَ ٱللهُ مَعَنَا فَمَنْ عَلَيْنَا . ٱلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ٱبْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لِأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ كَيْفَ لَا يَهَبُنَا أَيْضاً مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ . مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي ٱللهِ . ٱللهُ هُوَ ٱلَّذِي يُبَرِّرُ . مَنْ هُوَ ٱلَّذِي يَدِينُ . ٱلْمَسِيحُ هُوَ ٱلَّذِي مَاتَ بَلْ بِٱلْحَرِيِّ قَامَ أَيْضاً ٱلَّذِي هُوَ أَيْضاً عَنْ يَمِينِ ٱللهِ ٱلَّذِي أَيْضاً يَشْفَعُ فِينَا . مَنْ سَيَفْصِلُنَا عَنْ مَحَبَّةِ ٱلْمَسِيحِ . أَشِدَّةٌ أَمْ ضِيقٌ أَمِ ٱضْطِهَادٌ أَمْ جُوعٌ أَمْ عُرْيٌ أَمْ خَطَرٌ أَمْ سَيْفٌ . كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ إِنَّنَا مِنْ أَجْلِكَ نُمَاتُ كُلَّ ٱلنَّهَارِ . قَدْ حُسِبْنَا مِثْلَ غَنَمٍ لِلذَّبْحِ . وَلٰكِنَّنَا فِي هٰذِهِ جَمِيعِهَا يَعْظُمُ ٱنْتِصَارُنَا بِٱلَّذِي

أَحَبَّنَا . فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لَا مَوْتَ وَلَا حَيَاةَ وَلَا مَلَائِكَةَ وَلَا رُؤَسَاءَ وَلَا قُوَّاتِ وَلَا أُمُورَ حَاضِرَةً وَلَا مُسْتَقْبَلَةً . وَلَا عُلْوَ وَلَا عُمْقَ وَلَا خَلِيقَةَ أُخْرَى تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا .

(رومية ٨ : ٣١ — ٣٩)

هذه قطعة شاعرية رائعة من قلم بولس ، أما الآية ٣٢ فهى اشارة وتذكير بحادثة جميلة فى العهد القديم فيقول بولس « الذى لم يشفق على ابنه ، بذله لأجلنا أجمعين ، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء ؟ » . وقد سبق أن أظهر إبراهيم حبه وولاءه الكامل للرب عندما لم يشفق على ابنه ، وأراد أن يبذله لأجل الرب ، فقال له الله : « لم تمسك ابنك وحيدك عنى » (تكوين ٢٢:١٢). ويقول بولس : « انظروا إلى أعظم برهان فى العالم على ولاء إنسان للرب . ان ولاء الرب لكم مثله ، فكما كان إبرهيم محباً للرب حتى قبل أن يبذل ابنه ، أعز ماعنده ، من أجل الله ، هكذا كانت محبة الله للبشر حتى أنه بذل ابنه عنهم . ونحن نقدر أن نضع كل ثقتنا فى هذه المحبة الألهية .

وهناك طريقتان لتفسير آيات ٣٣ — ٣٥ ، كل تفسير منها جميل ، ويقدم حقاً ثميناً :

١ — يمكن أن نجد هنا جملتين ، يتبعهما سؤالان ينبعثان من الجملتين :

(أ) ان الله هو الذى يبرر البشر — هذه هى الجملة . والسؤال : إن كان الله هو الذى يبرر فمن يقدر أن يدين ؟ مادام الله يبرر الإنسان فإنه ينجو من كل عقوبة .

(ب) ثقتنا هى بالمسيح الذى مات وقام ، والذى يحيا الآن — هذه

هى الجملة . والسؤال : من يستطيع إذن أن يفصلنا عن هـــذا الإله فى القام ؟

فإذا قبلنا هذا التفسير ، فإننا نرى حقيقتين عظيمتين :

(أ) أن الله يبررنا ، فلا يقدر أحد أن يديننا .

(ب) المسيح قام ، فلا يستطيع شىء أن يفصلنا عنه !

٢ — ولـكن هناك تفسير آخر . الله يبررنا ، فمن يستطيع أن يقف ضدنا فى يوم الدين ؟ والجواب : إن ديان العالم كله هو المسيح ، وحده له حق الإدانة . ولـكن الإدانة لن تـكون ، لأنه يجلس عن يمين الله ويشفع فينا ، وهكذا نجدنا فى طمأن ! وفى نور هذا التفسير نرى للآية ٣٤ معنى رائعا ، إذ يقول فيها بولس أربع حقائق عن المسيح :

(أ) أنه مات .

(ب) أنه قام أيضا .

(جـ) أنه عن يمين الله .

(د) أنه يشفع فينا . وهناك قانون الإيمان الرسولى الذى يقول : « صلب ومات وقبر ، وقام أيضا فى اليوم الثالث من بين الأموات ، وصعد إلى السماء ، وهو جالس عن يمين الله الآب الضابط الـكل . وسيأتى من هناك ليدين الأحياء والأموات » . لاحظ أن ثلاث حقائق من التى أوردها بولس موجودة فى أقدم قانون إيمان . . إن المسيح مات ، وقام ، وعن يمين الله. أما الرابعة فتختلف . يقول قانون الإيمان إن المسيح سيأتى ليدين الأحياء والأموات ، أما بولس فيقول إن المسيح يشفع فينا . فبالنسبة للخطاة المسيح قاض يدين ، لأنه يجلس عن يمين الله للدينونة . أما بالنسبة للمؤمنين فإن المسيح لم يجلس هناك ليـكون قاضى هلاكنا ، ولـكن لـكى يشفع فينا ويدافـع عنا . ليس هو

هناك ليصيغ الحكم ضدنا ، بل فى صالحنا . إنه لبس الديان ، بل الصديق الذى تبنى قضيتنا! ليخش الخطاة قضاءه، أما أبناء الله فان يفصلهم عن محبته شيء!

وأعتقد أن التفسير الثانى هو الأصح ، فإن بولس لا يرى فى المسيح قاضيا للبشر ، بل محبا لهم ، وعلى هذا فإنه يمضى ليرتل : « من سيفصلنا عن محبة المسيح الإله الحى المقام ؟ »

١ — لا اضطهادات ولا صعوبات تقدر أن تفصلنا عنه (آية ٣٦). نعم أن العالم يشوش على سمعنا ، لكننا نقدر أن نجد الأوقات الجميلة معه . إن كل مصائب العالم لا تفصل الإنسان عن المسيح ، بل تقربه اليه .

٢ — فى آيتى ٣٨ ، ٣٩ يعط بولس قائمة بأشياء مرعبة . يقول : لا موت ولا حياة يقدران على فصلنا عن المسيح : ففى الحياة نحيا مع المسيح ، وفى الموت نموت معه . ولأننا نموت معه فسنقوم أيضا معه . فالموت خطوة لتقريبنا للمسيح ، لا لفصلنا عنه ! . ليس الموت نهاية ، لكنه بوابة السماء التى تقودنا إلى محضر المسيح .

ولا تستطيع الملائكة أن تفصلنا عنه . وفى وقت بولس كان اليهود يثقون فى قوة الملائكة ، وكان لكل شيء فى العالم ملاك ، ملاك للريح ، وملاك للسحب ، وآخر للبرد والبرق والرعد والفصول .. الخ . وقال معلمو اليهود إن لكل شيء فى العالم ملاكاً ، حتى لورقة الشجر ! واعتقدوا أن الملائكة فصائل وأنواع. وقالوا إن هناك ثلاثة أنواع : الأول للعروش ومنهم الكروبيم والسرافيم. الثانى : القوات من الحكام وأصحاب القوة . والثالث : الرياسات . وقد تحدث بولس عن الملائكة أكثر من مرة (أفسس ١: ٢١ ، ٣ : ١٠ ، ٦ : ١٢، كولوسى ٢ : ١٠ ، ١٥، ١ كورنثوس ١٥: ٢٤) . وقد قال معلمو اليهود إن هؤلاء الملائكة معادون للبشر ، كما أنهم كانوا غاضبين لأن الله خلق الإنسان ، فقد أرادوا أن

يستأثروا بالله وحدهم ، فلما خلق الإنسان تذمروا لأن الإنسان سيشاركهم فى اهتمام الله . وقالوا إن الله عندما ظهر فى سيناء ليعطى موسى الناموس ، كان مصحوباً بعدد كبير من الملائكة ، تذمروا على إعطاء الناموس لبنى إسرائيل ، وحاولوا أن يعطلوا موسى فى صعوده إلى الجبل لولا تدخل الله . وبولس هنا يقول : «حتى الملائكة فى تذمرهم وغيرتهم لن يفصلونا عن محبة المسيح » .

ويمضى بولس ليقول إن الأشياء الحاضرة والمستقبلة لاتقدران أن تفصلانا عن محبة المسيح . كان اليهود يقسمون الدهر إلى قسمين : الدهر الحاضر والدهر الآتى . وبولس يقول إنه لاشئ فى الدهر الحاضر يقدر أن يفصلنا عن محبة الله وسيجئ اليوم الذى فيه ينتهى « العالم الحاضر » وتفنى « الأمور الحاضرة » ويشرق فجر الدهر الآتى . وسواء كنا فى الدهر الحاضر أو الدهر الآتى فإن إرتباطنا بالرب ثابت لايتغير .

ثم يقول بولس إنه لاعلو ولاعمق يقدران أن يفصلانا عن محبة الله . و«العلو والعمق » تعبير فلكى ، فقد كان الأقدمون يخافون النجوم ، وكانوا يقولون إن كل إنسان ولد تحت نجم خاص ، فتحدد مصيره . ولازال البعض يؤمن بهذا الكلام حتى اليوم ! لكن الأقدمين صدقوا تماماً أن النجوم تطاردهم وتحدد مصيرهم . أما « العلو » فهو حين يكون النجم فى أعلى إرتفاع له . أما « العمق » فهو حين يكون النجم فى أقل إرتفاع له ، ينتظر الإرتفاع لكى يؤثر فى حياة أحد الناس . ويقول بولس للخائفين من النجوم : إن النجوم لاتقدر أن تضركم فى إرتفاعهم أو فى إنخفاضهم لاقوة لهم لتفصلنا عن محبة الله . ولاخليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن الله . وبولس هنا يقول : « أى خيال مخيف لايقدر أن يفصلنا عن محبة الله . فلنفرض أن عالماً مختلفاً ظهر فجأة .. ستكونون فى أمان محاطين بمحبة الله » .

بهذه الأفكار يزول الخوف وينتهى الشعور بالوحدة . أن بولس يقول :
« يمكن أن تفكروا فى أكثر الأمور إثارة للرعب يمكن أن نجدها فى هذا العالم — لايستطيع واحد منها أن يفصلنا عن محبة الله التى فى المسيح ، لأنه هو الرب والسيد والمتسلط على كل مافى العالم » .

إن كان الله معنا ، فمن علينا ؟

مشكلة اليهود

مقدمة للاصحاحات ٩ — ١١

يعالج بولس فى هذه الأصحاحات الثلاثة مشكلة محيرة . يجب أن تجد الكنيسة حلا لها، هى مشكلة اليهود ، فقد كانوا شعب الله المختار ، وأصحاب مكانة خاصة فى برنامج الله للعالم ، ولكن عندما جاء ابن الله إلى العالم رفضوه وصلبوه . فكيف نفسر هذا التناقض ؟ كيف نفسر أن شعب الله صلبوا ابن الله ؟ هذه هى المشكلة التى يعالجها بولس هنا . ولذلك فإننا قبل دراسة هذه الأصحاحات بالتفصيل سنستعرض بعض الأفكار الرئيسية التى أوردها بولس، مع الخطوط الرئيسية للحلول التى قدمها .

وقبل أن ندخل فى هذا العرض نود أن نوضح أن بولس يكتب ما يكتبه ، لا فى غضب بل فى انكسار قلب ، فهو لم ينس أنه يهودى كان يود أن يبذل حياته ليجيء بإخوته اليهود للمسيح .

لم ينكر بولس أن اليهود شعب الله المختار ، وأن الله تبناهم شعباً له، وأعطاهم المواعيد والعبادة فى الهيكل والناموس، كما حل بمجده وسطهم . ومنهم آباء الإيمان لكن فوق الكل جاء منهم المسيح . أما مكانتهم الخاصة فى برنامج الله الخلاصى فهى محور حديث بولس ، ومنها يبدأ علاجه للمشكلة .

والفكرة الأولى التى يوردها بولس هى أن اليهود رفضوا المسيح وصلبوه ولكن ليس كلهم ، فإن بعضهم قبلوه وآمنوا به ، وقد كان أول أتباع يسوع يهوداً . وعندما ينظر بولس للتاريخ يرى أن ليس كل نسل إبرهيم « يهوداً » (أى ممدوحين من الله) ففى كل التاريخ كان الله يختار . وعلى هذا فقد قبل

بعض أبناء إبرهيم ورفض البعض الآخر . فمن نسل إبرهيم قبل اسحق ابن الموعد ، ورفض إسماعيل ابن الاستحسان البشرى . ومن نسل اسحق اختير يعقوب ورفض توأمه عيسو . وليس فى هذا الاختيار شيء من الاستحقاق ، ولم يكن حقاً كسبه الشخص المختار، لـكنه كان نتيجة اختيار وعمل حكمة الله وقوته .

ويوضح بولس أن الجماعة المختارة الحقيقية من إسرائيل لم تـكن أبداً كل الشعب ، بل فى مايسميه « البقية الأمينة » وهم العدد القليل الذى كان موالياً لله لما تنكر له الباقون . هكذا كان الحال زمن إيليا عندما أبقى الرب لنفسه سبعة آلاف شخص أمين ، بينما ظل الباقون وراء « البعل » . وهذا مايقوله إشعياء : « لأنه وإن كان شعبك يا إسرائيل كرمل البحر ، ترجع بقية منه » (إشعياء ١٠ : ٢٢ ، رومية ٩ : ٢٧) . وعلى هذا فلم يكن هناك وقت ابداً اختير فيه كل إسرائيل ، بل كانت هناك فقط « بقية مختارة » .

لـكن هل من العدالة ان يقبل الله البعض ويرفض البعض الآخر ؟ وإن كان الله يقبل ويرفض بعض الناس ، لا لصلاح أو خطأ فيهم ، فـكيف نلومهم على رفض المسيح وكيف نمدح الذين قبلوا ؟ هنا يستخدم بولس منطقاً لاندركه ، وربما يجعلنا نجفل ، فبولس يقول إن الله يفعل ماريد وليس للانسان الحق أن يسأل لماذا ؟ فإنه ليس من حق الخزف أن يسأل الفخارى وليس من حق المصنوع أن يسأل الصانع، فإن الفخارى يصنع من ذات المادة إناء لغرض شريف وإناء آخر لغرض حقير، دون أن يحق للأول أن يحتج. ويقتبس بولس كلام الله مع فرعون (رومية ٩ : ١٧) ويقول إن الله أقام فرعون فى هذه المرحلة من التاريخ ليجعله أمثولة لقوة الغضب الالهى . ولم يحدث مرة أن حذر الله شعبه من اختيار الأمم ومن رفضهم ، عندما أعلن على فم هوشع : «عوضاً عن أن يقال لهم :لستم شعبي، يقال لهم : أبناء الله الحي » (هوشع ١ : ١٠ ، رومية ٩ : ٢٥) .

ولـكن متى كان رفض إسرائيل أمراً عشوائياً بلا هدف ؟ لقد فعل الله هذا

بهدف دخول الأمم . لقد أغلق الله الباب أمام اليهود ليفتحه أمام الأمم . وما لم يغلق الله عيون اليهود وما لم يقس قلوبهم — كما فصـــل — ماحقق قصده فى إقبال الأمم إلى الإيمان . وهنا نرى المجادلة الغريبة ، فإن بولس يقول إن الله يفعل مايشاء مع أى أمة أو شخص ، فيغلق عيون اليهود مثلا ليفتح عيون الأمم .

ولـكن ماذا كانت غلطة اليهود الأساسية ؟ هذا سؤال يمليه علينا حب الاستطلاع بعد ماسمعناه هنا . إن بولس يقول : رغم أن رفض اليهود كان عمل الله ، فقد كان من الممكن أن لايحدث . إن بولس يواجه حقيقة حرية إرادة الإنسان . لقد كانت غلطة اليهود هى أنهم حاولوا الوصول إلى العلاقة السليمة مع الله عن طريق مجهوداتهم الإنسانية وطاعتهم للناموس، وحاولوا مستقلين أن يحصلوا على الخلاص .. أما الأمم فقد قبلوا عرض الله عليهم بثقة كاملة . وكان على اليهود أن يدركوا أن الطريق الوحيد لله هو طريق الإيمان ، أما المجهودات البشرية فلا جدوى لها . ألم يقل إشعياء : « من آمن لايهرب » وفى رومية « من يؤمن به لايخزى » (إشعياء ٢٨ : ١٦ رومية ١٠ : ١١) . ألم يقل يوئيل : « كل من يدعو باسم الرب ينجو » (يوئيل ٢ : ٣٢ ، ورومية ١٠:١٣) . صحيح أنه لايؤمن أحد ان لم يسمع ، ولـكن اليهود سمعوا ولـكنهم علقوا كل شىء على مجهوداتهم الشخصية وعلى أعمالهم ، وأهملوا طريق الإيمـــان الذى أعلنه النبي لهم .

ولـكن بولس يمضى ليقول إن هذا كله كان بترتيب من الله حتى يقبل الأمم وبعدها يحدث بولس الأمم طالباً ألا يفتخروا « إنهم كالزيتونة البرية التى طعمت فى حديقة زيتون ، فلم يصلوا إلى الخلاص بمجهودهم ، بل أنهم معتمدون على اليهود كأغصان مطعمة . أما الأصل والجذور فهم الشعب المختار . ولا يجب أن يفتخر الأمم على اليهود . فإذا افتخروا كان الرفض نصيبهم ! .

لكن هل هذه هى النهاية ؟ حاشا! إن الله يقصد أن يغير اليهود من صلة الأمم الجديدة به ، فيجيئون طالبين القبول . ألم يقل موسى : « أنا أغيرهم بما ليس شعباً . بأمة غبية أغيظهم » (تثنية ٣٢ : ٢١ ، رومية ١٠ : ١٩) . وفى النهاية يكون الأمم واسطة خلاص اليهود « وهكذا سيخلص جميع إسرائيل » (رومية ١٠ : ٢٦) .

والآن دعونا نلخص أفكار بولس ، بدون تشعب:

١ — إسرائيل شعب الله المختار .

٢ — الانضمام لإسرائيل ليس بالنسب الجسدى ، فقد اختار الله دوماً بعض نسل إبرهيم ، فكان المختارون هم « البقية الأمينة » .

٣ — ليس اختيار الله ظلماً لأن للرب الحق أن يفعل ما يشاء .

٤ — قسى الله قلب اليهود ليفتح الباب لدخول الأمم

٥ — كانت غلطة إسرائيل كامنة فى اعتماده على مجهوده البشرى فى طاعة الناموس ، ولكن الله يطلب الواثقين فيه ثقة كاملة .

٦ — لا يجب أن يفتخر الأمم ، لأنهم زيتونة برية طعمت فى الزيتونة الأصلية ويجب أن يذكروا هذا .

٧ — ليست هذه هى النهاية ، فإن اليهود سيغيرون من الامتيازات المعطاة للأمم ، وفى النهاية يكسبهم الأمم للمسيح .

٨ — وهكذا فى النهاية يخلص الجميع : الأمم وإسرائيل .

وتنتهى أفكار بولس بالتمجيد . بدأ بالقول إن البعض اختيروا للخلاص والبعض للرفض ، ولكنه ينتهى بالقول إن إرادة الله هى خلاص الناس جميعاً .

الفشل المحزن

أَقُولُ ٱلصِّدْقَ فِي ٱلْمَسِيحِ . لاَ أَكْذِبُ ، وَضَمِيرِي شَاهِدٌ لِي بِالرُّوحِ ٱلْقُدُسِ . إِنَّ لِي حُزْناً عَظِيماً وَوَجَعاً فِي قَلْبِي لاَ يَنْقَطِعُ . فَإِنِّي كُنْتُ أَوَدُّ لَوْ أَكُونُ أَنَا نَفْسِي مَحْرُوماً مِنَ ٱلْمَسِيحِ لِأَجْلِ إِخْوَتِي أَنْسِبَائِي حَسَبَ ٱلْجَسَدِ . ٱلَّذِينَ هُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ ، وَلَهُمُ ٱلتَّبَنِّي وَٱلْمَجْدُ وَٱلْعُهُودُ وَٱلاشْتِرَاعُ وَٱلْعِبَادَةُ وَٱلْمَوَاعِيدُ . وَلَهُمُ ٱلآبَاءُ ، وَمِنْهُمُ ٱلْمَسِيحُ حَسَبَ ٱلْجَسَدِ ٱلْكَائِنُ عَلَى ٱلْكُلِّ إِلٰهاً مُبَارَكاً إِلَى ٱلأَبَدِ آمِينَ .

(رومية ٩ : ١ — ٥)

شرح بولس فى هذه الفقرة سبب رفض اليهود للمسيح ، لا فى غضب بل فى حزن ، لا فى انتقاد جارح بل فى انكسار قلب . إن بولس يتشبّه بالإله الذى يحبه ويخدمه ، ولذلك كره بولس الخطية ولو أنه أحب الخاطىء . ولا يستطيع إنسان أن يخلص الناس إلا إذا أحبهم أولاً ، ولذلك فإن بولس لا يرى فى اليهود ما يستدعى الحقد ، بل ما يستحق المحبة الغافرة .

ويقول بولس إنه كان يود أن يكون محروماً من المسيح ليربح اليهود للمسيح . ولعل بولس رجع بفكره إلى ما فعله موسى عندما صعد إلى الجبل ليتلقى الوصايا من الله ، ولكن الشعب الذى كان قد تركه أسفل الجبل صنع عجلاً ذهبياً أخذ يسجد له . وغضب الله على الشعب ولكن موسى صلى صلاة عظيمة قال فيها :

« والآن إن غفرت خطيتهم ، وإلا فامحُني من كتابك الذى كتبت » (خروج ٣٢ : ٣٢) . وبولس يرضى بالحرمان لنفسه لو أن فى هذا خير شعبه ! والكلمة « محروم » هى أناثيما ، وهى كلمة لعنة ، لأن الشيء المحروم ممنوع ، ومعرض للهلاك . وقد قيلت عن المدن التى صدر ضدها حكم « التحريم » فيهلك شعبها ويفسد كل ما فيها (تثنية ٢ : ٣٤ ، ٣ : ٦ ، ويشوع ٦ : ١٧ ، ٧ : ١ ـ ٢٦) . وعندما يعرض أحدٌ إيمان الشعب وعبادته للخطر كان يُحكم عليه بالموت (تثنية ١٣ : ٨ ـ ١١) . ولقد كان أعز شيء عند بولس أن لا يفصله فاصل عن محبة الله ، ولكنه فى رغبته عمل أى شيء لخلاص إخوته ، يعرض نفسه للحرمان . وهنا يتضح لنا حق عظيم ، فإن الذى يريد أن يخلص خاطئاً يجب أن يحبه فعلاً . وعندما يخطىء ابن يحب الأب (أو الأم) أن يتحمل العقاب ، بدلاً من الإبن ، إن كان هذا ممكناً . وقد قال الشاعر ميرز على لسان بولس شعراً ترجمته : « إنّ شوقاً عظيماً ينبعث من قلبي ينادى كبوق قوى. يدعو هؤلاء للخلاص ، حتى لو هلكت أنا ! أموت ليحيوا ، مقدِّماً نفسى لأجلهم جميعاً » . هذا شعور بولس الذى استمدَّه من شعور الله . وهذا ما يجب أن يكون شعورنا .

ويعدد بولس بعد ذلك امتيازات اليهود :

١ — إنهم أولاد الله ، الذين اختارهم وتبناهم فى عائلته . « أنتم أولاد للرب إلهكم » (تثنية ١٤ : ١) ـ « أليس هو أباك ومقتنيك ؟ » (تثنية ٣٢ : ٦) ـ « إسرائيل ابنى البكر » (خروج ٤ : ٢٢) ـ « لما كان إسرائيل غلاماً أحببتُه ، ومن مصر دعوت ابنى » (هوشع ١١ : ١) . إن العهد القديم ملىء بفكرة التبنى هذه ، ويرفض إسرائيل المعنى الكامل للتبنى . حكى بورهام أنه عندما كان ولداً زار صديقاً له ، ولكنه مُنع من دخول إحدى الحجرات وذات يوم كان يمر أمام الحجرة عندما انفتح بابها ، فرأى بداخلها ولداً فى مثل عمره ، ولكنه معتوه ، ورأى أم الولد تذهب إلى ولدها . ولا بد أن الأم لاحظت بورهام فى صحته وعقله ، ولا بد أن المقارنة طعنت قلبها الحزين ، فركعت بجوار ابنها المعتوه ، وصرخت فى

حزن : « لقد أطعمتك وكسوتك وأحببتك ـ ولـكنك لم تشعر بى بالمرة » . لا بد أن مثل هذا الشعور كان عند الله من نحو إسرائيل ، ولو أن حالة إسرائيل كانت أردأ ، فقد رفضوا الله عن عمد وبإصرار .

٢ — كان لهم « المجد » . والمجد هو النور السماوى العظيم الذى كان يصحب حضـــور الله وسط شعبه (خروج ١٦ : ١٠ ، ٢٤ : ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ : ٤٣ ، ٣٣ : ١٨ ـ ٢٢) . لقد رأى إسرائيل مجد الله ومع ذلك رفضه . ونحن قد رأينا مجد الله وحبه فى وجه يسوع المسيح وما أشنع أن يختار إنسان طريق الأرض بعد أن يرى مجد الله .

٣ — كان لهم « العهود »، وهى العهود التى قطعها الله معهم وتصف كلمة معاهدة الفائدة المتبادلة بين الأمم ، وعهداً باستمرار الصداقة . وقد دخل الله فى عهود خاصة مع إسرائيل ، كررها عبر تاريخهم . دخـــل فى عهد مع إبرهيم واسحق ويعقوب ، وعلى جبل سيناء عندما أعطى الوصايا . ويبرز « إيريناوس » أربع مناسبات عظيمة لدخول الله فى عهد مع الناس . العهد الأول كان مع نوح بعد الطوفان ، وعلامته قوس قزح ، تعهد الله فيه أن لا يعود بغرق الأرض بالطوفان ، والعهد الثانى كان مع إبرهيم وعلامته الختان ، والعهد الثالث دخلت فيه الأمة عند جبل سيناء على أساس حفظ الناموس . أما العهد الرابع فهو العهد الجديد بالمسيح . وما أجمل أن نرى الله يتنازل ليدخل فى عهود مع البشر . إن الحق الواضح هو أن الله لم يهمل البشر أبداً، ولـكنه اقترب منهم مرة ومرات ، ولازال يقترب من الأفراد ، فهو واقف على الباب يقرع ، ومن المسئولية الـكبيرة علينا أن نقبل اقتراب الله منا باقتراب كامل نحوه !

٤ — كان لهم « الاشتراع » . وما كان لإسرائيل أن يدعى الجهل أبداً ، لأن الله كان قد أخبرهم بما يطلبه منهم وخطؤهم خطأ العارف لا الجاهل، وخطية العارف خطية ضد النور ، وهى أردأ الـكل !

٥ — كانت لهم « العبادة فى الهيكل » . والعبادة هى اقتراب النفس من الله ، وقد أعطى الله اليهود طريقة خاصة للاقتراب منه بالعبادة فى الهيكل . ولو أن باب العبادة أُغلق ، فقد أغلقه اليهود بيدهم !

٦ — كانت لهم « المواعيد » . كان إسرائيل يعرف مصيره ، فقد أخبرهم الله بالعمل والإمتيازات التى قصدها منهم ولكنهم خيبوا انتظارات الله فيهم .

٧ — « لهم الآباء » . كان لهم تاريخ وتُراث ، ولكنهم كانوا عاراً على تاريخهم وتُراثهم .

٨ — وفوق الكل جاء المسيح منهم. كان كل ما سبق إعداداً لهذه الخطوه ، ولكن عندما جاء رفضوه ! ومن المحزن أن يعطى أب ابنه كل ممكنات النجاح ، ويضحى ليعطى ابنه كل فرصة للصلاح ، ولكن الإبن فى حماقته وعصيانه يضيع كل شيء ! لقد خيب إسرائيل انتظارات الله وعمل محبته . وتكمن المأساة فى أن الله مضى يجهز إسرائيل ليوم مجيء ابنه ، ولكن كل التجهيزات اختلطت وضاعت ، لأن إسرائيل كسر ناموس الله واحتقر محبته. وبولس يتحدث عن هذا بانكسار قلب !

اختيار الله

وَلٰكِنْ لَيْسَ هٰكَذَا حَتَّى إِنَّ كَلِمَةَ اللهِ قَدْ سَقَطَتْ . لِأَنْ لَيْسَ جَمِيعُ الَّذِينَ مِنْ إِسْرَائِيلَ هُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ ، وَلَا لِأَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِ إِبْرٰهِيمَ هُمْ جَمِيعاً أَوْلَادٌ . بَلْ بِإِسْحٰقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ . أَىْ لَيْسَ أَوْلَادُ الْجَسَدِ هُمْ

أَوْلَادَ اللهِ بَلْ أَوْلَادُ الْمَوْعِدِ يُحْسَبُونَ نَسْلاً . لأَنَّ كَلِمَةَ الْمَوْعِدِ هِيَ هٰذِهِ . أَنَا آتِي نَحْوَ هٰذَا الْوَقْتِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ ابْنٌ . وَلَيْسَ ذٰلِكَ فَقَطْ ، بَلْ رِفْقَةُ أَيْضاً وَهِيَ حُبْلَى مِنْ وَاحِدٍ وَهُوَ إِسْحقُ أَبُونَا . لأَنَّهُ وَهُمَا لَمْ يُولَدَا بَعْدُ ، وَلاَ فَعَلاَ خَيْراً أَوْ شَرّاً . لِكَيْ يَثْبُتَ قَصْدُ اللهِ حَسَبَ الاخْتِيَارِ ، لَيْسَ مِنَ الأَعْمَالِ ، بَلْ مِنَ الَّذِي يَدْعُو . قِيلَ لَهَا إِنَّ الْكَبِيرَ يُسْتَعْبَدُ لِلصَّغِيرِ . كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ أَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ .

(رومية ٩ : ٦ — ١٣)

ما دام اليهود قد رفضـوا المسيح وصلبوه ، فهل تعطلت خطط الله ، وهل هُزمت مقاصده ؟ يقدم لنا بولس حجة على أن هذا لم يحدث فيقول إنه ليس كل اليهود رفضوا المسيح ، فقد قبله بعضهم . وقد كان تلاميذ المسيح الأولون من اليهود، وهم الذين بدأوا تبشير الأمم . وبولس نفسه يهودى . ويقول بولس إنه عندما ندرس التاريخ اليهودى نجد أن هناك اختياراً ، فلم يكن كل اليهود مختارين فى مقاصد الله . ولم يكن كل نسل إبرهيم أعضاء فى ملكوت الله . إذاً ليس الأمر فى الإنتساب لإبرهيم بالميلاد ، بل فى اختيار الله . وبرهاناً على هذا يقول بولس إن لإبرهيم ابنين ، إسمعيل ابن هاجر الجارية واسحق ابن السيدة سارة ، وكلاهما من نسل إبرهيم ولكن إسحق وُلد فى وقت متأخر لم يكن ممكناً فيه لأمه أن تلد . ولما وُلد إسحق سخر منه إسمعيل ، وتضايقت سارة ، فطلبت من إبرهيم أن يطرد الجارية وابنها حتى لا يرث مع ابنها إسحق . ولم يشأ إبرهيم

أن يطرد إسمعيل ، لكن الله طلب منه أن يطرده ، حيث أن إسحق هو ابن الموعد ، الذى سيحمل اسم إبرهيم (تكوين ٢١ : ١٢) . كان إسمعيل من نسل إبرهيم الجسدى ، أما إسحق فهو ابن الموعد الذى وُلد فى ظروف يستحيل فيها الإنجاب (تكوين ١٨ : ١٠ - ١٤) . وقد أعطى الله إسحق بنوية إبرهيم . إذاً ليس كل نسل إبراهيم مختارين . ويمضى بولس ليقدم مثلاً آخر . لما كانت رفقة حبلى كان فى بطنها طفلان . قال الله لها إنهما سيكونان أبوين لشعبين ، ولكن الكبير سيكون عبداً للصغير (تكوين ٢٥ : ٢٣) . وعندما وُلد عيسو أولاً وبعده يعقوب اختار الله يعقوب ، وكانت مقاصد الله ستتم فى نسل يعقوب . ولينهى بولس هذه المناقشة يقتبس ملاخى ١ : ٢ ، ٣ « أحببت يعقوب وأبغضت عيسو » . ومن هذا يتضح أنه ليس كل نسل إبرهيم مختارين من الله . وكان اليهودى الذى يسمع هذه المناقشة يقبلها بسرور . وقد كان إسمعيل أباً للعرب ، من نسل إبرهيم ، ولكن اليهود لم يقبلوا أبداً أن العرب من الشعب المختار ! وكان عيسو أباً للأدوميين ، وعيسو توأم يعقوب ، ولكن اليهود لم يقبلوا أبداً أن يكون الأدوميون من الشعب المختار ! وهكذا برهن بولس فكرته وهى أنه حدث اختيار من نسل إبرهيم . ويقول بولس إن هذا الاختيار لم يعتمد على أعمال المختارين أو استحقاقاتهم ، بدليل أن اختيار يعقوب ورفض عيسو حدث من قبل أن يُولدا ، ولا فعلا خيراً أو شراً . لقد حدث الاختيار وهما فى بطن رفقة !

وقد نجفل ونحن نقرأ هذه الفكرة ، لأنها تعلمنا أن الله يرفض بعض الناس ويقبل البعض الآخر . وقد نقول إن هذه المجادلة غير صحيحة لأنها تظهر الله مسئولاً عن عمل يصعب تبريره أخلاقياً . ولكن بالرغم من غرابة الفكرة علينا وصعوبة تقبلنا لها ، فإنها مجادلة مقبولة عند اليهودى . ونحن نرى فيها حقيقة لامعة .. إن كل شئ هو من الله ، وأن الله يقف من خلف كل الأحداث . حتى الأشياء الغامضة علينا ، فإن الله من خلفها .. ولا يتحرك شىء فى عالمنا بدون قصد أو هدف !

فَمَاذَا نَقُولُ . أَلَعَلَّ عِنْدَ اللهِ ظُلْمًا . حَاشَا . لأَنَّهُ يَقُولُ لِمُوسَى إِنِّي أَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ وَأَتَرَاءَفُ عَلَى مَنْ أَتَرَاءَفُ . فَإِذاً لَيْسَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلاَ لِمَنْ يَسْعَى، بَلْ لِلَّهِ الَّذِي يَرْحَمُ . لأَنَّهُ يَقُولُ الْكِتَابُ لِفِرْعَوْنَ إِنِّي لِهذَا بِعَيْنِهِ أَقَمْتُكَ لِكَيْ أُظْهِرَ فِيكَ قُوَّتِي وَلِكَيْ يُنَادَى بِاسْمِي فِي كُلِّ الأَرْضِ . فَإِذاً هُوَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُقَسِّي مَنْ يَشَاءُ .

(رومية ٩ : ١٤ — ١٨)

يجاوب بولس هنا على التساؤل الذى تسلل إلى أفكارنا . لقد قال بولس إن عملية الاختيار كانت موجودة فى كل تاريخ إسرائيل ، لا على أساس استحقاق الفرد أو عمله ، بل على أساس إرادة الرب وحدها . وهنا يسأل المعارض : « هل هذا عدل ؟ هل يختار الله الناس اعتباطاً » . ويجيب بولس بأن الله يفعل ما يحب أن يفعله ! فى أيام الإمبراطورية الرومانية لم تكن حياة أحد فى أمان ، بل كان أى إنسان يموت لمجرد إيماءة من الإمبراطور . وقد قال « جالبا » عندما أصبح إمبراطوراً : « الآن أقدر أن أفعل ما أشاء مع من أشاء » .

ويقدم بولس حادثتين لبرهنة هذه الفكرة ، مقدماً بعض الاقتباسات من العهد القديم . أما الحادثة الأولى فمأخوذة من خروج ٣٣ : ١٩ عندما طلب موسى من الله برهاناً على أنه مع شعب إسرائيل ، فأجاب الله أنه يرحم من يرحم ، فإن

اختيار هذه الأمة ورحمته عليها يتوقفان على إرادة الله فقط . أما الحادثة الثانية فهى من معركة الخروج من مصر والتحرر من سلطان فرعون . وعندما ذهب موسى لفرعون ليدعو لخروج شعبه ، حذر فرعون بأن الله جاء به إلى هذه الرحلة التاريخية ليُظهر فيه قوته ، وليبيّن ما تفعله هذه القوة للإنسان الذى يقاومها . وقد ظهر فرعون كأمثولة للشخص الذى يقاوم مشيئة الله (خروج أصحاحات ٩ ـ ١٦) .

وإن عقلنا ليجفل مرة أخرى من هذه الفكرة. من الصحيح أن الله يقدر أن يفعل كل شئ ، لكنه لا يفعل ما يتناقض مع طبيعته ، أو يكسر قوانينه . ومن الصعب علينا أن نرى الله يرحم البعض ولا يرحم البعض الآخر ، ومن الصعب أن نراه يقيم ملكاً ليجعله أمثولة لإظهار القوة الإلهية المنتقمة . ولكن هذه الأفكار التى أوردها بولس مقبولة تماماً للمفكر اليهودى !

ولكننا نواجه حقيقة لامعة . . إن الله لا يبنى علاقته بالناس على أساس « العدل » . وليس الله مديناً للإنسان بشئ ، فليس الخالق مديوناً لما يخلق . وعندما نفكر فى «العدل» نكتشف أن الإنسان لا يقدر أن يطالب الله بشئ ، لكن الإنسان يلقى بنفسه تماماً على مشيئة الله وعلى رحمته .

الخزاف والطير

فَسَتَقُولُ لِى لِمَاذَا يَلُومُ بَعْدُ ، لِأَنْ مَنْ يُقَاوِمُ مَشِيئَتَهُ بَلْ مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الَّذِى تُجَاوِبُ اللهَ . أَلَعَلَّ الْجِبْلَةَ تَقُولُ لِجَابِلِهَا لِمَاذَا صَنَعْتَنِى هٰكَذَا . أَمْ لَيْسَ لِلْخَزَّافِ سُلْطَانٌ عَلَى الطِّينِ أَنْ يَصْنَعَ مِنْ كُتْلَةٍ واحِدَةٍ إِنَاءً لِلْكَرَامَةِ وَآخَرَ لِلْهَوَانِ . فَمَاذَا إِنْ كَانَ اللهُ وَهُوَ

يُرِيدُ أَنْ يُظهِرَ غَضَبَهُ وَيُبَيِّنَ قُوَّتَهُ احْتَمَلَ بِأَنَاةٍ كَثِيرَةٍ آنِيَةَ غَضَبٍ مُهَيَّأَةً لِلهَلاَكِ . وَلِكَيْ يُبَيِّنَ غِنَى مَجْدِهِ عَلَى آنِيَةِ رَحْمَةٍ قَدْ سَبَقَ فَأَعَدَّهَا لِلْمَجْدِ . الَّتِي أَيْضاً دَعَانَا نَحْنُ إِيَّاهَا لَيْسَ مِنَ الْيَهُودِ فَقَطْ بَلْ مِنَ الأُمَمِ أَيْضاً . كَمَا يَقُولُ فِي هُوشَعَ أَيْضاً سَأَدْعُو الَّذِي لَيْسَ شَعْبِي شَعْبِي، وَالَّتِي لَيْسَتْ مَحْبُوبَةً مَحْبُوبَةً . وَيَكُونُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فِيهِ لَسْتُمْ شَعْبِي أَنَّهُ هُنَاكَ يُدْعَوْنَ أَبْنَاءَ اللهِ الْحَيِّ . وَإِشَعْيَاءُ يَصْرُخُ مِنْ جِهَةِ إِسْرَائِيلَ وَإِنْ كَانَ عَدَدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَرَمْلِ الْبَحْرِ فَالْبَقِيَّةُ سَتَخْلُصُ لأَنَّهُ مُتَمِّمُ أَمْرٍ، وَقَاضٍ بِالْبِرِّ . لأَنَّ الرَّبَّ يَصْنَعُ أَمْرًا مَقْضِيًّا بِهِ عَلَى الأَرْضِ . وَكَمَا سَبَقَ إِشَعْيَاءُ فَقَالَ لَوْلاَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى لَنَا نَسْلاً لَصِرْنَا مِثْلَ سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ

(رومية ٩ : ١٩ ـــ ٢٩).

تحدث بولس فى أول هذا الأصحاح عن أن الله كان يختار بعض نسل إبرهيم ، وليس كلهم . وهنا يثور اعتراض : على أى أساس إذن سيلوم الله الناس الذين رفضوه ؟ إن الخطأ ليس خطأهم ، لكن الله هو الذى لم يرحمهم . المسئولية ليست عليهم ، بل على الله ! ويجاوب بولس بأنه ليس من حق الإنسان أن يجادل

الله أو يجاوبه ، فإن الطين لا يقدر أن يحتج على عمل الفخاري ، فالخزاف سلطان كامل على الطين . إنه يقدر أن يعمل من قطعة الطين إناءً يستعمل في غرض عظيم ، ويعمل إناء آخر لغرض حقير ، دون أن يكون للطين حق الاحتجاج . وقد أخذ بولس هذا المثل من إرميا ١٨ : ١ ـ ٦ . وهنا تعليقان :

١ — هذا المثل لا ينطبق تماماً، وقد قال أحد كبار مفسري العهد الجديد إن هذه إحـــدى الفقرات القليلة التي ما كنا نحب أن بولس يكتبها ، فهناك فرق بين الإنسان البشري وبين الطين ، فإن للإنسان شخصية . أما الطين فإنه شيء ! وقد تفعل ما تشاء بالشيء ، لـكن ليس بالشخص . إن الطين لا يتجاوب ولا يستجيب ولا يفـكر ولا يتضايق ولا يتحير . فـكيف نقول للإنسان الذي يقاسي ويتحير أن يسكت لأن الله حر أن يفعل ما يشاء ، وأن لا حق له في الشكوى ؟ ! ليس هذا وصفاً لأب محب، لـكنه وصف لدكتاتور . ومن الواضح في الإنجيل أن الله لا يعامل الناس باعتبار أنهم طين بل باعتبار أنهم بشر . إنه الأب المحب الذي يراعي طفله .

٢ — أما التعليق الثاني فهو أن بولس وجد نفسه مضطراً ليقول هذا . ففي حزن قلبه رأى شعبه يرفضون المسيح ويصلبونه . ولذلك فإنه يرى أن الله أعمى عيون شعبه لغرض خاص في نفسه .

ولـكن بولس لا يتوقف هنا . إنه يمضي ليقول إن الله قد جعل من رفض اليهود باباً لدخول الأمم إلى الإيمان . لقد استخدم الله حالة سيئة ليخرج منها شيئاً صالحاً . غير أن بولس يقول إن الله أوجد حالة سيئة لينتج منها شيئاً صالحاً ! لقد رفض ، وقسّى ، وأعمى اليهود حتى ينتج صلاحاً هو قبول الأمم . ويجب ألا يغيب علينا أن بولس لم يـكتب عنا كلاهوتي ، بل كمحب غيور مكسور القلب على شعبه ، يحاول أن يجد تعليلا لما جرى لهم ! ولم يجد إلا التعليل أن الله هو الذي فعل هذا !

كان بولس يجادل اليهود ، وهو يعلم أن أكثر ما يقنعهم هو أن يقتبس لهم

من العهد القديم. وعلى هذا فقد اقتبس من كتابات التوراة مايبرهن أن رفض اليهود وقبول الأمم هو تحقيق لنبوات سبق أن تنبأ الأنبياء بها . فهوشع يقول إن الله سيدعو الذين ليسوا شعبه شعباً له (هوشع ٢ : ٢٣) كما سيدعوهم أبناء له (هوشع ١ : ١٠). واقتبس من إشعياء قوله إن بنى إسرائيل سيضلون لكن بقية قليلة تخلص (أشعياء ١٠ : ٢٢ ، ٢٣ ، ١٣ : ١٠) . إنه يقول إن الأنبياء تنبأوا برفض إسرائيل .

من السهل علينا أن ننتقد بولس ، ولكن يجب أن نذكر أن بولس فى حزنه على شعبه رأى أن كل شيء من عمل الله ، وليس هناك مزيد من شرح !

غلطة اليهود

فَمَاذَا نَقُولُ . إِنَّ الأُمَمَ الَّذِينَ لَمْ يَسْعَوْا فِي أَثَرِ الْبِرِّ أَدْرَكُوا الْبِرَّ . الْبِرَّ الَّذِي بِالإِيمَانِ . وَلٰكِنَّ إِسْرَائِيلَ وَهُوَ يَسْعَى فِي أَثَرِ نَامُوسِ الْبِرِّ لَمْ يُدْرِكْ نَامُوسَ الْبِرِّ . لِمَاذَا . لأَنَّهُ فَعَلَ ذٰلِكَ لَيْسَ بِالإِيمَانِ بَلْ كَأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ . فَإِنَّهُمُ اصْطَدَمُوا بِحَجَرِ الصَّدْمَةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ هَا أَنَا أَضَعُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ عَثْرَةٍ وَكُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُخْزَى .

(رومية ٩ : ٣٠ — ٣٣)

يشرح بولس فى هذه الفقرة المفارقة بين طريقتين للإحساس من نحو الله ، فقد أراد اليهودى أن يكون على صلة سليمة بالله عن طريق طاعة الناموس ، وهكذا يربح هذه الصلة . وقد اعتقد اليهودى أن حفظ الناموس يجمع له « رصيداً دائماً » . وعندما يضيف إلى هذا الرصيد يصبح الله مديوناً بأن يخلص اليهودى . كما ظن اليهودى أنه يكسب رضى الله بمجهوده البشرى . ولكن هذه كانت معركة خاسرة ، لأن عجز الإنسان لا يمكن أن يكسب رضى الله ، ولا يمكن لخطية الإنسان أن تقابل قداسة الله ، ولا يمكن لعمل يعمله الإنسان أن يحل محل ما يعمله الله . وهذا ما اكتشفه بولس ، وعلى هذا فهو يقول إن اليهودى قضى حياته يفتش على ناموس ينتج علاقة سليمة مع الله فى حالة طاعته ، ولكن مثل هذا الناموس غير موجود ! على أن الأمم لم يفتشوا عن مثل هذا الناموس ، ولكنهم واجهوا محبة الله العجيبة فى يسوع المسيح ، فألقوا بنفوسهم تماماً على هذه المحبة . وكأن الأمم الذين رأوا الصليب قالوا : « إن كان الله قد أحبنا هكذا ، فإننا يجب أن نسلِّم نفوسنا له » . أما اليهودى فقد فكر فى أن يداين الله ، وصدق أنه يكسب خلاصه بعمل خدمات لله. الأممى رأى دينه لله عظيما فاعتمد على نعمة الله ، أما اليهودى فرأى صلاحه عظيماً فاعتمد على نعمته الشخصية !

إنما أعمالنا كلها أقذار
ما بها تبر إذا صفيت بالنار !

وفى نهاية هذه الفقرة يتحدث بولس عن الصخرة ، وهى كلمة استعملها المسيحيون الأولون كثيراً . ونحن نجد فى العهد القديم إشارات غامضة كثيرة عن الصخرة . فى التكوين ٤٩ : ٢٤ يوصف الله بأنه الراعى والصخر . وفى إشعياء ٨ : ١٤ نرى الحديث عن الله كصخرة عثرة لبنى إسرائيل . وفى إشعياء ٢٨:١٦ يقول إنه سيؤسس فى صهيون حجر إمتحان، حجر زاوية كريماً، أساساً

مؤسساً . وفى دانيال ٢ : ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥ حديث عن حجر غريب . وفى مزمور ١١٨ : ٢٢ يتحدث عن الحجر الذى رفضه البناؤون ولكنه صار رأس الزاوية . وقد اقتبس المسيح هذه الكلمات فى مثل الكرامين الأردياء (متى ٢١ : ٤٢) . وهكذا اعتقد المسيحيون ، أن المسيح هو الحجر الكريم والأساس المؤسس الذى يربط البناء معاً ، الذى رفضه البناؤون ، لكنه صار الحجر الرئيسى . واقتباس بولس هنا مأخوذ من إشعياء ٨ : ١٤ ، ٢٨ : ١٦ . وقد قصد بولس أن يعلن لنا أن المسيح هو أساس حياة كل إنسان ، ولكن اليهود رفضوه عندما جاء ، فصار أساس خلاصهم أساساً لدينونتهم . وقد تكرر الحديث عن الصخرة والحجر فى أعمال ٤ : ١١ ، أفسس ٢ : ٢٠ ، ١ بطرس ٢ : ٤ ـ ٦ .

لقد جاء المسيح إلى العالم مخلصاً ، لكنه حجر الإمتحان لكل الناس ، فمن يحبه ويخضع له ويقبله ينال الخلاص ، ومن يرفضه ويثور عليه يهلك . وعلى هذا فإننا نجد فيه خلاصنا أو دينونتنا ، والأمر متوقف على قبولنا له .

الغيرة الخاطئة

أَيُّهَا الإِخْوَةُ إِنَّ مَسَرَّةَ قَلْبِي وَطِلْبَتِي إِلَى اللهِ لأَجْلِ إِسْرَائِيلَ هِيَ لِلْخَلاَصِ لأَنِّي أَشْهَدُ لَهُمْ أَنَّ لَهُمْ غَيْرَةً لِلهِ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ حَسَبَ الْمَعْرِفَةِ . لأَنَّهُمْ إِذْ كَانُوا يَجْهَلُونَ بِرَّ اللهِ وَيَطْلُبُونَ أَنْ يُثْبِتُوا بِرَّ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يُخْضَعُوا لِبِرِّ اللهِ . لأَنَّ غَايَةَ النَّامُوسِ هِيَ الْمَسِيحُ لِلْبِرِّ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ . لأَنَّ مُوسَى يَكْتُبُ فِي الْبِرِّ الَّذِي بِالنَّامُوسِ إِنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي يَفْعَلُهَا سَيَحْيَا بِهَا .

وَأَمَّا الْبِرُّ الَّذِي بِالْإِيمَانِ فَيَقُولُ هٰكَذَا لَا تَقُلْ فِي قَلْبِكَ مَنْ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ أَيْ لِيُحْدِرَ الْمَسِيحَ . أَوْ مَنْ يَهْبِطُ إِلَى الْهَاوِيَةِ أَيْ لِيُصْعِدَ الْمَسِيحَ مِنَ الْأَمْوَاتِ . لٰكِنْ مَاذَا يَقُولُ الْكَلِمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ فِي فَمِكَ وَفِي قَلْبِكَ أَيْ كَلِمَةُ الْإِيمَانِ الَّتِي نَكْرِزُ بِهَا . لِأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ خَلَصْتَ . لِأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمَنُ بِهِ لِلْبِرِّ وَالْفَمَ يُعْتَرَفُ بِهِ لِلْخَلَاصِ . لِأَنَّ الْكِتَابَ يَقُولُ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لَا يُخْزَى . لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْيَهُودِيِّ وَالْيُونَانِيِّ لِأَنَّ رَبًّا وَاحِدًا لِلْجَمِيعِ غَنِيًّا لِجَمِيعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهِ . لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ .

(رومية ١٠ : ١ ـ ١٣)

ذكر بولس فى الأصحاح التاسع حقائق سيئة عن اليهود ، ولا بد أن ماقاله كان قاسى الوقع عليهم ، فإن كل أصحاحات ٩ – ١١ إدانة لأفكار اليهود ولاتجاهاتهم الدينية . غير أننا نلاحظ أن بولس قال هذا كله بدون غضب ولا حقد ، بل بأسى وحزن ! لقد كان كل أمل بولس أن يخلص اليهود . ولو أردنا أن نربح الناس للمسيح لوجب علينا أن نكون فى مثل روح بولس . لقد عرف كبار الوعاظ هذا ،

فقال أحدهم: «لا توبخ، وتذكر دائماً أن تخفض صوتك» وقد عرَّف أحد أساتذة علم الوعظ المعاصرين الوعظ بأنه « مناشدة الناس » . ولقد بكى يسوع على أورشليم . هناك وعظ يوبخ الناس ويذبحهم بكلمات غاضبة ، ولكن بولس يعلن الحق دواماً فى محبة .

لقد اعترف بولس أن اليهود كانوا غيورين لله ، لكنه قال إن هذه الغيرة لم تكن حسب المنهج السليم ، ولم تكن حسب المعرفة . كان كل تفكيرهم يدور حول طاعة الناموس ، الأمر الذى يتطلب الإخلاص الكامل للدين ، فإن طاعة الناموس ليست سهلة، بل مكلفة ومتعبة. خذ مثلا وصية حفظ يوم السبت .. كانت هناك قوانين صارمة عن المسافة المصرح لليهودى أن يمشيها يوم السبت ، ولم يكن مسموحاً له أن يحمل حملا يزيد ثقله عن وزن تينتين جافتين ، وكان طبخ الطعام ممنوعاً . ولم يكن يسمح بعمل شئ يشفى المريض يوم السبت ، لكن يسمح فقط بما يسمح بعدم جعل حالة المريض أسوأ ! وحتى اليوم يحفظ اليهود الارثوذكس هذه القوانين ، فلا يشعلون ناراً ولا يضيئون الضوء الكهربائى ! فلو أنهم احتاجوا لإشعال النار كانوا أعمياً بإشعالها . والأغنياء منهم فقط يستأجرون من يضئ لهم النور الكهربى ويطفئه (بكبس زرار النور !) ونحن نضحك على هذا ونستغرب ، ولكن من جانبهم لم يكن حفظ الناموس أمراً سهلا ، ولم يكن أحد يحب أن يحفظه إلا إذا كان مخلصاً لديانته . لقد كان اليهود غيورين للناموس لكنهم لم يكونوا فاهمين لروح الناموس ! فى سفر المكابيين الرابع قصة غريبة عن الكاهن أليعازر الذى أحضروه أمام أنطيوخس أبيفانيس الذى أراد أن يمحو الديانة اليهودية . وأمر أنطيوخس الكاهن أن يأكل لحم خنزير ، فرفض الكاهن العجوز وقال : « نحن الذين نحيا تحت الناموس الإلهى لا نهتم بأى قانون آخر إلا قانون الله » ورفض أكل لحم الخنزير قائلا : « كلا ! حتى لو قلعت عينى أو أحرقت أمعائى فى النار . . فإذا مت فسيستقبلنى آبائى مقدساً وطاهراً » . وأمر أنطيوخس بضربه حتى مزقت السياط لحمه ، وغطاه الدم وبانت خاصرته ، فسقط . وركله جندى . ولكن الجند عطفوا عليه أخيراً وأحضروا له لحماً عادياً

ليأكله ويقول إنه لحم خنزير . لكنه رفض ، فقتل . وقال : « إنني أموت معذباً لأجل الناموس » . ولماذا كان كل هذا العذاب ؟ لأجل أكل لحم الخنزير! ويبدو غير قابل للتصديق أن يموت أحد لأجل قانون عدم أكل لحم الخنزير ! لقد كان اليهود غيورين بلاشك ! لقد ظنوا أنهم ينالون رضى الله بما يفعلون .

لقد طلب اليهود أن ينالوا العلاقة السليمة مع الله بطاعة الناموس . ويتضح هذا من تقسيمهم الناس إلى ثلاثة أنواع : « هناك الصالحون الذين ترجح كفة ميزان صالحاتهم ، وهناك الأردياء الذين ترجح كفة ميزان سيئاتهم ، وهناك المتوسطون الذين لو زادوا عملهم الصالح قليلا لصاروا من نوع « الصالحين » . ويتوقف هذا كله على طاعة الناموس . ويقول بولس إن المسيح هو غاية الناموس ، أى أنه أنهى المطالب الناموسية ، فلم تعد علاقة الإنسان بالله علاقة الدائن والمدين ، أو المشترى والبائع ، أو القاضى والمجرم . إن المسيح جاء ليقول لنا إننا غير مطالبين بمواجهة العدالة الإلهية ، لكن لنقبل محبة الله . إن الإنسان لايكسب رضى الله ، لكنه يقبل النعمة والرحمة والمحبة التى يمنحها الله للناس مجاناً .

ولكى يدلل بولس على هذه النقطة يقتبس اقتباسين من العهد القديم ، أولا من اللاويين ١٨ : ٥ حيث يقول إن من يحفظ وصايا الله يحيا بها ، ولكن بسبب الضعف البشرى لايوجد من يقدر أن يحفظ كل وصايا الله ! ثم يقتبس بولس التثنية ٣٠ : ١٢ ، ١٣ حيث يقول موسى إن وصايا الله ليست بعيدة عنا ، لكنها فى فم الإنسان وقلبه . ويقول بولس إن المسيح جاء إلى العالم وقام من الأموات بغير مجهود منا ، كما أنه ليس بمجهودنا أن نعمل الصالح . إن الله قد عمل هذا من أجلنا ، وما علينا إلا أن نقبله .

وتقدم لنا آيتا ٩ ، ١٠ العقيدة المسيحية الأساسية :

١ — يجب أن نعترف بأن يسوع رب ، وهو لقب المسيح الذى يعنى

(ا) الإحترام، كما نقول فى العربية « سيد ».(ب) كان لقب الإمبراطور الرومانى (جـ) كان لقب آلهة اليونان ، مثل « الرب سيرابيس » (د) وفى الترجمة اليونانية للعهد القديم كانت كلمة « رب » ترجمة لاسم الجلالة « يهوه ».وعلى هذا فإن تلقيب يسوع بالرب يعنى وضعه ليس فى نفس درجة الإمبراطور الرومانى وإله اليونان فقط ، بل فى نفس درجة الله . إننا نعطيه أعظم مكان فى حياتنا مع الطاعة والعبادة . إن يسوع وحده هو الذى يجب أن ينفرد بمحبتنا .

٢ - نؤمن أن يسوع قام من الأموات ، فالقيامة ركن هام من المسيحية . إن المسيحى لايؤمن أن يسوع قد عاش فقط بل إنه يحيا اليوم ، ولا يجب أن يعرف عن الله ، بل يعرف الله نفسه نحن لاندرس عن يسوع كشخص تاريخى، بل كوجود وكيان حى وموجود.لا يكفى أن نعرف عن ذبيحة المسيح، إذ يجب أن نعرف أيضاً « غزوات » المسيح ، فهو لم يكن شهيداً ، بل بطلا منتصراً .

٣ — لايكفى أن نؤمن بقلوبنا،بل يجب أن نعترف بأفواهنا،فالمسيحية إيمان وشهادة ، إيمان بالله وشهادة للناس . يجب أن نعلن عن الجانب الذى نقف فية .

ولقد كان صعباً على اليهودى أن يرى طريقاً آخر لكسب العلاقة السليمة مع الله (التى هى التبرير) خلاف طريق حفظ الناموس ، فكانت فكرة قبول مافعله الله لأجلنا صعبة عليه . كما كان صعباً على اليهودى أن يصدق أن الطريق إلى الله مفتوح للجميع ، فلم يقدر أن يرى أن الأممى يحتل مكانة مساوية له فى نظر الله . ويقتبس بولس إقتباسين من العهد القديم ليدلل على صدق كلامه . إنه يقتبس إشعياء ٢٨ : ١٦ « من آمن لايهرب » والموقف هنا ليس فيه « ناموس » بل « إيمان » . ثم يقتبس يوئيل ٢ : ٣٢ « كل من يدعو باسم الرب ينجو » . الكل مدعوون بدون تفريق بين يهودى وأممى .

وعلى هذا فإن بولس فى هذه الفقرة يدعو اليهود لهجر طريق الناموس وقبول طريق النعمة . إنه يشرح لهم أن غيرتهم قاتلة وضالة . وهو يدعوهم لما سبق الأنبياء وقالوه عن أن الإيمان هو الطريق الوحيد لله ، وأن هذا الطريق مفتوح للجميع .

تحطيم الأعذار

فَكَيْفَ يَدْعُونَ بِمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ . وكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِمَنْ لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ وكَيْفَ يَسْمَعُونَ بِلاَ كَارِزٍ . وكَيْفَ يَكْرِزُونَ إِنْ لَمْ يُرْسَلُوا . كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ مَا أَجْمَلَ أَقْدَامَ الْمُبَشِّرِينَ بِالسَّلَامِ ، الْمُبَشِّرِينَ بِالْخَيْرَاتِ . لَكِنْ لَيْسَ الْجَمِيعُ قَدْ أَطَاعُوا الإِنْجِيلَ . لأَنَّ إِشَعْيَاءَ يَقُولُ يَا رَبُّ مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا . إِذاً الإِيمَانُ بِالْخَبَرِ ، والْخَبَرُ بِكَلِمَةِ اللهِ . لَكِنَّنِي أَقُولُ : أَلَعَلَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا . بَلَى ! إِلَى جَمِيعِ الأَرْضِ خَرَجَ صَوْتُهُمْ وإِلَى أَقَاصِي الْمَسْكُونَةِ أَقْوَالُهُمْ لَكِنِّي أَقُولُ : أَلَعَلَّ إِسْرَائِيلَ لَمْ يَعْلَمْ . أَوَّلاً مُوسَى يَقُولُ أَنَا أُغِيرُكُمْ بِمَا لَيْس أُمَّةً . بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُكُمْ . ثُمَّ إِشَعْيَاءُ يَتَجَاسَرُ ويَقُولُ : وُجِدْتُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي ، وصِرْتُ ظَاهِراً لِلَّذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا عَنِّي . أَمَّا مِنْ جِهَةِ إِسْرَائِيلَ فَيَقُولُ : طُولَ النَّهَارِ بَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَى شَعْبٍ مُعَانِدٍ وَمُقَاوِمٍ .

(رومية : ١٠ — ١٤ : ٢١)

هذه الفقرة مكتوبة بطريقة تلغرافية ، يورد فيها بولس رؤوس المواضيع التي يكلم بها اليهود عادة ليكشف أخطاءهم ، وليقنعهم بها .

قال بولس فى الفقرة السابقة إن الطريق إلى الله ليس طريق الناموس أو الأعمال ، بل طريق الإيمان والثقة . وهنا يثور اعتراض : لكن اليهود لم يسمعوا هذه الفكرة بالمرة ؟ ويعالج بولس هذا الاعتراض هنا بطرق مختلفة مقتبساً نصاً كتابياً فى كل طريقة منها .

والآن لندرس الاعتراضات والردود عليها:

١ — الاعتراض الأول يقول : « إنك لا تقدر أن تدعو الله إلا إذا آمنت به ، ولا تقدر أن تؤمن به إلا إذا سمعت عنه ، ولا تسمع عنه حتى يعلن ذلك لك كارز . والكارز لا يعمل حتى يرسله الله مكلفاً إياه بأداء هذه الخدمة » .

ويرد بولس على هذا الاعتراض الأول باقتباس اشعياء ٥٢ : ٧ الذى نقرأ فيه الترحيب بالكارز وأخباره المفرحة ، وكأن بولس يقول : « لا تقدر أن تدعى ، أنه لم يكن هناك كارز ، لأن اشعياء منذ القديم يصف أولئك الكارزين » .

٢ - والاعتراض الثانى هو : « ولكن الحقيقة أن إسرائيل لم يطع الأخبار السارة ، فما قولك فى هذا ؟ » ويجاوب بولس : «لقد كنا نتوقع عصيان إسرائيل منذ القديم ، فإن اشعياء يقول فى يأس « من صدق خبرنا ؟ » (إشعياء ٥٣ : ١) صحيح أن إسرائيل لم يطع ، ورفض الأخبار السارة ، وها التاريخ يعيد نفسه ، فلا زالوا يرفضون .

٣ — أما الاعتراض الثالث فهو تكرار للاعتراض الأول « لكن ما رأيك لو رفضت فكرة أنهم سمعوا الخبر المفرح ، وأنه لم تسنح لهم الفرصة بالمرة ليسمعوا؟» ويجاوب بولس هذه المرة مقتبساً مزمور ١٩ : ٤ « فى كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم » . وكأنه يقول إننا لا يمكن أن نقول إنهم لم يسمعوا

لأن الكتاب يقول إن كلمة الله وصلت أقصى المسكونة ، فلا يقدر أحد أن يقول بأنه لم يسمع !

٤ — ويقول الاعتراض الرابع : « لقد سمعوا ولكنهم لم يفهموا » وكأن المعترض يقول : « إن الرسالة صعبة وغامضة ، فلما سمعها إسرائيل لم يفهمها ولم يهضمها » ويجاوب بولس على هذا الاعتراض بقوله إن الأمم فهموا وآمنوا ، مع أن الرسالة جاءتهم فجأة وعلى غير انتظار منهم . ويقتبس بولس برهاناً على قوله من التثنية ٣٢ :٢١ حيث يقول الله إنه سينقل فضله إلى شعب آخر لأن شعبه عصى ، وعلى هذا فإن إسرائيل سيغار من أمة لم تكن أمة الرب . أما الاقتباس الثانى فهو من اشعياء ٦٥: ١ حيث يقول الله إن أمة لم تكن تسمى باسمه قد عرفته .

ويختم بولس حديثه بالقول إن الله كان كل وقت يمد يده إلى إسرائيل الرافض المعاند.

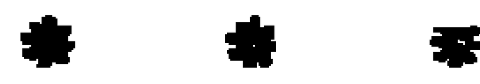
ونرى فى هذه الآيات تعليقاً على الجهل الذى لا مبرر له .

١ — هناك الجهل الناتج عن إهمال المعرفة . قد يكون الجاهل معذوراً ، لكن لا عذر لمن يهمل المعرفة . نحن لا نلوم من لم تسنح له فرصة المعرفة ، ولكننا نلوم من سنحت له الفرصة فرفضها وأهملها . نحن نلوم الذى يوقع على وثيقة دون أن يقرأها ، وعندما تنتج نتائج ضارة له نتيجة توقيعه على ما لم يقرأه فإنه لا يلوم إلا نفسه ! عندما لا نتسلح بالسلاح الذى عندنا نقع تحت طائلة العقاب ، وكل إنسان مسئول عن السقوط فى ما يعرفه ويعرف نتائجه .

٢ — هناك الجهل الناتج عن العمى المتعمد ، فإن لدى البشر مقدرة على إغلاق عيونهم عما لا يريدون معرفته وعلى سد آذانهم عما لا يريدون سمعه . قد يعرف إنسان أن صداقة أو ارتباطاً أو عادة أو فكرة مؤذية وتضره ، وقد نلفت نظره لذلك ، وقد يرى الأذى الذى أصاب آخرين نتيجة هذا الخطأ ، ولكنه رغم هذا

كله يرفض أن يطبق هذا على حالته الخاصة . ربما كان غلق العين عن شيء نافعاً أحياناً ، لـكنه مهلك في معظم الأحيان .

٣ — هناك الجهل الـكاذب ! فما أقل المرات التي يمكن أن نقول فيهـــا صادقين : « ما كنت أعرف أن هذا سينتج كل هذا الضرر » . إننا نكذب معظم المرات عندما نقول إننا لا نعرف ! لقد أعطانا الله الضمير ، وإرشاد الروح القدس. فـكيف نقول إننا لا نعرف !



تبقى حقيقة نضيفها إلى هذه الفقرة .. في كل ما فات يضع بولس المسؤلية على اليهود . كان يجب أن يعرفوا الأفضل .. لقـد مد الله يده لهم ، ولـكنهم عاندوا ورفضوا ! لقد قال إن كل شيء من الله ، وأن الإنسان يشبه الطين بيد الفخاري . وهو بهذا يضع أمامنا حقيقتين متلازمتين : الأولى أن كل شيء من الله ، والثانية أن كل شيء من الاختيار البشرى . ولا يحاول بولس أن يوفق بين الحقيقتـين ، لأنه لا يوجد توفيق ! هذه مشكلة الاختيار البشرى ومأزقه ، فإننا نعلم أن الله من وراء كل شيء ، ولـكننا في الوقت نفسه نعلم أن إرادتنا حرة ، وأننا قادرون على قبول ما يعرضه الله علينا كما أننا قادرون على رفضه . هذا هو التناقض الذي نواجهه في حياتنا كل يوم : الله يقبض على ناصية الأمور ، لـكننا أحرار في ما نختار! وقد ظهر هذا التناقض عندما عالج بولس المشكلة من الجانب الإلهى ، ثم من الجانب الإنساني !

فَأَقُولُ أَلَعَلَّ اللهَ رَفَضَ شَعْبَهُ . حَاشَا . لأَنِّي أَنَا أَيْضًا إِسْرَائِيلِيٌّ مِنْ نَسْلِ إِبْرٰهِيمَ مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ . لَمْ يَرْفُضِ اللهُ شَعْبَهُ الَّذِي سَبِقَ فَعَرَفَهُ أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ فِي إِيلِيَّا ، كَيْفَ يَتَوَسَّلُ إِلَى اللهِ ضِدَّ إِسْرَائِيلَ قَائِلاً : يَارَبُّ قَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ وَهَدَمُوا مَذَابِحَكَ ، وَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي ، وَهُمْ يَطْلُبُونَ نَفْسِي . لٰكِنْ مَاذَا يَقُولُ لَهُ الْوَحْيُ . أَبْقَيْتُ لِنَفْسِي سَبْعَةَ آلاَفِ رَجُلٍ لَمْ يَحْنُوا رُكْبَةً لِبَعْلٍ . فَكَذَلِكَ فِي الزَّمَانِ الْحَاضِرِ أَيْضًا قَدْ حَصَلَتْ بَقِيَّةٌ حَسَبَ اخْتِيَارِ النِّعْمَةِ . فَإِنْ كَانَ بِالنِّعْمَةِ فَلَيْسَ بَعْدُ بِالأَعْمَالِ . وَإِلاَّ فَلَيْسَتِ النِّعْمَةُ بَعْدُ نِعْمَةً . وَإِنْ كَانَ بِالأَعْمَالِ فَلَيْسَ بَعْدُ نِعْمَةً . وَإِلاَّ فَالْعَمَلُ لاَ يَكُونُ بَعْدُ عَمَلاً . فَمَاذَا . مَا يَطْلُبُهُ إِسْرَائِيلُ ذَلِكَ لَمْ يَنَلْهُ . وَلٰكِنِ الْمُخْتَارُونَ نَالُوهُ . وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَتَقَسَّوْا . كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ أَعْطَاهُمُ اللهُ رُوحَ سُبَاتٍ

وعُيُونًا حَتَّى لاَ يُبْصِرُوا وآذَانًا حَتَّى لاَ يَسْمَعُوا إِلَى هذَا الْيَوْمِ . ودَاوُدُ يَقُولُ لِتَصِرْ مَائِدَتُهُمْ فَخًّا وقَنَصًا وعَثْرَةً ومُجَازَاةً لَهُمْ . لِتُظْلِمْ أَعْيُنُهُمْ كَيْ لاَ يُبْصِرُوا ولْتَحْنِ ظُهُورَهُمْ فِي كُلِّ حِينٍ .

فَأَقُولُ أَلَعَلَّهُمْ عَثَرُوا لِكَيْ يَسْقُطُوا حَاشَا . بَلْ بِزَلَّتِهِمْ صَارَ الْخَلاَصُ لِلأُمَمِ لإِغَارَتِهِمْ . فَإِنْ كَانَتْ زَلَّتُهُمْ غِنًى لِلْعَالَمِ ، ونُقْصَانُهُمْ غِنًى لِلأُمَمِ ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ مِلْؤُهُمْ .

(رومية ١١ : ١ — ١٢)

عند هذا الحد من المناقشة يتبادر سؤال إلى الذهن : هل رفض الله شعبه ؟ هنا يعطى بولس جوابه معتمداً على فكرة وردت فى كل العهد القديم . ففى أيام إيليا ، داهمه اليأس (١ ملوك ١٩ : ١٠ ـ ١٤) لأنه ظن أنه هو الوحيد الذى يعبد الله بالحق ، ولكن الله أعلن له أنه مخطىء ، وأن هناك سبعة آلاف مؤمن مخلص فى إسرائيل لم يسجدوا للبعل . وقد استمرت فكرة « البقية » إذ أعلن الأنبياء أنه لم يكن هناك وقت خلت فيه الأمة من بقية أمينة للرب تعلقت به فى إخلاص وتكريس . ولقد ظل الأنبياء يعلنون هذا ، ففى عاموس نقرأ أن الله سيغربل بنى إسرائيل فى غربال حتى ينقى الصالحون فقط (عاموس ٩ : ٨ ـ ١٠) . وقد رأى ميخا الله يجمع بقية إسرائيل (ميخا ٢ : ١٢ و ٥:٣) . ويقدم صفنيا الفكرة نفسها (صفنيا ٣ : ١٢ ، ١٣) . ورأى إرميا ، جمع البقية من أمم الأرض التى تشتتوا بينها (إرميا ٢٣ : ٣) . وحزقيال الذى يرى أن كل إنسان مسئول عن نفسه يرى أن الأمناء يخلصون نفوسهم ببرهم

(حزقيال ١٤ : ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢) ونجد الفكرة نفسها تملأ أرجاء نبوة إشعياء ، حتى أنه يدعو ابنه « شآرياشوب » ومعناه « بقية سترجع » (إشعياء ٧ : ٣ ، ٨ : ٢ ، ١٨ ، ٩ : ١٢ ، ٢٠ : ٢١ ، ٦ : ٩ ـ ١٣) .

ويتضح هنا حق عظيم ، كما قال أحد المفسرين : « إن الله لا يخلص شعباً بالجملة » ولذلك فإن فكرة «الشعب المختار » تسقط هنا ! ان الصلة بالرب هي صلة شخصية ، فعلى كل إنسان بمفرده أن يعطى قلبه للرب ، ويسلم حياته بنفسه له والله لا يدعو جماعة بالجملة ، بل إن له طريقه الخاص إلى كل قلب . ولا يخلص إنسان لأنه ينتمي لأمة أو أسرة ، ولا لأنه يرث البر من آبائه ، ولكنه يخلص عندما يتخذ قراراً شخصياً بفتح قلبه للرب . وعلى هذا فلم تكن أمة إسرائيل بأسرها شعب الله ، بل كان الأفراد المؤمنون من رجال وسيدات هم أفراد شعب الله ، الذين فتحوا قلوبهم له وأطاعوه . انهم « البقية » المكرسة المخصصة لله من سيدات ورجال .

ومن هنا تجيء مجادلة بولس أن الله لم يرفض شعبه . لقد حصلت بقية حسب اختيار النعمة .

ولكن ماذا عن الباقين ؟ يقدم بولس فكرة يستمد فيها على آيات من العهد القديم ، يقول فيها إن الله سيوقع عليهم نوماً عميقاً ، حتى لا يسمعوا ولا يبصروا ! ويقدم آيات من التثنية ٢٩ : ٤ واشعياء ٦ : ٩ ، ١٠ ، ٢٩ : ١٠ ، ويقتبس مزمور ٦٩ : ٢٢ ، ٢٣ «لتصر مائدتهم فخاً » . والآية تصور شخصاً يأكل في أمان وسلام وفجأة يجيء عليه الخراب ، إذ يجده عدوه غير مستعد لمواجهته . وبولس يقول إن اليهود سعداء بنفوسهم ، وقد استراحوا إلى عملهم وظنوا نفوسهم في مأمن من غضب الله لأنهم شعبه المختار . لكن هذه الفكرة نفسها ستكون سبب خرابهم ، لأن اليوم المروع سيجيء عليهم فيحني ظهورهم ، فيتعثرون في الظلام ! ويقول بولس في الآية السابعة إنهم « تقسوا » وهي كلمة طبية تصف التصلب الناشيء عن

« الـكالو » . لقد نما « كالو » على قلب الناس ، ففقدوا الإحساس ، ولم يعودوا يميزون صوت الله أو يستجيبون لصوته ! وهذا يصدق على كل الناس ، فكل من ابتعد عن الرب لايعود يسمع صوته . وكل من ينشد غاياته الشخصية لايعود يشعر برعب الخطية ولا بجمال الصلاح . وكما ينمو « الـكالو » فى أصابع القدم هكذا ينمو على القلب . وهذا ماحدث مع معظم الاسرائيليين .

ولـكن بولس يمضى ليقول: إن الله أنتج شيئاً صالحاً من هذا « الـكالو » إذا انفتح الباب للأمم ليدخلوا إلى حظيرة الإيمان . فلما رفض إسرائيل رسالة الخلاص وصلت الرسالة إلى شعب يقبلها ويرحب بها ، وهكذا أغنى رفض إسرائيل العالم ! وهنا يقول بولس « إن كان رفض إسرائيل قد أغنى العالم ، أن فتح الباب للأمم ، فكم تكون البركة للعالم كله فى آخر الأيام عندما يتمم الله قصده ويقبل الأمم واسرائيل معاً إلى حظيرة الإيمان ؟

وهكذا يجىء الرجاء بعد المأساة ! لقد تقسى إسرائيل كشعب ، ورحب الأمم بالإيمان الجديد واثقين فى محبة الله .. ولـكن سيجىء اليوم الذى ستكون فيه محبة الله « دواء » للـكالو ؛ فيجتمع الأمم واليهود معاً داخل حظيرة المسيح ، فإن بولس واثق أن محبة الله لابد ستنتصر فى النهاية !

الزيتونة البرية : امتياز و تحذير

فَإِنِّى أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا الأُمَمُ . بِمَا أَنِّى أَنَا رَسُولٌ لِلأُمَمِ أُمَجِّدُ خِدْمَتِى . لَعَلِّى أُغِيرُ أَنْسِبَائِى وَأُخَلِّصُ أُنَاساً مِنْهُمْ . لأَنَّهُ إِنْ كَانَ رَفْضُهُمْ هُوَ مُصَالَحَةَ الْعَالَمِ ، فَمَاذَا يَكُونُ اقْتِبَالُهُمْ ، إِلاَّ حَيَوةً مِنَ الأَمْوَاتِ !؟

وإنْ كَانَتِ البَاكُورةُ مُقَدَّسَةً فَكَذَلِكَ الْعَجِينُ . وإنْ كَانَ الْأَصلُ مُقَدَّساً فَكَذَلِكَ الأغصَانُ . فإنْ كَانَ قَدْ قُطِعَ بَعْضُ الْأغصَانِ وأَنتَ زَيْتونَةٌ بَرِّيَّةٌ طُعِّمْتَ فِيهَا فَصِرْتَ شَرِيكاً فِي أَصْلِ الزَّيْتونَةِ وَدَسَمِهَا . فَلاَ تَفْتَخِرْ عَلَى الْأغصَانِ وإنِ افْتَخَرْتَ فَأَنتَ لَسْتَ تَحمِلُ الأَصْلَ ، بَلِ الأَصْلُ إِيَّاكَ يَحْمِلُ . فَسَتَقُولُ : قُطِعَتِ الْأغْصَانُ لِأُطَعَّمَ أَنا . حَسَنًا ؟ مِنْ أَجلِ عَدَمِ الْإِيمَانِ قُطِعَتْ وَأَنتَ بِالْإِيمَانِ ثَبَتَّ . لاَ تَسْتَكْبِرْ بَلْ خَفْ ! لِأَنَّهُ إنْ كَانَ اللهُ لَمْ يُشفِقْ عَلَى الأَغْصَانِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَعَلَّهُ لاَ يُشفِقُ عَلَيْكَ أَيضاً ! فَهُوَذَا لُطْفُ اللهِ وَصَرَامَتُهُ . أَمَّا الصَّرَامَةُ فَعَلَى الَّذِينَ سَقَطُوا ، وَأَمَّا اللُّطْفُ فَلَكَ إنْ ثَبَتَّ فِي اللُّطْفِ ، وَإلاَّ فَأَنتَ أَيضاً سَتُقْطَعُ . وَهُمْ إنْ لَمْ يَثْبُتُوا فِي عَدَمِ الْإِيمَانِ سَيُطَعَّمُونَ . لِأَنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُطَعِّمَهُمْ أَيضاً ، لِأَنَّهُ إن كُنْتَ أَنتَ قَدْ قُطِعْتَ مِنَ الزَّيْتونَةِ الْبَرِّيَّةِ حَسَبَ الطَّبِيعَةِ ، وَطُعِّمْتَ بِخِلاَفِ الطَّبِيعَةِ فِي زَيْتونَةٍ جَيِّدَةٍ ،

فَكَمْ بِالْحَرِيِّ يُطَعَّمُ هؤُلاءِ الَّذِينَ هُمْ حَسَبَ الطَّبِيعَةِ فِي زَيْتُونَتِهِمِ الْخَاصَّةِ .

(رومية ١١ : ١٣ - ٢٤ .

كان بولس يتحدث إلى اليهود ، وهو هنا يتجه بالحديث إلى الأمم . ولما كان هو « رسول الأمم » فهو لاينسى إرساليته . ويوضح أن هدفه هو إغارة اليهود عندما يكشف لهم مافعلته المسيحية للأمم ، فمن أكثر الوسائل فاعلية لجذب البعيدين عن المسيحية تعريفهم بما نفعله المسيحية . جرح أحد الجنود فى المعركة ، فزحف إليه قسيس الجيش وأخذ يقدم له كل معونة ممكنة . بقى إلى جواره عندما انسحب الجيش كله . فى حر النهار سقاه من ماء زمزميته بينما هو عطشان . وفى الليل ، عندما هبطت درجة الحرارة ، غطى الجريح بمعطفه ، ثم بمعظم ملابسه ليحميه من البرد . وأخيراً رفع الجريح عينيه وسأل : « هل أنت مسيحى ؟ » فأجاب القسيس : « إنى أحاول » . فقال الجريح : « إن كانت المسيحية تدفع الإنسان لخدمة الآخرين ، كما فعلت أنت بى ، فحدثنى عنها ، لأنى أريدها » . لقد حركت المسيحية العملية قلب الجريح ، ليغار وليطلب الايمان الذى انتج هذا الثمر . لقد كان بولس يصلى ويرجو أن يرى اليهود مافعلته المسيحية للأمم فيتحركون ليطلبوها لنفوسهم .

ويرى بولس أن مجىء اليهود سيجىء بالفردوس نفسه . لقد أنتج رفضهم البركة للأمم ، فأى مجد يكون للعالم لو أنهم قبلوا المسيح ؟! لقد كانت نتيجة رفضهم مجيدة ، ولا بد أن نتيجة قبولهم ستكون أمجد . انها ستكون مثل الحياة الناتجة عن الموت !

ويقدم بولس فكرتين ليبرهن أن رفض اليهود لن يكون نهائياً . الفكرة الأولى هى أن كل الطعام كان يقدس للرب ، فقبل أكله كان يقدم لله . وكان

الناموس يعلم أنه عند تجهيز العجين يرفعون أول قرص منه للرب ، حتى يتقدس العجين كله (العدد ١٥ : ١٩ ، ٢٠) . لم يكن ضرورياً أن يقدموا كل جزء من العجين للرب ، فالباكورة (أول الشيء) منه تكفي لتقدس الجميع ! وكان من المعتاد أن يزرع الناس أشجاراً مقدسة في الأماكن الموقوفة لله . وعندما كانت الشجيرة تزرع كانت تخصص للرب ، وهكذا كان كل غصن فيها يعتبر مقدساً لله . لم تكن هناك حاجة لتقديس كل غصن بمفرده، فإن تقديس الشجيرة يقدس كل غصن فيها . ويستنتج بولس من هذا أن كل الشعب مقدس لأن « الآباء » كانوا مقدسين، لأنهم سمعوا صوت الله وأطاعوه فصاروا مختاريه . وقد نبتت الأمة كلها منهم . وكما أن أول قرص يقدس العجين كله ، وكما أن تقديس الشجيرة يقدس الأغصان كلها، هكذا تقديس الآباء المؤسسين يقدس الأمة كلها بطريقة خاصة لله . والحق الواضح هنا هو أن « البقية الأمينة » لم يجعلوا أنفسهم أمناء ، ولكنهم أخذوا الإيمان عن الآباء ، وكل واحد منا يستمد غنى من الإيمان المسلم مرة للقديسين ، ومن التربية المسيحية في العائلة . وحتى لو ضللنا وجلبنا العار على تراثنا ، فإننا لا نقدر أن نعزل نفوسنا عن الصلاح الذي جعلنا في الحالة التي نحن فيها الآن .

ثم يقدم بولس فكرة أخرى . . كان الأنبياء قد شبهوا إسرائيل بزيتونة ، وهذا طبيعي لأنها شجرة هامة . فيقول إرميا « زيتونة خضراء ذات ثمر جميل الصورة ، دعا الرب اسمك » (١١ : ١٦) . ويقول هوشع : « تمتد خراعيبه ويكون بهاؤه كالزيتونة » (١٤ : ٦) . ويقول بولس إن الأمم أغصان من زيتونة برية طعمت في الزيتونة التي دعاها الرب . ويريد بولس أن يوضح أن الأمم كانوا ضالين في الصحاري ، ولكن نعمة الله طعمتهم في غنى وخصب زيتونة بستان الله !

ويذكر بولس أمرين يبنيهما على هذه الصورة :

١ — تحذير : فقد كان من السهل على الأمم أن ينموا الكراهية في نفوسهم من نحو اليهود . ألم يرفض الله اليهود ليدخل الأمم ؟ لقد كان يسهل على الأمم أن

يـكرهوا اليهود ، لأن كل الناس يـكرهونهم . ولـكن بولس يقول إنه ما كان يمكن أن تـكون هناك مسيحية لو لم توجد اليهودية أولا ، فقد نمت المسيحية من جذور اليهودية ، وليس من الواجب أن تنسى المسيحية دينها للجذور التى نبتت منها . إن الـكنيسة المسيحية مديونة لليهود ، ولن توفى الدين حتى تربح اليهود للمسيح . وعلى هذا فإن بولس يحذر الأمم من كراهية اليهود ، ويقول: إن كان الله قد قطع الأغصان الأصلية بسبب عدم الإيمان ، فإنه يقطع الأغصان المطعمة لو لم تـكن فى الإيمان .

٣ — أمل : لقد اختبر الأمم رحمة الله ، واختبر اليهود عقاب الله، ولواستمر الأمم فى الإيمان لاستمروا فى الرحمة ولو عاد اليهود إلى الإيمان لطعموا من جديد فى زيتونة الإيمان ، فإنه إن كان الغريب المؤمن قد وجد مكاناً فى الزيتونة بسبب إيمانه ، فبالأولى كثيراً يجد الأصل مكانه الأصلى لو عاد إلى الإيمان . إن بولس يحلم باليوم الذى فيه يعود اليهود إلى الإيمان الحق .

أن هذه الفقرة تكشف لنا الصلة بين المسيحية واليهودية.أنها الصلة بين القديم والجديد . لا يمـكن أن نرمى العهد القديم لأنه كتاب اليهود، فلا يجب أن يرفض إنسان السلم الذى ساعده على الارتقاع إلى المستوى الذى وصل إليه ، ومن الحماقة أن يقطع الغصن نفسه من الجذور ، فقد نما الإيمان الجديد من القديم . وستجىء النهاية التى يجتمع فيها الأمم واليهود داخل حظيرة الايمان ، وتـكون الزيتونة كلها واحدة متحدة الأغصان !

لكى يرحم الجميع

فَإِنِّى لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا ٱلإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا هٰذَا السِّرَّ . لِئَلاَّ تَكُونُوا عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ حُكَمَاءَ أَنَّ ٱلْقَسَاوَةَ قَدْ حَصَلَتْ جُزْئِيًّا لِإِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ مِلْؤُ ٱلأُمَمِ ، وَهٰكَذَا سَيَخْلُصُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ . كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ : سَيَخْرُجُ مِنْ صِهْيَوْنَ ٱلْمُنْقِذُ وَيَرُدُّ ٱلْفُجُورَ عَنْ يَعْقُوبَ . وَهٰذَا هُوَ ٱلْعَهْدُ مِنْ قِبَلِى لَهُمْ مَتَى نَزَعْتُ خَطَايَاهُمْ مِنْ جِهَةِ ٱلإِنْجِيلِ هُمْ أَعْدَاءٌ مِنْ أَجْلِكُمْ . وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلاِخْتِيَارِ فَهُمْ أَحِبَّاءُ مِنْ أَجْلِ ٱلآبَاءِ . لِأَنَّ هِبَاتِ ٱللهِ وَدَعْوَتَهُ هِيَ بِلاَ نَدَامَةٍ . فَإِنَّهُ كَمَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ مَرَّةً لاَ تُطِيعُونَ ٱللهَ ، وَلٰكِنِ ٱلآنَ رُحِمْتُمْ بِعِصْيَانِ هٰؤُلاَءِ ، هٰكَذَا هٰؤُلاَءِ أَيْضاً ، ٱلآنَ لَمْ يُطِيعُوا لِكَىْ يُرْحَمُوا هُمْ أَيْضاً بِرَحْمَتِكُمْ . لِأَنَّ ٱللهَ أَغْلَقَ عَلَى ٱلْجَمِيعِ مَعاً فِى ٱلْعِصْيَانِ لِكَىْ يَرْحَمَ ٱلْجَمِيعَ .

(رومية ١١ : ٢٥ — ٣٢)

هاهو بولس يقترب من نهاية مجادلته، بعد أن واجه اختباراً محزناً كسر قلبه ، فقد رفض شعبه ابن الله الذى أرسله الله مخلصاً للعالم . ولكن بولس يرى أن

هذا الرفض داخل فى تخطيط الله للعالم ، فإن هذا الرفض أنتج إقبال الأمم إلى الإيمان المسيحى . وقد مضى بولس ليقول إن الله هو الذى قسى قلب اليهود ليفتح الباب لدخول الأمم ، ولكن اليهود مسئولون لأنهم بإرادتهم الحرة رفضوا ابن الله ! وبولس يوضح لنا السلطة الإلهية والإرادة الحرة الإنسانية .

ولكنه لايتركنا هنا بل يعزف لنا لحن رجاء ، وهو أن الله سيرحم الجميع . فتعالوا ندرس ما قاله بولس :

١ — يرى بولس أن قساوة اليهود ليست عامة وليست دائمة ، فقد كانت لخدمة هدف خاص ، وستبطل بتحقيق هذا الهدف . لقد جاءت القساوة بهدف فتح الباب للأمم ليؤمنوا ، ومتى آمنوا تزال القساوة .

٢ — ويقدم بولس فكر الله من جهة اليهود ، فقد صاروا أعداء الله ، حتى يدخل الأمم ويتحقق تعميم رسالة الانجيل المفرحة للجميع . وكلمة « قساوة » تعنى مكروه ، أو كاره . وعلى هذا فإن بولس يقول إن اليهود كرهوا الله ورفضوا عرضه لهم ؛ فصاروا تحت غضبه . لكن الحقيقة التى لاتتغير هى أنهم شعب الله المختار ، وأن لهم مكانة خاصة عنده ، ومهما فعلوا فإن الله لا يغير مواعيده التى وعد بها آباءهم . وعلى هذا فإن رفض الله لهم لن يكون دائماً . ويقتبس بولس إشعياء ٥٩ : ٢٠ ، ٢١ لكى يبرهن كلامه . وعلى هذا فإن اليهود سيقبلون إلى الإيمان . الآن رفضوا ، فصار قبول الأمم ، لكنهم فى النهاية سينالون الرحمة .

٣ — ويقول بولس إن الله أغلق على الجميع معاً فى العصيان لكى يرحم الجميع . يقول بولس هنا إنه لايوجد إنسان يقدر أن ينال رحمة الله باستحقاقه . ولو أن اليهود نالوا الخلاص بطاعتهم لقالوا إنهم يستحقون الخلاص عن جدارة كجزاء على طاعتهم . وعلى هذا فقد اشترك اليهود فى العصيان ليكون الخلاص للجميع ثمر رحمة الله . إن اليهود والأمم لا يخلصون إلا برحمة الله .

أن بولس يعلن هنا أن الله يمسك بناصية الأمور وبزمام التاريخ ، فلا يتحرك شيء بدون هدف ، حتى المآسي كل شيء يخدم هدف الله النهائي ، بدون تشويش . يقال ان طفلا وقف في نافذة منزله ذات مساء ورأى العاصفة تعبث بكل شيء ، فقال : « يبدو أن زمام الريح قد أفلت من يد الله ! » . ولكن بولس لا يرى هذا أبداً ، فإن الناس والحوادث والأشياء في قبضة يده ، تخدم أهدافه العظيمة . ويقول بولس إن هدف الله هو الخلاص للجميع ، بل ان بولس يقول إن خلاص بعض الناس يكون ضد إرادتهم ! ألم يخلص هو بهذه الطريقة ، وهو يتجه نحو دمشق ؟! إن محبة الله تتابع الناس « لكي يرحم الجميع » .

إن حالة إسرائيل تشبه حالة الشاعر البريطاني فرانسس طمسون ، التي سجلها في قصيدته « المطارد السمرى » والتي قال فيها :

« لكم هربت منه ، بالليل والنهار
وكم ظلت عنه في ظلمة السنين
وكم ظلت أسعى في وحشة القفار
وفي ضباب دمعي وفي صدى الأنين
وفجأة سمعت خطوات أقدام
تسعى وتسعى خلفي بوقعها الرهيب
وفوقها يدوي في الليل والظلام
صوت يناجي نفسي بنغم عجيب :
هل تختفي ، هل تختفي عن عين فاحص جوهرك ؟
يامن رفضت طاعتي ، كل المخابيء تظهرك ! »

ويجيء الوقت الذي يضرب الله الهارب ، فيقول :

« وهكذا ارتميت أخيراً على الأرض

أمام عصا محبتك
فابتدأت تجردنى من دروعى التى أحتمى بها
فسقطت أمامك واهن القوى » :

ثم تجد النهاية :

أترى عمن تنقب أيها الأعمى الذليل ؟
أنا ينبوع اشتياقك آنا موضوع اجتهادك
ان تفسك نبعها منى ولن ترضى ابتعادك

(الشعر ترجمة الدكتور عزت زكى)

كانت هذه حالة إسرائيل الذى حارب معركة ضد الله ، ولا يزال يحارب حتى اليوم . ولكن محبة الله « المطاردة » تفتش عليهم . ومهما قلنا فى تفسير أصحاحات ٩ -- ١١ من رومية ، فإن قصة مطاردة المحبة لم يتم فصولا !

صرخة القلب العابد

يَالَعُمْقِ غِنَى ٱللهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ ٱلْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ ٱلِاسْتِقْصَاءِ . لِأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ ٱلرَّبِّ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيراً . أَوْ مَنْ سَبَقَ فَأَعْطَاهُ فَيُكَافَأَ . لِأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ ٱلْأَشْيَاءِ . لَهُ ٱلْمَجْدُ إِلَى ٱلْأَبَدِ . آمِينَ .

(رومية ١١ : ٣٣-٣٦)

يتحول اللاهوت هنا إلى شعر ! ويتحول التفكير العقلى إلى تمجيد للرب . ففى النهاية يصبح كل شيء سراً ، ولكنه سر المحبة ! فإذا قال إنسان إن كل شيء يجيء من الله ، وأن كل شيء هو بالله، وأن كل شيء ينتهى إلى الله ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ إننا نجد هنا سراً لقد أعطى الله الإنسان عقلا ومن واجب الإنسان أن يستعمل عقله إلى أقصى حدود استعمال ذلك العقل . ولكن العقل يتوقف عند حد محدود أحياناً ، فلا يبقى أمامه إلا الانبهار والإعجاب والتعبد .

لقد عالج بولس فى الأصحاحات ٩ — ١١ حقائق تكسر القلب ، لم يقدر عقله البشرى أن يجد لها حلا . ولكن بولس يقول إنه يترك الأمر كله لمحبة الله وقوته ، وكأنه يقول : « لقد فكرت ، ولكنى لا أرى السبب ولا الطريق . لا استطيع أن أفهم أفكارك يارب ، ولكنى بكل قلبي أثق فى محبتك . فلتكن مشيئتك » .

العبادة الحقيقية والتغيير اللازم

فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ عِبَادَتَكُمُ العَقْلِيَّةَ . وَلاَ تُشَاكِلُوا هٰذَا الدَّهْرَ . بَلْ تَغَيَّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ لِتَخْتَبِرُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللهِ الصَّالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْكَامِلَةُ .

(رومية ١٢ : ١، ٢)

يختم بولس رسالته بالجزء العملى التطبيقى الذى يلمس الحياة ، فقد يصبح

العقل فى محيط اللانهائى ، ولكن بولس ينتهى دوماً بقدمين ثابتتين على الأرض. إن بولس يصارع مع أعمق العقائد اللاهوتية، ولكنه ينتهى دوماً بمطالب الأخلاق التى تحكم حياة كل مؤمن .

« قدموا أجسادكم لله » . لم يكن اليونانى يقول هذا أبداً ، لأنه لم يكن يهتم إلا بالروح ، أما الجسد فهو كوخ ، بل هو سجن للنفس ، وعلى هذا فهو واجب الاحتقار وباعث على الخجل . ولكن المسيحى الحقيقى لا يرى هذا أبداً لأنه يؤمن أن جسده للرب كما أن روحه للرب ، وأنه يقدر أن يخدم الله بجسده كما يخدمه بعقله وروحه ، والجسد هيكل للروح القدس ، يسكنه روح الله ويشغله بل إن حقيقة التجسد تعنى أن الله لم يتردد فى أن يأخذ جسد إنسان ليعيش فيه ويخدم به . ولنأخذ مثلا من كنيسة : لقد بنيت لتجرى فيها عبادة نفس الانسان للرب، ولكن عقل مهندس وضع تصميمها ، كما أن أيدى العمال أقامتها . ولا تجرى فيها العبادة حتى تقيمها أيدى العمال . إنها إذاً إنشاء روح الانسان مع عقله وجسده .

وكأن بولس يقول: «قدموا أجسادكم، وكل عملكم اليومى، من روتين عادى، كعبادة للرب» . أما كلمة « عبادة » فلها تاريخ عظيم .لقد بدأت ككلمة تعنى « العمل لقاء أجر» وكانت تصف العامل الذى يعطى جهده للسيد لقاء الأجر الذى يقبضه . وهى لا تعنى العبودية ، لكن التطوع بالخدمة مقابل الجزاء . ولذلك أصبحت تعنى « خدمة » . وصار معناها « ما يعطى الانسان حياته كلها له » . فقد يعطى الانسان حياته كلها لخدمة الزراعة مثلا ، أى يخصص نفسه لهذا العمل . ثم تطور معنى الكلمة لتصير وصفاً لتقديم الخدمة للآلهة . أما استعمالها فى الكتاب المقدس فإنه عن الخدمة والعبادة لله وحـــــده ، وليس للبشر .

ونحن نرى هنا أن العبادة الحقيقية المقبولة هى تقديم الإنسان جسده وكل

عمله للرب . فليست العبادة الحقيقية تقديم الصلوات أو تلاوة الترانيم ، مع أن هذا عظيم، لـكنها «تقديم الحياة كل يوم للرب» أنها ليست فى الـكنيسة فقط، بل فى كل مكان ، حيث أن العالم كله هيكل للرب . العبادة الحقيقية إذن هى فى العمل اليومى كما قال الشاعر وتير ما ترجمته : « الذى يحب يسوع ويـكلمه ، تقبل عبادته ، إذ يرد الضال و يجبر الـكسير ويطعم اليتيم والأرملة » . قد يقول إنسان إنه ذاهب للـكنيسة للعبادة ، لـكنه يقدر أيضاً أن يقول إنه ذاهب للمصنع أو المتجر أو المدرسة أو المـكتب ليعبد الله .

ثم يطالب بولس بتغيير جذرى ، حتى لا نشا كل العالم (نصير مثله ، على شكله) والـكلمة « شكل » تعنى المظهر الخارجى الذى يتغير من سنة إلى سنة ومن يوم إلى يوم . فشكل الإنسان يتغير فى عمر ١٧ عنه فى عمر ٧٠ سنة ، كما يتغير مظهره إن كان ذاهباً إلى عمله أو إن كان مدعواً إلى حفلة . إن شـكله متغير باستمرار وبولس يقول : لا تغيروا حالـكم ليكون مثل العالم ، ولا تـكونوا كالحرباء التى تأخذ لونها من البيئة المحيطة بها . لا تسيروا مع العالم ولا تسمحوا له أن يحدد لـكم شكلـكم . أما كلمة «تغيروا» فهى تعنى تغيير الحالة الأساسية. فقد يتغير الإنسان فى عمر السبعين عنه فى عمر السابعة عشرة ، لـكن قلبه يبقى كما هو . إن مظهره وملبسه يتغيران ، لـكن قلبه يبقى . وعلى هذا فإن بولس يقول إننا يجب أن نتغير لـكى تكون عبادتنا مقبولة ، لا تغيير المظهر الخارجى ، بل تغيير القلب والشخصية . ولـكى نشرح هذا بلغة بولس نقول إننا عندما نحيا «حسب الجسد» تستعبدنا الرغبات الدنيا ، لـكننا فى المسيح نحيا «حسب الروح» يستعبدنا المسيح وروح الله . إن تغييراً أساسياً قد حدث ، يجعل الإنسان منا يحيا، لا حياة مركزها الذات ، بل حياة مركزها المسيح .

وهذا يحدث « بتجديد أذهانكم » . وهناك كلمتان يونانيتان عن الجديد ، واحدة عن الجديد فى الوقت ، والأخرى عن الجديد فى الطبيعة والشخصية . فالقلم الجديد جديد فى تاريخ إنتاجه ، أما الإنسان الجديد فهو الذى كان خاطئاً لـكنه الآن فى طريقه إلى القداسة . وعندما يجىء المسيح إلى حياة إنسان يجدده،

فيتغير مركز حياته ودوافعها، كما يتغير فكره إلى فكر المسيح . وعندما يصير المسيح مركز الحياة يمكن أن نقدم العبادة المقبولة؛ التي هي تقديم كل لحظة من حياتنا وكل عمل من أعمالنا لله .

الواحد للكل، والكل الواحد

فَإِنِّي أَقُولُ بِالنِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لِي لِكُلِّ مَنْ هُوَ بَيْنَكُمْ أَنْ لاَ يَرْتَئِيَ فَوْقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَئِيَ بَلْ يَرْتَئِي إِلَى التَّعَقُّلِ كَمَا قَسَمَ اللهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِقْدَاراً مِنَ الإِيمَانِ . فَإِنَّهُ كَمَا فِي جَسَدٍ واحِدٍ لَنَا أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ وَلَكِنْ لَيْسَ جَمِيعُ الأَعْضَاءِ لَهَا عَمَلٌ وَاحِدٌ . هَكَذَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ جَسَدٌ وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ وَأَعْضَاءٌ بَعْضًا لِبَعْضٍ كُلٌّ وَاحِدٍ لِلآخَرِ . وَلَكِنْ لَنَا مَوَاهِبُ مُخْتَلِفَةٌ بِحَسَبِ النِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لَنَا . أَنُبُوَّةٌ فَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الإِيمَانِ . أَمْ خِدْمَةٌ فَفِي الْخِدْمَةِ . أَمِ الْمُعَلِّمُ فَفِي التَّعْلِيمِ . أَمِ الْوَاعِظُ فَفِي الْوَعْظِ . الْمُعْطِي فَبِسَخَاءٍ . الْمُدَبِّرُ فَبِاجْتِهَادٍ . الرَّاحِمُ فَبِسُرُورٍ .

(رومية ١٢ : ٣—٨)

من التشبيهات الجميلة التي يستعملها بولس تشبيه الكنيسة بالجسد (قارن ١ كورنثوس ١٢ : ١٢ ـ ٢٧) . ذلك أن أعضاء الجسد الواحد لا تتحارب ، ولا

تتحاسد عن أهمية كل منها ، لـكن كل جزء يحمل مسئوليته مهما كانت متواضعة أو مختفية . ويرجو بولس أن تـكون الـكنيسة مثل الجسد ، فلـكل واحد عمل محدد ، وعندما يقوم كل واحد بعمله يكون الجسد كله سليما . وتقدم لنا هذه الفقرة تعاليم هامة للحياة :

١ ـ يجب أن نعرف نفوسنا ، كما كانت الحـكمة اليونانية القديمة تقول . ولا يمكن أن نتقدم فى العالم حتى نعرف ما نقدر أن نفعله وما لا نقدر عليه . ومن المهم جداً أن نعرف نفوسنا بدون مبالغة فى تقدير نواحى القوة أو نواحى الضعف فى نفوسنا .

٢ ـ يجب أن نقبل نفوسنا ، مستخدمين الوزنات التى منحها الله لنا ، دون أن نحسد الآخرين على وزناتهم ، ودون أن نتذمر على ما ليس عندنا من وزنات . علينا أن نقبل نفوسنا كما نحن ، مستخدمين ما عندنا . وهذا يعنى أن خدمتنا قد تـكون متواضعة أو غير منظورة . لقد كان الرواقيون يقولون إن بكل واحد منا قبساً من الله ، وكانوا يقولون إن الله يحيا فى كل كائن حى فى العالم إلى حـد ما . وكان البعض يضحـك على الرواقيين قائلين : « هل الله فى الديدان ؟ » فـكانوا يجاوبون : « لماذا لا ! ألا تحقق الديدان قصد الله ؟ » هل تظن أن « الفريق » هو وحده الجندى الصالح؟ ألا يدافع الجندى البسيط عن دولته حتى يضحى بحياته؟ انك ستجد السعادة عندما تخدم الله وتحقق مقاصده ، حتى لو كانت خدمتك بسيطة كالدودة » !

إن حياة العالم تتوقف على خدمات أبسط المخلوقات . ويريد بولس منا أن نقبل نفوسنا ، مهما كان عطاؤنا للعالم من حولنا بسيطة أو غير معترف به أو غير مشكور يجب أن نقدم خدمتنا للعالم عالمين أنها هامة ولازمة ، لا يستغنى العالم عنها .

٣ ـ كل ما عند الإنسان من عطايا هى عند الله ، دون أن نطلبها أو نربحها أو نستحقها ، أنها هدية شخصية بإنعام إلهى . وهذا ما نجده فى الحياة ، فقد يصرف إنسان عمره كله يتدرب على لعب البيانو لـكنه لا يلعب مثل رمزى يسى ، ذلك أن رمزى يسى يملك ما هو أكثر من التدريب ، فهو يملك الموهبة التى هى عطية الله وقد يصرف إنسان عمره يتدرب على أعمال الخشب والمعادن دون أن يجيدها ، بينما

يجيد غيره عمل أى شئ خشبى أو معدنى لأنه يملك الموهبة .. وهكذا فى الخطابة والتأليف والبناء والنحت والتمثيل والتعليم والرياضة ..إن الإنسان الذى يبرع فى هذه كلها مديون للموهبة التى أنعم الله عليه بها . إنها موهبة معطاة لا مكتسبة .

٤ ـ يجب أن يستخدم الإنسان موهبته ، لا بدافع الفائدة الأنانية ،بل بدافع تشغيل ما أعطاه الله له لخير الآخرين . والآن تعالوا ندرس المواهب التى يخصها بولس بالذكر هنا .

١ ـ موهبة النبوة وهى لا تعنى فى لغة العهد الجديد إعلان المستقبل ، بمقدار ما تعنى إعلان كلمة الله ، فالنبى فى العهد الجديد هو الذى يعلن رسالة الله بسلطان من يعرف . ولكى نعلن المسيح للآخرين يجب أن نعرفه أولاً ، لا معرفة نكسبها عن آخرين ، بل معرفة الاختبار الشخصى .

٢ ـ موهبة الخدمة ، فقد لا يقف إنسان بالمرة أمام الجمهور ليعظ ، لكن كل إنسان يقدر يومياً أن يظهر محبة المسيح فى حياته بخدمة الآخرين .

٣ـ موهبة التعليم،فرسالة المسيح لا تعلن فقط،بل تشرح أيضاً. ولربما كان أكبر خطأ ترتكبه الكنيسة اليوم هو أنها تدعو الناس للإيمان بالمسيح ، دون أن تشرح ما هو المقصود بهذا الإيمان ! إن الدعوة والحض على القبول بدون الشرح والتوضيح والتعليم أمر فارغ النتيجة .

٤ ـ موهبة الوعظ ، ومعناه التشجيع . هناك قانون فى البحرية البريطانية يقول إن الضابط لا يجب أن يعنف الجندى على خطأ ارتكبه لدرجة تبعث فى نفسه الفشل . هناك مواعظ تبعث اليأس فى النفس ، لكن الواعظ الحقيقى هو الذى يحول النظر إلى محبة الله وإلى أفراح الحياة مع المسيح .

٥ ـ موهبة العطاء ، والكلمة اليونانية تحمل معنى البساطة والكرم . وقد جاء فى كتاب عنوانه « عهد يساكر » القول : « لقد باركنى أبى لأنى سرت فى

طريق العطاء ببساطة ، لم أحسد جيرانى ولم أضايقهم . لم أمسك سيرة إنسان بالسوء ولكن كانت عينى بسيطة (معطية) .لقد قدمت للمحتاجين احتياجاتهم. والإنسان البسيط هو الذى لا يهتم باللحوم الغالية أو الملابس الثمينة أو العمر الطويل ، بل يهتم بإرادة الله فيسلك ببساطة (بالعطاء) » .

قد يعطى بعض الناس بعد الخوض فى حالة من يعطونه بنقد جارح ، أو قد يعطون لأنهم يريدون أن يشعروا بلذة التعالى فى العطاء . وقد يعطى البعض تحت الضغط ويتذمر . لكن العطاء المسيحى عطاء ببساطة وبسخاء وبفرح . على مثال عطاء المسيح لنا .

٦ ـ موهبة التدبير ويريدنا بولس أن ندبر الأمور التى توكل إلينا باجتهاد وغيرة . من مشاكل الكنيسة اليوم نقص القادة المدبرين ، فقليلون يخدمون ويحملون المسئولية بغيرة واجتهاد ، وقليلون مستعدون أن يعطوا خدمتهم فى وقت فراغهم . وقد يعتذر أحد عن كسله بأنه غير مستحق أو بأنه لا يعرف . لكن بولس يريدنا أن نقود الآخرين باجتهاد . وقد يرسل شيخ الكنيسة كارتاً إلى الأعضاء بالبريد ، لكنه قد يزورهم بنفسه ليعطيه لهم . وقد يجهز مدرس مدرسة الأحد الدرس تجهيزاً سريعاً كأداء واجب ، وقد يجهزه بكل قلبه وفكره . وقد يؤدى أحد الأعضاء خدمة الكنيسة بتذمر ، وقد يؤديها بكل سعادة وحماس . وتحتاج الكنيسة إلى قادة مدبرين متحمسين .

٧ ـ موهبة الرحمة : قد نسامح إنسانا بطريقة تحمل الشتيمة أكثر مما تحمل المحبة ، فقد نسامح مع إظهار روح التوبيخ والكراهية والنقد . فاذا رحمنا خاطئا لنذكر أننا نحن أيضا خطاة ، كما كان جورج ويتفيلد يقول عندما يرى مجرما : « هذا أنا ، لولا رحمة الله » ! هناك طريقة لإظهار الرحمة تدفع الإنسان إلى اليأس هناك طريقة أخرى تملأ نفس الذى ينال الرحمة بالرجاء . يجب أن تكون الرحمة بسرور المحبة ، لا بسرور التعالى !

الْمَحَبَّةُ فَلْتَكُنْ بِلاَ رِيَاءٍ . كُونُوا كَارِهِينَ الشَّرَّ . مُلْتَصِقِينَ بِالْخَيْرِ . وَادِّينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالْمَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ . مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فِي الْكَرَامَةِ . غَيْرَ مُتَكَاسِلِينَ فِي الاجْتِهَادِ . حَارِّينَ فى الرُّوحِ . عَابِدِينَ الرَّبَّ . فَرِحِينَ فِي الرَّجَاءِ . صَابِرِينَ فِي الضِّيْقِ . مُوَاظِبِينَ عَلَى الصَّلٰوةِ . مُشْتَرِكِينَ فِي احْتِيَاجَاتِ الْقِدِّيسِينَ . عَاكِفِينَ على إِضَافَةِ الْغُرَبَاءِ .

(رومية ١٢ : ٩ — ١٣)

يورد بولس هنا وصايا تلغرافية للحياة العادية فلنفحصها واحدة واحدة .

١ ـ يجب أن تكون المحبة مخلصة « بلا رياء » ، بلا تمثيل ولا أغراض أنانية فلا نحب بعين وننتظر الفائدة بالعين الأخرى ، فالمحبة المسيحية مطهرة من الإنانية ، خارجة من القلب ، نحو الآخرين .

٢ ـ يجب أن نكره الشر ونتعلق بالخير . وقد قيل إن ما يحفظنا من الخطية هو صدمتنا منها ، وقد قال كارلايل إن ما نحتاجه هو أن نرى جمال القداسة المطلق وشر الخطية الأبدى . ويستخدم بولس كلمات قوية هنا ، إذ يطلب أن نكره الشر ونلتصق بالخير والملاحظ أن بعض الناس لا يكرهون الشر بل يكرهون نتائج الشر ، ولكن لا يوجد إنسان صالح يقول إنه يخاف نتائج الشر فقط ! وقد قال الشاعر برنز ما ترجمته : « إن الخوف من الجحيم هو السوط الذى يحفظ البائس منتظما ولكن الشرف هو الذى يجب أن يجعلنا نلتزم حدودنا » . ليس الخوف من العار إذاً ، بل محبة الشرف تدفعنا إلى عمل الخير .

٣ ــ لنود بعضنا بعضا بالمحبة الأخوية ، وهى المحبة التى تسود العائلة لنحب بعضنا بعضا لأننا أعضاء عائلة واحدة لسنا غرباء عن بعضنا فى الكنيسة ولا يجب أن نحيا منعزلين ، فإننا إخوة لبعضنا ، وأبناء الأب الواحد ، ليست الكنيسة ملتقى المعارف والأصحاب، لكنها بيت عائلة الله !

٤ ــ لنقدم بعضنا بعضا فى الكرامة ، فمعظم مشا كل الكنيسة تجىء من طلب الحقوق والإمتيازات والمكانة ، فواحد يشكو من عدم إعطائه المكان المهم ، وآخر يشكو من الأهمال أو نقص التقدير ، وآخر يتذمر لأن غيره أعطى مكانا هاما على المنبر . ولكن لا زالت نعمة التواضع هى النعمة المطلوبة . يُحكى عن رجل عالم تقى اسمه كيرز كان يدخل قاعة مع بعض المشهورين متجهاً للمنبر . وعندما رآه الجمهور صفقوا طويلاً ، فدفع الشخص الذى يليه إلى أمامه ، وأخذ يصفق له ، لأنه من فرط تواضعه لم يظن أن التصفيق موجه له . إن الطبيعة الضعيفة فينا تطالب بالأمتيازات ، ولكن المسيحى يفكر فى واجباته قبل امتيازاته .

٥ ــ يجب أن نكون مجتهدين غيورين ، فلا يوجد مكان للكسل فى الحياة المسيحية ، لأن المسيحى يختار بين الحياة والموت ، والعالم بالنسبة له أرض معركة بين الخير والشر ، والوقت قصير ، والأبدية تقترب ! قد يحترق المسيحى من كثرة العمل ، لكنه لا يجب أن يصدأ من قلة العمل !

٦ ــ يجب أن نكون حارين فى الروح ، فكل من قام مع المسيح لا يمكن أن يكون بارداً ولا فاتراً (رؤيا ٣: ١٥ ، ١٦). وقد يكون الناس من حولنا غير مبالين ، ولكن المسيحى يبقى غيوراً ، والنار تشب فى عظامه فتملأه بالغيرة للمسيح .

٧ ــ عابدين الرب ، أى خادمين الرب ، منتهزين الفرصة لأداء كل خدمة له ، فإن الحياة تمنحنا الكثير من الفرص لنتعلم شيئاً جديداً ، أو لنتخلص من شىء خاطىء ، أو لنقول كلمة تشجيع . ومن مآسى الحياة أن نضيع الفرصة عندما تجىء ! وقد قيل إن ثلاثة أشياء تذهب ولا تعود : « السهم والكلمة التى تُقال ، والوقت الذى يمضى » فلنصرف كل فرصة فى عبادة الرب وخدمته .

٨ ـ فرحين فى الرجاء : عندما كان الإسكندر الأكبر يستعد لإحدى غزواته فى الشرق وزع هدايا كثيرة على أصحابه ، حتى كادت ثروته تنتهى ، فقال له أحد أصحابه : « إنك لم تبق شيئاً لنفسك » فقال الإسكندر : « لقد بقيت لى آمالى » . والمسيحى متفائل بطبعه ، ولما كان الله موجوداً فإن المسيحى يعلم أن أفضل الأشياء هى الآتية عليه . إنه يعلم أن نعمة الله تكفيه ، وأن قوة الله فى الضعف تكمل ، وأنه يستطيع كل شىء . وهو متأكد أن كل شىء صالح ممكن فى المسيح . لا يوجد يأس فى حياة المسيحى الحقيقى .

٩ ـ لنقابل الضيق بالصبر المنتصر . قيل لشخص متألم : « إن الألم يصبغ الحياة » فقال : « ولكنى أنا الذى أختار اللون ! » وعندما واجه بيتهوفن الصمم قال إنه سيمسك بزمام حياته ، وقد قال الشاعر وليم كوبر ما ترجمته : « إننا نتخلص من الحزن الحاضر ونقول بسرور : ليأت الغد المجهول بما يشاء ، فإن الله معنا مهما يكون ! » ، عندما ألقى نبوخذ نصر بشدرخ وميشخ وعبدنغو فى أتون النار لم يصبهم أذى ، لأن رابعاً كان يتمشى معهم فى النار (دانيال ٣ : ٢٤،٢٥) والمسيحى يواجه كل شىء بانتصار ما دام يسوع معه .

١٠ ـ لنواظب على الصلاة ، فلا يمكن أن يمضى يوم بعد يوم دون أن نتصل بالرب ، لأن الإنسان الذى يتعطل اتصاله بالرب تضعف قوته الروحية ، ولا يجب أن نستغرب إن فشل أحد لأنه يعتمد على قوته الذاتية وحدها

١١ ـ لنشارك المحتاجين . قد يتجه الناس نحو الأخذ ، لكن المسيحى يتجه نحو العطاء ، لأنه يعلم أنه « يخسر ما يحتفظ به ، لكنه يكسب ما يعطيه » .

١٢ ـ المسيحى يجتهد أن يضيف الغرباء ، ويكرر العهد الجديد فكرة باب البيت المسيحى المفتوح (١ تيموثاوس ٢ : ٣ ، تيطس ١ : ٨، عبرانيين ١٣ :٢، ١ بطرس ٤ :٩) . فلن يكون البيت الانانى سعيداً ، ولكن الديانة المسيحية هى ديانة الكف المبسوط والقلب المفتوح والبيت المضياف .

بَارِكُوا عَلَى ٱلَّذِينَ يَضْطَهِدُونَكُمْ . بَارِكُوا وَلاَ تَلْعَنُوا . فَرَحاً مَعَ ٱلْفَرِحِينَ وَبُكَاءً مَعَ ٱلْبَاكِينَ . مُهْتَمِّينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ٱهْتِمَاماً وَاحِداً غَيْرَ مُهْتَمِّينَ بِالأُمُورِ ٱلْعَالِيَةِ بَلْ مُنْقَادِينَ إِلَى ٱلْمُتَّضِعِينَ . لاَ تَكُونُوا حُكَمَاءَ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ . لاَ تُجَازُوا أَحَداً عَنْ شَرٍّ بِشَرٍّ . مُعْتَنِينَ بِأُمُورٍ حَسَنَةٍ قُدَّامَ ٱلنَّاسِ . إِنْ كَانَ مُمْكِناً فَحَسَبَ طَاقَتِكُمْ سَالِمُوا جَمِيعَ ٱلنَّاسِ لاَ تَنْتَقِمُوا لأَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا ٱلأَحِبَّاءُ بَلْ أَعْطُوا مَكَاناً لِلْغَضَبِ . لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ لِيَ ٱلنَّقْمَةُ أَنَا أُجَازِي يَقُولُ ٱلرَّبُّ . فَإِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ . وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ . لأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ هٰذَا تَجْمَعْ جَمْرَ نَارٍ عَلَى رَأْسِهِ . لاَ يَغْلِبَنَّكَ ٱلشَّرُّ بَلِ ٱغْلِبِ ٱلشَّرَّ بِالْخَيْرِ .

(رومية ١٢ : ١٤—٢١)

يقدم بولس هنا مجموعة قوانين تحكم علاقاتنا بالمحيطين بنا :

١ — يجب أن يقابل المسيحي مقاومية بصلاة مخلصة لأجلهم . ومنذ القديم

قال أفلاطون إن الرجل الصالح يحتمل الأذى ولا يفعله ، فمن الشر أن نكره الناس . وعندما يتألم المسيحى أو يظلم أو يساء إليه فإنه يتبع مثال فادية الذى صلى لأجل صالبيه . ولم يحدث أن قوة أثرت فى قلب الناس كما أثرت قوة غفران الشهداء المسيحيين لمضطهديهم وقاتليهم ، كما صلى استفانوس لأجل مضطهديه (أعمال ٧ : ٦٠) فرآه شاول وتأثر ثم تجدد وصار رسولا للأمم وعبداً للمسيح ، وقد قال اغسطينوس إن الكنيسة مديونة لصلاة استفانوس فى تجديد بولس الرسول . وكم من مضطهد قبل إيمان الشهداء عندما رآهم يغفرون إساءته .

٢ — علينا أن نفرح مع الفرحين وأن نبكى مع الباكين ، فلا توجد قوة كقوة المشاركة . ويقال إن سيدة أمريكية قابلت خادمة زنجية فقالت لها : « أنا حزينة ياعزيزتى أن العمة لوسى ماتت لابد أنك تفتقدينها كثيراً لأنها صديقتك » فقالت الزنجية : « صحيح أنى حزينة لأنها ماتت ولكننا لم نكن صديقتين » . فقالت السيدة : « كيف هذا ؟ لقد ظننتكما صديقتين ، لأنى رأيتكما تضحكان وتتكلمان معا مرات كثيرة » فقالت الخادمة الزنجية : « لقد ضحكنا وتكلمنا معاً ، لكن هذا مجرد تعارف ، فإننا لم نبك معاً . إن ذرف الدموع معاً يصنع الصداقة » . إن رابطة البكاء معاً قوية للغاية ، ولو أن البكاء مع الباكين أسهل من الفرح مع الفرحين . وقد كتب فم الذهب تعليقاً على هذه الآية قال فيه : « يتطلب الفرح مع الفرحين نعمة أكبر من النعمة التى يتطلبها البكاء مع الباكين ، فإن الطبيعة البشرية تبكى على المحزون ومعه ، أما الفرح مع الفرحان فيحتاج إلى نعمة حتى لا نحسده وحتى نشعر معه بسعادة نجاحه » . من الصعب أن نهنئ الناجح خصوصاً إن كان نجاحه يعنى فشلنا ، بينما من السهل أن نتعاطف مع الحزين . وعندما تموت الذات نقدر أن نفرح مع الآخرين فى فرحهم وكأنه فرحنا نحن .

٣ — يجب أن نحيا فى توافق معاً . بعد أن انتصر نلسون قال إن سبب نجاحه أنه كان « يقود مجموعة من الأخوة » . وعلى المسيحيين أن يعيشوا كإخوة

فى الكنيسة الواحدة ، لا تربطهم روابط « سياسة الكنيسة » بل السلام واللطف والصلاح . عندما يدخل النزاع فى أحسن المجتمعات يضيع الأمل فى إنجاز الأعمال الصالحة .

٤ — علينا أن نتحاشى الكبرياء والتعالى ، فعلينا أن نذكر أن المستوى الذى يدين به الناس الآخرين ليس هو المستوى الذى يدينهم الله به . ولا صلة للقداسة بالمركز العالى أو الثروة أو النسب ! صور أحدهم مشهداً جرى فى بدء انتشار المسيحية ، فقد تجدد وثنى ذو مركز عظيم ، وذهب لأول مرة إلى مكان اجتماع العبادة ، فأشار قائد الاجتماع إلى المكان « بل اجلس فى هذا المكان » فقال : « لا » ! ، ليس بجوار عبدى . . ولكن القائد كرر كلامه وقال له : « اجلس هنا من فضلك » فقال الرجل : « ولكنى لا أقدر أن أجلس فى هذا المكان لأنى سأجلس بجوار عبدى » فكرر القائد كلامه ، فسار الرجل إلى المكان ، وقبل عبده قبلة الأخوة . هذا مافعلته المسيحية ، وما كان غيرها يقدر أن يفعله ! كانت الكنيسة هى المكان الوحيد فى الإمبراطورية الرومانية التى يجلس فيها العبد إلى جوار سيده ، ولا تزال هى المكان الوحيد لذلك ، فحيث يوجد الله لا توجد محاباة بين الناس !

٥ — لكن ـلو كنا جميلا ليراه كل الناس ، فقد يكون ـلو كنا المسيحى سىء المنظر أمام الآخرين . بعض المسيحيين يعرضون إيمانهم بطريقة خشنة منفرة بعيدة عن المحبة ، ولكن المسيحية الحقيقية تسر الناظرين .

٦ — يجب أن نعيش بسلام مع كل الناس ، وبولس يضيف صفتين (أ) « إن كان ممكناً » فقد كان اللطف أحياناً يسبب كسر المبادىء ، وليست المسيحية تسامحاً مع الخطأ ، وقد يجىء وقت يضطر المسيحى فيه إلى خوض معركة من أجل المبدأ . (ب) « حسب طاقتكم » فإن بولس يرى أن حياة السلام ممكنة لبعض الناس أكثر منها للبعض الآخر ، وقد يستطيع إنسان أن يضبط أعصابه فى نصف ساعة أكثر مما يستطيع غيره أن يضبط أعصابه فى حياته كلها . ولا بد أن نعلم أن الصلاح

أسهل على بعض الناس منه على البعض الآخر . ولو وضعنا أمامنا هذه الفكرة لحفظنا أنفسنا من الانتقاد ومن اليأس .

٧ — يجب أن نحترس من كل انتقام . ويقدم بولس ثلاثة أسباب لذلك : (أ) ليس الانتقام لنا، بل للرب،فليس لانسان بشرى أن يحكم على الآخرين، ثم ينفذ الحكم . هذا شأن الله وحده (ب) لكى نكسب قلوب الناس يجب أن نسامحهم لا أن ننتقم منهم . قد يكسر الانتقام الكرامة ، لكن اللطف يكسر القلب . ويقول بولس إن اللطف سيجمع جمر نار على رأس العدو . وليس معنى هذا أن لطفنا سيزيد عقابهم ، لكن معناه أنه سيحرقهم من الخجل المحرق . (ج) أن الإنحدار للانتقام يعنى أن الشر قد هزمنا . فالشر لا يهزم الشر ، بل أن الكراهية تزيد الكراهية . لكن المحبة تعالج سم الكراهية . حسناً قال بوكر واشنطن : « لن أدع انسانا يجعلنى أخفض نفسى بأن أكرهه » . أن أفضل طريق لتحطيم العدو هو أن تجعله صديقاً .

المسيحى والدولة

لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ ٱلْفَائِقَةِ لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ ٱللهِ وَٱلسَّلاَطِينُ ٱلْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ ٱللهِ . حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ ٱلسُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ ٱللهِ وَٱلْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً . فَإِنَّ ٱلْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفاً لِلأَعْمَالِ ٱلصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ . أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ ٱلسُّلْطَانَ . اِفْعَلِ

الصَّلاحِ فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ . لأَنَّهُ خَادِمُ ٱللهِ لِلصَّلاحِ . وَلٰكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ فَخَفْ لأَنَّهُ لا يَحْمِلُ ٱلسَّيْفَ عَبَثًا إِذْ هُوَ خَادِمُ ٱللهِ مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ ٱلشَّرَّ . لِذٰلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ لَيْسَ بِسَبَبِ ٱلْغَضَبِ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا بِسَبَبِ ٱلضَّمِيرِ . فَإِنَّكُمْ لأَجْلِ هٰذَا تُوفُونَ ٱلْجِزْيَةَ أَيْضًا . إِذْ هُمْ خُدَّامُ ٱللهِ مُوَاظِبُونَ عَلَى ذٰلِكَ بِعَيْنِهِ . فَأَعْطُوا ٱلْجَمِيعَ حُقُوقَهُمْ . ٱلْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ ٱلْجِزْيَةُ . ٱلْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ ٱلْجِبَايَةُ . وَٱلْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ ٱلْخَوْفُ وَٱلإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ ٱلإِكْرَامُ .

(رومية ١٣ : ١ — ٧)

تتحدث هذه الفقرة عن الخضوع الكامل للسلطة المدنية ، وهى فكرة تغطى العهد الجديد كله ، فقد جاء « فأطلب أول كل شىء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس ،لأجل الملوك وجميع الذين هم فى منصب لكى نقضى حياة مطمئنة هادئة فى كل تقوى ووقار » (١ تيموثاوس ٢ : ١ ، ٢) كما جاء : « ذكرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح » (تيطس ٣ : ١) كما جاء : « فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب . إن كان للملك فكمن هو فوق الكل ، أو للولاة فكمرسلين منه للانتقام من فاعلى الشر وللمدح لفاعلى الخير ، لأن هكذا هى مشيئة

الله أن تفعلوا الخير فتسكّتوا جهالة الناس الأغبياء أكرموا الجميع. أحبوا الأخوة. خافوا الله. أكرموا الملك » (١ بطرس ٢ : ١٣ - ١٧) . وقد نقول إن هذه الآيات قيلت فى وقت لم تكن فيه الإمبراطورية الرومانية قد بدأت اضطهاد الكنيسة ، ففى سفر الأعمال نجد أن المحكمة الحكومية كانت الملاذ الذى احتمى به الرسل من الجمهور اليهودى الثائر ، وقد وجد بولس الأمن والحماية عند ولاة الرومان . ولكن الغريب أنه بعد ذلك بعدة قرون ، عندما اشتعل الاضطهاد الرومانى ضد الكنيسة ، ظل قادة الكنيسة يقولون الشىء نفسه ، فيقول جستن مارتر : « فى كل مكان ، قبل كل الناس ، يجب أن نكون مستعدين لندفع الضرائب العادية وغير العادية كما علمنا يسوع . إننا نعبد الله وحده لكننا فى أشياء كثيرة نخدمكم أنتم ، معترفين بكم كحكام وقادة الشعب ، مصلين أنكم بسلطانكم الملكى تحكمون الأحكام العادلة » . وأثينا جوراس يطلب السلام للمسيحيين فيكتب : « نحن نستحق المعاملة الحسنة لأننا نصلى لأجل حكومتكم ، وأن تتسلموا الحكم ، ابناً عن أب ، وأن تنمو المملكة تحت حكمكم حتى يصير كل الناس خاضعين لمملكتكم » . ويكتب ترتليان مطولاً قائلاً : « نحن نصلى لأجل سلامة الأمراء إلى إلهنا الأزلى الحقيقى الحى ، الذى يخص البشر بعطاياه ، ونصلى بلا انقطاع لأجل أباطرتنا طالبين الحياة الطويلة وسلامة الإمبراطورية وحماية البيت الإمبراطورى وبسالة لجيوشنا ، وأمانة لنوابنا ، وفضيلة لشعبنا وراحة لعالمنا » . ويمضى ترتليان ليقول إن المسيحى يتطلع إلى الإمبراطور لأنه يؤمن أن الإمبراطور « مدعو من الله لوظيفته » . ويختم حديثه بالقول : « إن قيصر لنا أكثر مما هو لكم ، لأن إلهنا هو الذى عينه » . ويقول أرنوبيوس إن المسيحيين فى اجتماعاتهم يدعون الله لطلب السلام والغفران لكل من هو فى منصب . وهكذا علمت الكنيسة دوماً ضرورة الطاعة والصلاة للملوك والولاة ، حتى أثناء حكم الطاغية نيرون . فما هو الفكر خلف هذا كله ؟

١ — هناك سبب قوى خاف طلب الطاعة . كان اليهود بطبعهم ثائرين ، وكانت فلسطين كلها ، وخصوصاً الجليل ، موضع الثورات ، وكان منهم طائفة الغيورين الذين آمنوا أن الله وحده هو ملك اليهود ، وأنهم يجب ألا يدفعوا مالاً إلا للرب وحده ، ولم يكونوا يقبلون شيئاً مثل المقاومة الإيجابية ، بل كانوا يعتقدون أن الله لن يساعدهم حتى يحاربوا هم لمساعدة أنفسهم ، وهكذا خصصوا أنفسهم لحياة القتل حتى تفشل الحكومة القائمة من كثرة هجماتهم الإرهابية المتعصبة . ولم يكتف أولئك الغيورون بمهاجمة القوات الحكومية ، بل هاجموا وقتلوا وأحرقوا بيوت إخوتهم اليهود الذين كانوا يدفعون الجزية لقيصر . ولم يوافق بولس على هذا كله ، إذ رأى فيه التناقض الكامل مع المبادىء المسيحية . ولعل بولس كتب هذا ليظهر أن لا علاقة للمسيحية بهذا الإرهاب اليهودى ، وأن المسيحية والمواطنة الصالحة أمران متلازمان .

٢ — ولكن هذه المبادىء دائمة ، ولا تعالج الحالة العاجلة الآنية التى واجهها بولس فقط . فبولس يرى أن المسيحى لا يقدر أن يعزل نفسه عن مجتمعه الذى يحيا فيه ، فإن ضميره يكشف له أنه يستفيد بالكثير من مجتمعه ، ولا يُعقل أن المسيحى يتمتع بالإمتيازات ثم يتقاعس عن القيام بالواجبات . وكما أن المسيحى عضو فى الكنيسة فهو عضو فى مجتمعه ، فلا يوجد فرد منعزل عن مجتمعه . وعلى المسيحى أن يؤدى واجبه للدولة ، حتى إن كان « نيرون » على رأسها .

٣ — إن الإنسان مدين بسلامته للدولة ، فقد نادى أفلاطون بأن الدولة تحيا لأجل العدالة والأمن ، فتحمى المواطن من الوحوش ومن الناس المتوحشين . والدولة هى جماعة من الناس ارتبطوا معاً متعاهدين على حفظ صلاتهم معاً باتباع قوانين خاصة . وبدون هذه الاتفاقات والقوانين يسيطر الأقوياء على الجماعة ويظلمونها ، ويُضغط الضعفاء يائسين ، وتسيطر شريعة الناب ! وعلى هذا فإن كل واحد منا مدين للدولة ، وعليه واجبات ومسئوليات من نحوها .

٤ — والمواطن العادى مديون للدولة بخدمات لا يقدر أن يتمتع بها لو كان وحيداً ، فلا يستطيع إنسان بمفرده أن يدبر لنفسه الماء والمجارى والمواصلات ، والخدمات الصحية والمدنية والتأمينية ، فإن هذه كلها نتيجة تعاون الناس . ومن العار أن يستفيد الإنسان بالخدمات التى تؤديها الدولة له دون أن يتحمل مسئولياته من نحوها ! وهذا ما يحض المسيحى على أن يكون مواطناً صالحاً ، متحملاً كل مسئولياته .

٥ — ويرى بولس أن الإمبراطورية الرومانية هى واسطة الله لتخليص العالم من الفوضى ، فلو أن هذه الإمبراطورية انفرطت لذهب العالم دويلات صغيرة . وقد أعطى السلام الرومانى للكارز المسيحى فرصة الكرازة . وبولس يرى الدولة آلة فى يد الله تحفظ نظام العالم ، كما نرى فى حكام الدولة من يقومون بحفظ هذا النظام . وسواء عرفوا أم لم يعرفوا فإنهم يقومون بالعمل الذى كلفهم الله به ، وعلى المسيحى أن يساعدهم ، لا أن يعطلهم !

(تفسير الآية السابعة فى بداية الفقرة التالية) .

الدين الذى يجب أن يوفى
والدين الذى لا يمكن أن يوفى !

لاَ تَكُونُوا مَدْيُونِينَ لأَحَدٍ بِشَيْءٍ إِلاَّ بِأَنْ يُحِبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضاً . لأَنَّ مَنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ فَقَدْ أَكْمَلَ النَّامُوسَ . لأَنَّ لاَ تَزْنِ لاَ تَقْتُلْ لاَ تَسْرِقْ لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ لاَ تَشْتَهِ وَإِنْ كَانَتْ وَصِيَّةً أُخْرَى هِيَ مَجْمُوعَةٌ

فِي هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ أَنْ تُحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ . اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَصْنَعُ شَرًّا لِلْقَرِيبِ . فَالْمَحَبَّةُ هِيَ تَكْمِيلُ ٱلنَّامُوسِ .

(رومية ١٣ : ٨ ـ ١٠)

يمكن أن نقول إن الفقرة الأولى من هذا الإصحاح تحدثت عن الدين العام ، فتقول الآية السابعة إن هناك الجزية وإن هناك الجباية ، فأهل البلاد الواقعة تحت الحكم الأجنبي يدفعون الجزية . وقد طالب الرومان البلاد التي حكموها بثلاثة أنواع من الجزية ، فهناك جزية الأرض ، وهي دفع عشر إيراد الغلال، سواء كان الدفع غلالاً أم فضة ، ودفع خمس إيراد الكروم وأشجار الفواكه . وكانت هناك جزية المكسب، وهي عشر دخل الفرد . وكانت هناك جزية الرأس التي يدفعها كل شخص من عمر ١٤ سنة إلى ٦٥ سنة . أما الجباية فهي الضريبة المحلية على البضائع واستعمال الطرق وعبور الكباري (الجسور) أو دخول الأسواق والموانىء ، أو شراء حيوان أو حيازة عربة . وبولس يريدنا أن ندفع هذا الدين العام من ضرائب مختلفة .

ويمضي بولس للحديث عن الديون الشخصية فيقول : « لا تكونوا مديونين لأحد بشيء » . وقد تبدو هذه الوصية واضحة ، لكن بعض الناس فسروا طلبة الصلاة الربانية : « كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا » بأنها إعفاء كامل من كل الديون . وبولس يوضح أن المسيحية ليست هروباً من مسئولياتنا نحو المحيطين بنا ، لكنها تعني حمل مسئولياتنا من نحوهم إلى أقصى حدود الإحتمال .

ثم يتحدث بولس عن دين واجب الأداء كل يوم ، ومع ذلك يظل دوماً ديناً واجب الأداء . هذا الدين هو أن نحب بعضنا بعضاً . قال أوريجانوس : « سنبقى مديونين بالمحبة دائماً . هذا هو الدين الذي يجب أن ندفعه كل يوم إلى الأبد » . فإذا أراد أحد أن يسدد هذا الدين فعليه أن يحفظ الوصايا ، التي تتلخص

فى المحبة ، فإذا سدد إنسان دين المحبة فهو لن يزنى . فإذا ترك شخصان لنفسيهما العنان ليقعا فريسة شهواتهما الجسدية فإنهما لا يكونان محبين لبعضهما كثيراً . . بالعكس . . فإن محبتهما قليلة ، لأن المحبة الكبيرة تنقذ الآخرين من الخطأ . وإذا سدد أحد دين المحبة فهو لا يقتل ، لأن المحبة تبنى ولا تهدم حياة الناس ، وهى لا تبغض بل ترحم . والمحبة لا تدمر العدو بالقتل بل تربحه باللطف . والذى يسدد دين المحبه لا يسرق لأن المحبة تهتم بأن تعطى أكثر مما بأن تأخذ . والذى يسدد دين المحبة لا يشتهى ، لأن الشهوة هى الرغبة العارمة فى امتلاك الممنوع الذى لا يجب امتلاكه والمحبة تطهرنا من شهوات قلوبنا .

هناك قول مشهور : « أحب الله وافعل ما تريد » . فلو كانت المحبة تفيض من حياة إنسان ، وإن سيطرت محبة الله على حياة إنسان ، فإنه لن يحتاج لطاعة قانون ، لأن قانون المحبة يغنيه عن كل القوانين الأخرى !

تهديد الزمن

هٰـــذَا وَإِنَّـكُمْ عَارِفُونَ ٱلْوَقْتَ أَنَّهَا ٱلآنَ سَاعَةٌ لِنَسْتَيْقِظَ مِنْ ٱلنَّوْمِ . فَإِنَّ خَلاَصَنَا ٱلآنَ أَقْرَبُ مِمَّا كَانَ حِينَ آمَنَّا . قَدْ تَنَاهَى ٱللَّيْلُ وَتَقَارَبَ ٱلنَّهَارُ فَلْنَخْلَعْ أَعْمَالَ ٱلظُّلْمَةِ وَنَلْبَسْ أَسْـــلِحَةَ ٱلنُّورِ . لِنَسْلُكْ بِلِيَـاقَةٍ كَمَا فِي ٱلنَّهَـــارِ لا بِالْبَطَرِ وَٱلسُّكْرِ لاَ بِالْمَضَاجِـــعِ وَٱلْعَهَرِ لاَ بِالْخِصَامِ وَٱلْحَسَدِ . بَلِ

أَلْبَسُوا الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ وَلاَ تَصْنَعُوا تَدْبِيراً لِلْجَسَدِ لأَجْلِ الشَّهَوَاتِ .

(رومية ١٣ : ١١ — ١٤)

كان بولس مثل كل رجل عظيم ، يدرك قصر الوقت ، فالوقت يشبه العربة المجنحة المسرعة ! وكان الشاعر كيتس يخشى أن يموت قبل أن يتمكن قلمه من تسطير كل ما يفيض به عقله . وقد كتب روبرت لويس ستيفنسون شعراً ترجمته : « طبلة الصباح تدو لكل من يسمع ، بنداء لا ينسى . وندى الصباح يبقى ندياً حتى الظهر . ولكنى أتوقف أثناء عملى وأصغى إلى الجرس ،وأنا أخشى أن تغرب الشمس بأسرع مما يجب » !

ولكن بولس لا يخاف قصر الوقت فقط ، فهو يتوقع أعظم حدث قادم ، وهو مجيء المسيح الثانى . وكانت الكنيسة الأولى تتوقع هذا المجيء فى كل لحظة ، فكانت مستعدة للمفاجأة . وربما أصبح هذا الانتظار لنا ضئيلاً وباهتاً ، ولكن فى لحظة لا نتوقعها سيجيء المسيح أو ستنتهى حياتنا . إن الوقت مقصر ، وفى كل يوم يمضى يقربنا إلى ذلك اليوم ، فلنكن مستعدين .

وقد وجد أغسطينوس حياته الجديدة فى المسيح وهو يقرأ آيات هذه الفقرة ، وهو يحكى هذه القصة فى كتاب اعترافاته ، فقد كان يسير فى الحديقة حزين القلب لأنه فشل أن يحيا الحياة الصالحة ، فأخذ يقول : « حتى متى ؟ غداً . غداً . لكن لماذا لا يكون اليوم ؟ لماذا لا تكون هذه الساعة نهاية ضلالى ؟ » . كان يبكى وهو يفكر هكذا ، عندما طرق سمعه صوت طفل ينادى « خذ وإقرأ . خذ وإقرأ » . وحاول أن يذكر اللعبة التى تتكرر فيها هذه الكلمات ، ولكنه لم يذكر . وأسرع إلى مقعده حيث كان صديقه أليبوس جالساً ، وكان قد ترك مخطوطة من كتابات بولس . ويقول : « وأخذتها وقرأت أول ما وقع عليه

بصرى، فكان القول : « ولنسلك بلياقة . لا بالبطر والسكر، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصام والحسد ، بل ألبسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات » . ويقول : « ولم أشأ أن أقرأ أكثر ، ففى هذه العبارات أضاء نور اليقين قلبي ، فهربت ظلال الشك . ورجعت إلى صديقى أليبوس بوجه هادىء وأخبرته بما حدث لى » . لقد كلم الله أغسطينوس فى كلمتة . وقد قال كولريدج إنه يؤمن أن الكتاب المقدس موحى به لأنه « يكشفنى ويجدنى » لأن كلمة الله تكشف القلب البشرى دوماً !

ومن المناسب أن ندرس الخطايا الست التي يوردها بولس هنا ، كنموذج من حياة البعد عن المسيح .

١ — خطية البطر وكانت تعنى أولاً جماعة من الأصحاب يصحبون صديقهم الذى انتصر فى الألعاب الرياضية ، وهم يغنون له فرحين ويحتفلون معه بالنصر . ثم تطور معناها فأصبحت تعنى جماعة الشبـاب الذين يغزون شوارع مدينة يصـيحون ويصرخون . أنها تعنى الأشخاص الذين يزعجون الآخرين ويضايقونهم .

٢ — خطية السكر ، وكان اليونانيون يرون السكر أمراً مخلاً بالشرف ، مع أنهم كانوا يشربون الخمر ، وكانوا فى طعام الإفطار يتناولون شريحة خبز مغموسة فى النبيذ ، إلا أن السكر كان عاراً . ومن هذا نرى أن السكر رذيلة ينفر منها الوثنى كما ينفر منها المسيحى أيضاً .

٣ — خطية الفساد فى المضاجع ، فهى الرغبة فى السرير الممنوع ، وكانت خطية وثنية معتادة . صحيح أن العفة لم تكن فضيلة معروفة للعالم الوثنى حتى جاءت بها المسيحية . وبولس يحذر من شر الحصول على الشهوة حيث يحلو للإنسان !

٤ — خطية العهر وهى كلمة قبيحة فى اليونانية تصف الإنسان الذى فقد

نفسه فى العار . معظم الناس يحاولون ارتـكاب الخطأ فى السر ، ولـكن مرتـكب العهر لا يخشى الفضيحة ، ولا يهتم بمن يراه ، ولاتعنيه كرامته أو سمعته . إنه يرتـكب الشر علناً جهاراً .

٥ — خطية الخصام وهى تصف الروح الثائرة التى لم تلجم ، والتى ترغب فى المـكانة والسلطان خوفاً من أن يتقدمها أحد . إنها روح الذى لا يطيق أن يأخذ المـكان الثانى , هى خطية من يضع نفسه فى الأمام ويضع الآخرين فى الخلفية . انها الصفة المضادة لصفة المحبة المسيحية .

٦ — خطية الحسد وهى فى اليونانية ليست صفة سيئة ، فهى تصف الإنسان الذى يرغب فى الوصول إلى الصفات الحسنة عندما يراها . ولـكنها قد تصف الحسد المتذمر الذى يشكو من نجاح الآخرين ويتضايق منه . إنها تصف روح الشخص غير القانع الذى ينظر إلى بركات الآخرين بحسد ، لأنه لا يملـكها .

احترام ضئيل المقدار

وَمَنْ هُوَ ضَعِيفٌ فِي ٱلْإِيمَانِ فَاقْبَلُوهُ لَا لِمُحَاكَمَةِ ٱلْأَفْكَارِ .

(رومية ١٤ : ١)

يعالج بولس فى الأصحاح الرابع عشر من رومية مشكلة لاتزال تواجهنا اليوم كما واجهت كنيسة روما ، وهى تحتاج إلى حل ، فقد كانت فى كنيسة روما مدرستان فكريتان مختلفتان ، تقول إحداهما إننا فى المسيح قد تحررنا من كل قيود وممنوعات الماضى ، فلا يهم ما يأكله الإنسان أو يشربه ، وأن قوائم الأطعمة الممنوعة لا تنطبق على المسيحيين ، كما أن قوائم اللحوم النجسة التى أوردها سفر اللاويين أصبحت غير ذى موضوع . وتقول هذه المدرسة المتحررة إن المسيحية لا تحتفل بيوم خاص ، وأن السبت اليهودى لم يعد ملزماً . ويقف بولس إلى جوار هذه المدرسة قائلا إنها مدرسة الإيمان المسيحى الكامل والحقيقى. ولكن كانت هناك مدرسة أخرى قالت إن المؤمن لا يجب أن يأكل لحوما ، بل خضروات فقط ، وإنه يجب أن يراعى يوما خاصاً ويدعو بولس من يتبع هذه المدرسة « ضعيف فى الإيمان » . فماذا يقصد بولس بهذا الوصف ؟

أنه ضعيف فى الإيمان لسببين :

١ — أنه لم يكتشف معنى الحرية التى فى المسيح ، ولا زال يرى المسيحية قوانين وممنوعات ، وهو يريد أن يحكم حياته بمجموعة وصايا ، لأنه يخاف من الحرية المسيحية .

٢ — أنه لم يحرر نفسه بعد من الإيمان بجدوى الأعمال ، فهو فى أعماقه لا يزال يظن أنه يكسب رضى الله بأعمال صالحة يعملها أو بأعمال سيئة يجتنبها ، وهو

لا يزال يريد أن يكسب العلاقة السليمة مع الله (التبرير) بعمله ، لا عن طريق الإنعام الإلهي . انه يفكر في ما يفعله هو لله ، لا في ما فعله الله له .

ويطلب بولس من الأقوياء في الإيمان أن يرحبوا بالأخ الضعيف، وألا يحاربوه أو يهاجموه بالانتقادات .

ولا زالت هذه المشكلة قائمة اليوم ، ففي الكنيسة مدرستان فكريتان ، المدرسة المتحررة التي لا ترى ضرراً في الأشياء التي تعتبرها مسرات بريئة ، والتي ترى أن السرور يجب أن يدخل الكنيسة . وهناك المدرسة المحافظة التي تتضايق من المسرات التي يراها المتحرر بلا ضرر. ويقف بولس إلى جوار المدرسة المتحررة، لكنه يطلب أن نقابل أصحاب المدرسة المحافظة بالاحترام والعطف . وعندما نلاقي أحد تابعي المدرسة المحافظة يجب أن نتحاشى ثلاثة أشياء :

١ - يجب أن نتحاشى الغضب، فإن ثورتنا على مثل هذا الشخص لن تؤدي إلى نتيجة . وعليه فإنه مهما كان خلافنا في الرأي فيجب أن نعطيه فرصة التعبير عن نفسه ، وأن نستمع له بتعاطف وإدراك .

٢ — يجب أن نتحاشى السخرية ، فإن ضحكنا من أي إنسان نجرحه ، ومن الخطأ أن نضحك على عقائد الآخرين ، ومن الجريمة أن نسخر مما يعتقد شخص آخر أنه مقدس . كما أن السخرية لن تجعل الطرف الآخر يترك وجهة نظره ، بل بالعكس فإنها ستزيده تمسكاً بها !

٣ — يجب أن نتحاشى الاحتقار ، فلا يجب أن ننظر للشخص المحافظ كأحمق « موضة قديمة » فإن أفكار الشخص هي ملك له ويجب أن نحترمه . ان الاحتقار يظهر أننا غير مسيحيين .

وقبل أن نترك هذا العدد نذكر أننا يمكن أن نترجمه ترجمة أخرى ، هي : « رحبوا بالشخص الضعيف في الإيمان ، ولا تدخلوا معه فوراً في مجادلة تثير في

نفسه الشكوك ». فبعض الناس يملكون إيماناً قوياً لا تزعزعه الأسئلة أو المجادلات وبعضهم يحب التفكير فى الأمور الصعبة .. ولكن إيمان البعض الآخر بسيط تقلقله الإستفهامات . وربما كنا نحب الجدل للجدل نفسه ، ولكن يجب أن نذكر أن المسيحية ليست مجادلات . حسناً قال رجل حكيم : « لقد وجدنا كل الأسئلة التى يمكن أن تثار ، وآن الآوان لأن نبحث عن الحلول والأجوبة » وقال جوته : « خبرنى عن الأشياء التى أنت متأكد منها ، فإن عندى من الشكوك ما يكفينى » وهناك قاعدة هامة فى المناقشات ، هى أنها يجب أن تؤدى إلى إجابات، مهما كان موضوع النقاش محيراً ، ومهما ظهرت الأسئلة كأنها بلا نتيجة . ففى مناقشاتنا الكنسية دعونا نحاول أن نجد الأجوبة . صحيح أن بعض الأسئلة ستبقى بدون إجابة ، لكن على الأقل لنخرج ونحن متأكدين من بعض الحقائق الثابتة.

التسامح مع وجهة نظر الاخرين

وَاحِدٌ يُؤْمِنُ أَنْ يَأْكُلَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَمَّا الضَّعِيفُ فَيَأْكُلُ بُقُولاً . لاَ يَزْدَرِ مَنْ يَأْكُلُ بِمَنْ لاَ يَأْكُلُ . وَلاَ يَدِنْ مَنْ لاَ يَأْكُلُ مَنْ يَأْكُلُ . لِأَنَّ ٱللهَ قَبِلَهُ مَنْ أَنتَ ٱلَّذِى تَدِينُ عَبْدَ غَيْرِكَ . هُوَ لِمَوْلاَهُ يَثْبُتُ أَوْ يَسْقُطُ . وَلٰكِنَّهُ سَيُثَبَّتُ لِأَنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُثَبِّتَهُ .

(رومية ١٤ : ٢ — ٤)

يوضح بولس هنا المشكلة التى يعالجها ، فقد راعى بعض أهل روما قوانين خاصة عن المأكولات ، فقد امتنع البعض عن أكل اللحوم واكتفوا بأكل البقول وقد كانت بعض ديانات العالم القديم تراعى قوانين مشددة فى الأطعمة . وفى

« اللاويين » قائمة بالمخلوقات التي يجب ألا تؤكل ، وكان « الأسينيون » أكثر طوائف اليهود تشدداً ، وكانت لهم إجراءات خاصة لوجبة طعام يأكلونها معاً يستحمون قبلها ويلبسون ملابس خاصة. وكان الكهنة يجهزون الطعام لهذه الوجبة الخاصة . اما فى العالم الوثنى فإن أتباع فيثاغورس كانوا يتبعون قوانين طعام خاصة ، وقد علم فيثاغورس أن أرواح الناس هى آلهة سقطت وسجنت فى أجساد البشر التى تشبه المقابر. وكان يؤمن بتناسخ الأرواح ، إذ أن روح الإنسان تعود لتسكن فى إنسان آخر أو فى حيوان أو فى نبات ، وهكذا فى حلقة ، لا تنكسر إلا إذا عاش الإنسان حياة الطهارة والنظام، الذى يقتضى السكوت والدرس وفحص الذات والامتناع عن اللحوم . ويمكن أن نقول إنه فى كل جماعة مسيحية كان يوجد أشخاص سبق لهم اعتناق مثل هذه الأفكار قبل أن يؤمنوا بالمسيح .

وقد وجد بالكنيسة الأولى فريقان، الفريق الضيق الفكر ،والفريق المتحرر ويرى بولس الخطر المحدق بهما ،فإن الفريق المتحرر معرض لاحتقار الفريق المحافظ كما أن الفريق المحافظ سينتقد الفريق المتحرر ويدينه . ولا زلنا حتى اليوم نرى هذه هذه الفرق فى كنيستنا .

ويضع بولس قاعدة عظيمة لمواجهة هذه المشكلة ، فيقول إنه ليس من حق أحد أن ينتقد عبد سيد آخر ، فإن العبد يعطى حساباً لسيده فقط . ولما كان كل الناس عبيداً للرب ، فإن انتقادهم واكتشاف أخطائهم ليس من شأننا، لأن هذا من حق الله فقط . وليس من حقنا أن نحكم على أحد أنه قائم أوساقط، فإن الدينونة هى لله وحده. ويقول بولس إن كل من يسلك بإخلاص سيجد الله بجواره يقيمه ويثبته .

ولا زلنا اليوم نرى الفريق المحافظ المتمسك بالتقاليد ، كما نرى الفريق المتحرر المتسع الفكر . والمحافظون ينتقدون متسعى الفكر ، ويريدونهم أن يتصرفوا بالطريقة التى يرونها هم أنهم صحيحة . . ولكن ليس من حقنا أن ندين الآخرين.

قال كرمويل للاسكتلنديين المحافظين : « أرجوكم فى رأفة المسيح أن تظنوا أنكم يمكن أن تكونوا مخطئين » .

يجب أن نزيل كل كراهية واحتقار من الكنيسة ، ولنترك إدانة الآخرين للرب وحده ، ولكن متفهمين للآخرين متعاطفين مع إخلاصهم .

طرق مختلفة لذات الهدف

وَاحِدٌ يُعْتَبِرُ يَوْماً دُونَ يَوْمٍ وَآخَرُ يَعْتَبِرُ كُلَّ يَوْمٍ . فَلْيَتَيَقَّنْ كُلُّ وَاحِدٍ فِي عَقْلِهِ . الَّذِي يَهْتَمُّ بِالْيَوْمِ فَلِلرَّبِّ يَهْتَمُّ . وَالَّذِي لَا يَهْتَمُّ بِالْيَوْمِ فَلِلرَّبِّ لَا يَهْتَمُّ . وَالَّذِي يَأْكُلُ فَلِلرَّبِّ يَأْكُلُ لِأَنَّهُ يَشْكُرُ اللهَ . وَالَّذِي لَا يَأْكُلُ فَلِلرَّبِّ لَا يَأْكُلُ وَيَشْكُرُ اللهَ .

(رومية ١٤ : ٥ ، ٦)

يقدم بولس هنا نقطة أخرى يختلف فيها المحافظون مع المتحررين ، فقد كان المحافظون يهتمون للغاية بمراعاة بعض الأيام الدينية ، ولا بد أن أصل هؤلاء كان يهودياً . وقد كتب بولس عن هذه الفكرة فى رسائل أخرى ، فقد كتب إلى الغلاطيين : « أتحفظون أياماً وشهوراً وأوقاتاً وسنين؟ أخاف عليكم أن أكون قد تعبت فيكم عبثاً !» (٤ : ١٠، ١١). وكتب إلى الكولوسيين : « فلا يحكم عليكم أحد فى أكل أو شرب ، أو من جهة عيد أو هلال أو سبت ، التى هى ظل الأمور العتيدة ، وأما الجسد فللمسيح » (٢ : ١٦ ، ١٧) لقد جعل اليهود من السبت عذاباً ، وأحاطوه بقوانين قاسية مستحيلة . ولم يكن بولس يريد أن يبطل يوم الرب . . أبداً . ولكنه كان يخشى من تسرب الأفكار اليهودية إلى العقيدة المسيحية، فإن

المسيحية أكثر من مجرد حفظ يوم خاص . عندما كانت المرسلة الشهيرة مارى سليسور فى الغابات مدة ثلاث سنوات متتالية لم تـكن تعرف الأيام ،وقد وجدوها مرة تقيم العبادة يوم الإثنين ، ووجدوها مرة تصلح كوخها يوم الأحد ، فقد أختلطت الأيام فى فـكرها . ولا نظن أحداً يقدر أن يقول إن عبادةمارى سليسور يوم الإثنين كانت مرفوضة ، أو أنها كسرت يوم الرب لأنها أصلحت كوخها فى يوم الأحد . لم ينـكر بولس أن يوم الرب يوم هام يجب أن يُخصَّص للعباده ، ولـكنه كان لا يريد لهذا اليوم أن يكون عبودية لنا ، فإننا لا نعبد اليوم ، بل الرب الذى هو رب كل يوم !

وبالرغم من هذا يطالب بولس بالمحبة والتعاطف بين أصحاب مدرستى الفـكر المحافظة والمتحررة ، وهو يقول إنه مهما أختلف تفـكيرها فإن هدفهما واحد ، فـكلاهما يريد أن يهتم بالرب وأن يخدمه . وعندما يجلس أحدهما ليأكل اللحم والآخر ليأكل البقول ، فإنهما كليهما يرفعان صلاة الشكر للرب من أجل الطعام . هناك طرق مختلفة للسفر من القاهرة إلى الاسكندرية ، ولست مجبراً على استعمال طريق واحد منهما . وعندما يسافر شخصان معا على طريقين مختلفين فإنهماسيصلان إلى الوجهة الواحدة . ويقول بولس إن الهدف الواحد يجب أن يوحدنا ، وأن الممارسات المختلفة لا يجب أن تفرقنا !

ويشير بولس على فـكرة أخرى : يجب أن يكون الإنسان منا متأكداً أنه يسير فى الطريق الصائب « فليتيقن كل واحد فى عقله » . لا نتبع الجماعة ،ولا نتبع التقليد ، لـكن نتبع الاقتناع . لا يجب أن نفعل ما يفعله كل الناس ،لـكن لنفعل ما هو صواب ، بعد أن نـكون قد فـكرنا وتأملنا وصلينا ووصلنا إلى أن هذا هو الصواب !

ولا يمكن لإنسان أن يفرض وجهة نظره على الناس ، فإن هذهبالأسف إحدى لعنات الـكنيسة ، إذ يظن الإنسان أن أفـكاره وعقيدته وطريقته فى العبادة

وممارساته الدينية هي وحدها الصحيحة ، وأن كل ماعداه خطأ ! حسنا قال أحد الحكماء : « كل ما تجده يدك لتفعله ، فأفعله بكل قوتك . لكن لا تنس أن شخصاً آخر يختلف معك فى التفكير » . أن من واجبنا أن نعرف الصواب ، ولكن ليس من الصحيح أن نفرض هذا « الصواب » على الآخرين ، فإذا أختلفوا معنا حكمنا عليهم أنهم خطاة مرفوضون !

إستحالة العزلة

لِأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يَعِيشُ لِذَاتِهِ وَلاَ أَحَدٌ يَمُوتُ لِذَاتِهِ . لِأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ . فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ . لِأَنَّهُ لِهٰذَا مَاتَ الْمَسِيحُ وَقَامَ وَعَاشَ لِكَيْ يَسُودَ عَلَى الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ .

(رومية ١٤ : ٧—٩)

يقول بولس هنا إن أحداً منا لايقدر أن يعيش لنفسه منعزلا عن الآخرين ، فإنه مرتبط بالله ومرتبط بالناس ، ولا يستطيع أحد أن يعزل نفسه عن الله أو عن الناس !

ولا يستطيع أحد أن يعزل نفسه عن الناس ، فى ماضيه وحاضره ومستقبله .

١ — انه لايقدر أن يعزل نفسه عن الماضى ، فهو لم يصنع نفسه ، كما قال عولص : « أنا جزء من كل ما قابلت » . فالإنسان منا مديون للتقاليد والتراث والوراثة التى جاءته من الجدود . صحيح أن الانسان يمكن أن يفعل شيئاً بماضيه، لكن صحيح أيضاً أنه لايبدأ من الصفر ! إنه يأخذ معه ما جاءه من الماضى ، وسحابة شهود الماضى تحيا معه ، وهو لايستطيع أن يعزل نفسه عن أصله ، أو عن نقرة الجب التى منها حفر ! (إشعياء ٥١ : ١) .

٢ — وهو لا يقدر أن يعزل نفسه عن الحاضر ، فإن الحضارة التى نحيا فيها تربطنا معاً ، ولا شىء يفعله الإنسان يؤثر فيه وحده ، فهو قادر بسلوكه أن يسعد غيره أو يشقيهم ، كما أنه قادر بسلوكه ان يجعل الآخرين أردياء أو صالحين، فلكل واحد منا تأثير على الآخرين ، بالصالح أو بالردىء ، ولكل عمل نعمله نتائج تؤثر على المحيطين بنا . أن الإنسان موجود فى « حزمة حياة » لايقدر أن يهرب منها .

٣ — وهو لايقدر ان يعزل نفسه عن المستقبل ، فكما يستلم حياته يسلمها لغيره ، فيسلم أطفاله ما ورثه مادياً وروحياً . ليس الإنسان دائرة قائمة بذاتها ، لكنه حلقة فى سلسلة . يقال عن شاب مستهتر بدأ يدرس علم الأحياء أنه تطلع فى ميكروسكوبه إلى الخلايا التى تتوالد فى لحظات ، فترك ميكروسكوبه وقال : « الآن أرى أننى حلقة فى سلسلة ، فلن أكون حلقة ضعيفة ! » . هذه مسئوليتنا العظيمة ، أن نترك للمستقبل شيئاً صالحاً عالمين أن الخطية لاتؤثر فى مرتكبها وحده ، ولكنها تنشىء سلسلة تأثيرات لاتتوقف !

ولا يستطيع إنسان أن يعزل نفسه عن المسيح .

١ — لأن المسيح حى موجود معنا فى كل لحظة ، وهو يرى كل ما نعمل ، وكل حياتنا تحت بصره ، ولن يقدر إنسان أن يهرب من المسيح الحى القام والذى يحيا هنا والآن ! لا مكان يخفينا عنه ، ولا عمل نعمله يخفى عنه !

٢ ـ ولا الموت يعزلنا عن المسيح ! إننا فى هذا العالم نعيش فى محضر المسيح غير المنظور، ولكننا فى العالم الآتى سنراه فى بهائه ومحضره الكامل . لن يكون الموت نهاية ، لكنه البوابة التى تقود للمسيح .

لايستطيع إنسان أن يحيا منعزلا ، فإنه مرتبط بالناس وبالمسيح بربط لايحطمها الزمن ولا الأبدية ! وعلى هذا فلا يستطيع أحد منا أن يعيش لذاته أو أن يموت لذاته !

الناس أمام القضاء

وَأَمَّا أَنْتَ فَلِمَاذَا تَدِينُ أَخَاكَ . أَوْ أَنْتَ أَيْضاً لِمَاذَا تَزْدَرِي بِأَخِيكَ . لِأَنَّنَا جَمِيعاً سَوْفَ نَقِفُ أَمَامَ كُرْسِيِّ ٱلْمَسِيحِ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ أَنَا حَيٌّ يَقُولُ ٱلرَّبُّ إِنَّهُ لِي سَتَجْثُو كُلُّ رُكْبَةٍ وَ كُلُّ لِسَانٍ سَيَحْمَدُ ٱللهَ . فَإِذاً كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا سَيُعْطِي عَنْ نَفْسِهِ حِسَاباً لِلهِ .

(رومية ١٤ : ١٠ — ١٢)

هناك سبب أساسي يمنعنا من إدانة الآخرين ، وهو أننا جميعاً سنعطي حساباً عن أنفسنا لله ، فلسنا قضاة ، لكننا تحت حكم القضاء . وبرهاناً لهذه الفكرة يقتبس بولس كلمات إشعياء ٤٥ : ٢٣ . وكان معلمو اليهود يقولون : « لا تظن ان القبر ملجأ يحميك . ولذلك يجب أن تحيا فى كمال حتى تقدر أن تعطى حساباً عن الصالح الذى فعلته لملك الملوك ، القدوس الوحيد ، تبارك إسمه » . الله وحده له حق القضاء ، وليس للإنسان الذى يقف أمام عرش قضاء الله أن يقضى على الآخرين الواقفين معه أمام القاضى الأعظم !

تحدث بولس فى الآيات ٧ ـ ٩ عن إستحالة العزلة ، لكنه هنا يذكر حالة واحدة يقف فيها الإنسان وحيداً : عندما يقف أمام عرش الله الديان . وفى أيام بولس كان القضاء الرومانى فى أوج عظمته ، ففى ركن من ساحة المدينة كانت مبانى المحكمة تعلو ، يجلس فيها القضاة وكانت العدالة الرومانية تقضى بوجود أكثر من كرسى قضاء . وكان الرومانى يعرف معنى « كرسى القضاء » . ويقول بولس إن كل واحد منا سيقف أمام كرسى المسيح ليواجه القاضى بمفرده . ربما استطاع الإنسان فى هذا العالم أن يدعى لنفسه حسنات إنسان آخر ، وربما أفلت شاب من

العقاب بسبب مكانة والده، وكم عفا أب عن ابنه من أجل رجاء زوجته.. ولكن كل إنسان سيقف وحيداً أمام كرسى الله! عندما يموت إنسان ويحضرون جثمانه للصلاة فى الكنيسة، يجتمع الأهل والأصحاب، ويضعون على صندوق الميت الأوسمة التى نالها فى حياته، ولكن الميت لا يقدر أن يأخذها معه!! دخلنا إلى هذا العالم عرايا، وسنخرج منه عرايا! وسنقف أمام الله فى وحده اخذ معنا إلا نفوسنا والشخصية التى بنيناها فى عالمنا.

لكن ليست هذه هى الحقيقة كلها، فإ نقف وحدنا أمام كرسى الله، لأننا نقف مع المسيح، ولن يجردونا من كل شىء، فسيبقى لنا بره واستحقاقاته. وقد قال أحد الكتاب المعاصرين: «إن الله أكثر رحمة مما نظن، فإذا لم يقدر أن يقول لنا «نعماً أيها العبد الصالح والأمين» فإنه سيقول «حسناً أيها العبد الردىء الخائن، أنا لا أكرهك!» كانت هذه طريقة ذلك الكاتب فى التعبير عن إيمانه، والحقيقة أن الله لا يكرهنا، لكنه يحبنا مهما كنا خطاة، من أجل المسيح فادينا. إننا سنقف أمام كرسى الديان وحيدين، ولكن إن عشنا فى المسيح فسنقف معه فى موتنا وأمام الله، وسنجد أنه شفيعنا!

الإنسان وضمير الجيران

فَلاَ نُحَاكِمْ أَيْضاً بَعْضُنَا بَعْضاً بَلْ بِالْحَرِيِّ اُحْكُمُوا بِهٰذَا أَنْ لاَ يُوضَعَ لِلأَخِ مَصْدَمَةٌ أَوْ مَعْثَرَةٌ. إِنِّي عَالِمٌ وَمُتَيَقِّنٌ فِي الرَّبِّ يَسُوعَ أَنْ لَيْسَ شَيْءٌ نَجِساً بِذَاتِهِ إِلاَّ مَنْ يَحْسِبُ شَيْئاً نَجِساً فَلَهُ هُوَ نَجِسٌ. فَإِنْ كَانَ أَخُوكَ بِسَبَبِ طَعَامِكَ يُحْزَنُ فَلَسْتَ تَسْلُكُ بَعْدُ حَسَبَ الْمَحَبَّةِ.

لَا تُهْلِكْ بِطَعَامِكَ ذَلِكَ الَّذِى مَاتَ الْمَسِيحُ لِأَجْلِهِ .
فَلَا يُفْتَرَى عَلَى صَلَاحِكُمْ .

(رومية ١٤ : ١٣ ــ ١٦)

كان الرواقيون يقولون عن أشياء كثيرة إنها « حيادية » ، لا رديئة ولا صالحة ولكن الأمر يتوقف على الطريقة التى تتناول بها هذه الأشياء . فمثلا ربما كان الرسم بالنسبه لتلميذ الفن عملا فنياً، لكن شخصاً آخر يرى فيه فساداً وشراً.. وقد تكون مناقشة ما فى نظر البعض بناءة ومفيدة ، ولكنها لآخر قد تكون هرطقة وإنحرافاً .. وهكذا الحال بالنسبة للنشاطات والتسليات والمسرات ، يراها واحد مفيدة،ويراها الآخر مفسدة . ولكن الشىء فى ذاته ليس طاهراً ولا نجساً، إنما طهارته أو نجاسته متوقفتان على الطريقة التى يتناوله الناس بها .

ويقول بولس إن الشخص القوى فى الإيمان قد لا يرى ضرراً فى شىء ما ، لكن شخصاً ضعيفاً قد يرى فيه الشر كله ، ويثور ضميره عليه لو أنه فعله . ولنعط مثلا : قد يرى إنسان أن لعبة رياضية خارج البيت يوم الأحد لاضرر منها، ولكن ضمير غيره قد يصطدم بهذه الفكرة ، فإذا أجبرته على أن يلعب لتعذب ضميره ، لأنه غير مستريح لهذا العمل . وهناك أشياء كثيرة يراها المؤمن التحرر صالحة ومفيدة ، لكن المحافظ يراها ضارة وخاطئة ، فإذا اشترك المحافظ فى شىء من هذه يتعب ضميره ، لأنه يعتقد أنه يفعل الخطأ .

ونصيحة بولس واضحة هنا . من واجب المسيحى أن يفكر فى كل شىء ، لا فى تأثيره على نفسه فقط ، بل فى تأثيره على الآخرين أيضاً . إنه لا يقول إن آراءنا يجب أن تتأثر بآراء الآخرين ، فإن آراءنا ومبادئنا ملك لنا ، ويجب أن نأخذ فيها قرارتنا بأنفسنا ، لكنه يتحدث عن الأشياء « الحيادية » التى ليست فى ذاتها رديئة أو صالحة ، وليست جزءاً من أساسيات الحياة المسيحية ، والتى تعتبر هامشية فى الحياة . ويقول بولس إننا لا يجب أن نضايق الآخرين

بتصرفنا فى مثل هذه الأشياء ، ولا يجب أن نزعج ضمائرنا من جهتها ، كما لانزعج ضمير الآخرين ، فإن قانون المحبة هو الذى يسود الحياة ، وعندما يسودنا قانون المحبة لانعود نفكر فى حقوقنا وإمتيازاتنا، ولكن فى مسئولياتنا وواجباتنا . لايجب أن نزعج ضمائر الآخرين فى الأمور التافهة ، ولايجب أن نجعل الحرية التى لنا فى المسيح فرصة لنجرح مشاعر الآخرين ؛ فلا متعة تستحق أن نحزن الآخرين بسببها أو نحطمهم • كان القديس أغسطينوس يقول إن تلخيص كل الوصايا هو : « أحب الله وافعل ما تريد » • هذا صحيح ، لكن المسيحية ليست محبة الله فقط بل محبة المحيطين بنا أيضا .

خطورة الحرية المسيحية

لِأَنْ لَيْسَ مَلَكُوتُ اللهِ أَكْلاً وَشُرْباً . بَلْ هُوَ بِرٌّ وَسَلاَمٌ وَفَرَحٌ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ . لِأَنَّ مَنْ خَدَمَ الْمَسِيحَ فِي هٰذِهِ فَهُوَ مَرْضِيٌّ عِنْدَ اللهِ وَمُزَكًّى عِنْدَ النَّاسِ . فَلْنَعْكُفْ إِذاً عَلَى مَا هُوَ لِلسَّلاَمِ وَمَا هُوَ لِلْبُنْيَانِ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ . لاَ تَنْقُضْ لِأَجْلِ الطَّعَامِ عَمَلَ اللهِ . كُلُّ الْأَشْيَاءِ طَاهِرَةٌ لٰكِنَّهُ شَرٌّ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يَأْكُلُ بِعَثْرَةٍ .

(روميـة ١٤ : ١٧ ــ ٢٠) •

يتحدث بولس هنا عن خطورة سوء استعمال الحرية المسيحية ، فقد رأى اليهودى فى الحرية المسيحية أخطاراً ، لأن حياته كلها كانت محكومة بأوامر ونواه ومحظورات ، فهذه أطعمة جائزة ، وتلك طيور نجسة • ولكن المسيحية

قضت على كل هذه النواهى بخبطة واحدة ، فبقيت خطورة الظن أن المسيحية تعنى أن يفعل الإنسان كل ما يشتهى ، ولذلك يذكر بولس أن الحرية المسيحية والمحبة المسيحية متلازمتان ، والمسيحى الحقيقى هو المتحرر المحب المتعاطف مع غيره .

ويذكر بولس أن المسيحية هى ملكوت الله ، وهى ليست أن يأكل الإنسان ويشرب مايحب ، لكنها تحوى ثلاثة عناصر فيها تفكير فى الآخرين . إنها بر ومعناه إعطاء الله والناس حقوقهم . والحق الأول للناس علينا هو التفهم والتعاطف ، فبمجرد أن نعرف المسيح نهتم بمشاعر الآخرين أكثر من مشاعرنا ، لأن المسيحية تعلمنا أن نضع الآخرين أولا ونفوسنا أخيراً . ولا يمكن أن نصالح بين إعطاء الناس حقوقهم وبين أن نتصرف كما نشتهى ! وهى سلام وهو فى العهد الجديد لا يعنى غياب المتاعب فقط ، فهذا المعنى سلبى ، لكن السلام بمعناه الإيجابى يشمل كل ماهو لخير الإنسان . وقد رأى اليهود ، فى السلام العلاقة السليمة بين الناس وبعضهم . فإذا قلنا إن الحرية المسيحية تعنى أن نفعل مانشاء فإننا لا نجد السلام ولن نكون فى ملكوت الله ! ذلك أن الحرية المسيحية مشروطة بأن نكون فى علاقة سليمة بالآخرين . وهى فرح وهو فى المسيحية ليس أنانية لأنه لا يعنى أن نكون نحن فقط سعداء ، بل يعنى إسعاد الآخرين ، فإن كانت سعادتى تحزن الآخرين فهى ليست سعادة المسيح . إن الهدف النهائى للسعادة هو إدخال الفرح والأمل إلى قلوب الآخرين . والفرح شىء متبادل ، نعطيه فنأخذه . ليست الحرية المسيحية إذاً دوساً على مشاعر الآخرين ، لكنها إسعاد للآخرين مهما كلفنا الأمر !

وعندما يكون الإنسان فى البر والسلام والفرح فإنه يصبح عبداً للمسيح . والحرية المسيحية لاتعنى أن نفعل مانريد ، بل أن نفعل مايريد يسوع ، فبدون المسيح يكون الإنسان عبد عاداته وشهواته ، وهو لا يفعل ما يحب ، بل يفعل ما يتسلط عليه . ولكن عندما يسيطر المسيح على الحياة يحررها بالحقيقة ، فلا يعود

صاحبها يفعل ما يرضى ملذاته ومزاجه وذاته ، بل يفعل ما يظهر محبة يسوع للآخرين .

ويقدم لنا بولس الهدف النهائى للشركة المسيحية : (أ) إنه هدف السلام « فلنعكف إذاً على ماهو للسلام » فكل أعضاء العائلة المسيحية يعيشون فى أحسن علاقة . والكنيسة التى تحوى المعارك والمرارة والانقسامات لاتستحق أن تدعى كنيسة ، وهى ليست جزءاً من ملكوت الله ، لكنها مجتمع إنسانى وحسب . (ب) إنه هدف البناء « فلنعكف على ماهو للبنيان ، بعضنا لبعض » وفكرة الكنيسة كبناء موجودة فى كل العهد الجديد ، فالأعضاء مثل الأحجار الحية فى البناء ، وكل ما يخلخل البناء هو ضد الله ، وكل مايثبت البناء ويقويه فهو من الله . ولكن من المؤسف أنه فى كل المرات التى تزلزل فيها بناء الكنيسة كان السبب شيئاً تافهاً ، كأفكار الناموس ، والبحث عن المركز الأول . وسيشرق فجر جديد على الكنيسة لو أن كل واحد منا فتش عن واجباته قبل حقوقه ، ولو أنه عرف أنه لايجب أن يسىء استعمال حريته المسيحية بأن يجرح غيره ويؤذى ضميره . يجب أن تكون الكنيسة جماعة متحابة ، يعتبر فيها كل واحد إخوته ويراعى شعورهم .

احترام الأخ الضعيف

حَسَنٌ أَنْ لاَ تأْكُلَ لَحْماً وَلاَ تَشْرَبَ خَمْراً وَلاَ شَيْئاً يَصْطَدِمُ بِهِ أَخُوكَ أَوْ يَعْثُرُ أَوْ يَضْعُفُ . أَلَكَ إِيمَانٌ . فَلْيَكُنْ لَكَ بِنَفْسِكَ أَمَامَ اللهِ . طُوبَى لِمَنْ لاَ يَدِينُ نَفْسَهُ فِي مَا يَسْتَحْسِنُهُ . وَأَمَّا الَّذِي يَرْتَابُ

فَإِنْ أَكَلَ يُدَانُ لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ . وَكُلُّ مَا لَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ فَهُوَ خَطِيَّةٌ .

(رومية ١٤ : ٢١ — ٢٣)

ها نحن نعود مرة أخرى لنقول إن مايكون نافعاً لشخص قد يحطم شخصاً آخر . ويقدم بولس هنا نصائح عملية :

١ — نصيحة للقوى فى الإيمان الذى يعرف أن الأكل والشرب غير مهمين، والذى فهم معنى الحرية المسيحية : ليجعل هذه الحرية بينه وبين الله . لقد وصل إلى مرحلة متقدمة من الإيمان ، والله يعلم ذلك ، فلا داعى لأن يلوح بحريته فى وجه من لم يصل إليها . وكم من شخص أصر على حقوقه فى الحرية ، ولكن الأسف ملأ حياته بعد ما رأى نتيجة إصراره وأنانيته فقد يظن واحد أن حريته فى المسيح تعطيه الفرصة لشرب الخمر، وربما كان شرب الخمر عنده متعة لا تجره إلى الخطر . ولكن شاباً معجباً به ، كان يتخذه مثلا أعلى ، يراه يشرب الخمر ، فيفعل مثله ، ولكنه لا يقدر أن يضع لنفسه حدوداً ، فيجرف إلى التهلكة . فهل يستخدم الشخص الناضج حريته ليؤدى شاباً حديثاً ؟ أو هل يضبط حريته لأجل خير الآخرين الذين يتحذونه قدوة ؟ إن المسيحية تعلمنا ضبط النفس الواعى لخير الآخرين . وإن لم يضبط المسيحى نفسه فسيجد له ضحايا أكثر مما توقع ! لنضبط نفوسنا حتى لا يكون استمتاعنا هلاكاً للآخرين ، ولنفحص كل شيء لا من جهة تأثيره علينا فقط ، بل من جهة تأثيره على غيرنا أيضاً ، لأن كل مؤمن حارس لأخيه ، ومسئول عن نفسه وعن كل من يتعاملون معه . قال شاب عن شيخ : « كانت صداقته أذى بالغاً لى »فليحفظنا الله حتى لا يقول أحد إن استعمالنا للحرية قد أساء إليه ! .

٢ — وهناك نصيحة لضعيف الإيمان ، صاحب الضمير الذى يتعثر بسرعة . ربما يكون ضعفه أنه يفعل ما يفعله الآخرون، أو أنه ينضم إلى الأغلبية لأنه لا يريد أن

يكون وسط أقلية وقد لا يرغب أن يكون مختلفاً عن أغلبية جماعته، وقد لا يرغب في إضاعة مركزه كمحافظ مدقق. وبولس يقول: إن كان أحد يفعل أمراً لسبب من هذه الأسباب، فهو يرتكب خطية. فإذا عرف إنسان في قلبه أن شيئاً ما خطأ، ولم يستطع أن يتخلص من الإحساس بالذنب من جهته، فإن ارتكابه هذا العمل يكون له خطية. وربما كان الشيء «الحيادي» (الذي ليس خطأ وليس صواباً) صحيحاً لو أن الذي فعله فعله بإيمان، عن اقتناع أنه صواب، لأن الدافع على عمل شيء يجب أن يكون الاقتناع بصحته وصوابه لكن إن كنا نعمل شيئاً لنربح رضى الناس ومدحهم، أو لأن كل الناس يفعلونه، فإننا نكون مخطئين. لسنا حراس ضمائر إخوتنا، وعلى كل واحد منا أن يقرر لنفسه حسب اقتناع ضميره ماهو الخطأ وماهو الصواب.

علامات الشركة

فَيَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ الأَقْوِيَاءَ أَنْ نَحْتَمِلَ أَضْعَافَ الضُّعَفَاءِ وَلاَ نُرْضِيَ أَنْفُسَنَا. فَلْيُرْضِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا قَرِيبَهُ لِلْخَيْرِ لأَجْلِ الْبُنْيَانِ. لأَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً لَمْ يُرْضِ نَفْسَهُ بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ تَعْيِيرَاتُ مُعَيِّرِيكَ وَقَعَتْ عَلَيَّ. لأَنَّ كُلَّ مَا سَبَقَ فَكُتِبَ كُتِبَ لأَجْلِ تَعْلِيمِنَا حَتَّى بِالصَّبْرِ وَالتَّعْزِيَةِ بِمَا فِي الْكُتُبِ يَكُونُ لَنَا رَجَاءٌ. وَلْيُعْطِكُمْ إِلهُ الصَّبْرِ وَالتَّعْزِيَةِ أَنْ تَهْتَمُّوا اهْتِمَاماً وَاحِداً فِيمَا بَيْنَكُمْ

بِحَسَبِ ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ . لِكَيْ تُمَجِّدُوا ٱللهَ أَبَا رَبِّنَا
يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَفَمٍ وَاحِدٍ .

(رومية ١٥ : ١ — ٦)

يوالى بولس فى هذه الفقرة حديثه عن واجبات المؤمنين من نحو بعضهم بعضاً، وينبر على مسئولية المؤمن القوى نحو أخيه المؤمن الضعيف . وتقدم لنا هذه الفقرة علامات ومميزات الشركة الروحية :

١ — يجب أن تتميز الشركة المسيحية باعتبار كل واحد للآخر « يرضى قريبه للخير » ، فلا يفكر الواحد فى نفسه ، بل فى إخوته . على أن هذا الاعتبار لا يجب أن يكون عاطفياً ، بل يجب أن يعمل على خير الآخرين وبنائهم فى الإيمان . ليس المؤمن كسولا فيتهاون مع إخوته ، لكنه عامل بالمحبة ، يحيط إخوته بجو من الاعتبار ، لا بسيل مع الانتقادات .

٢ — يجب أن تتميز بدرس الكلمة المقدسة ليجد المؤمن فيها تشجيعاً . وتقدم لنا كلمة الله التشجيع بطريقتين : (أ) إنها تقدم لنا سجلا لمعاملات الله مع شعبه يظهر أن الأفضل لنا أن نعمل الخير مع الله ونتألم ، من أن نفعل الشر مع الناس لنتفادى المتاعب . ذلك أن النجاح النهائى دوماً هو للخير والصلاح ، وأن الهزيمة النهائية هى للشر . وكلمة الله ترينا أن طريق الله ليس سهلا ، ولكنه الطريق الوحيد الذى يجعل حياتنا ذات قيمة فى الحاضر وفى المستقبل ! (ب) وكلمة الله تقدم لنا المواعيد الثمينة . يقال عن ألكسندر هوايت إنه عندما كان يزور عائلة كان يردد لهم آية كتابية قبل خروجه ويقول : « ضع هذه تحت لسانك كقطعة الحلوى » . إن هذه مواعيد الله الذى لا يكسر كلامه ، وفيها القوة لنا لنواجه متاعب الحياة ، فنتعزى فى الأحزان ونتشجع فى الجهاد .

٣ — يجب أن تتميز بالصبر ، الذى هو أبعد من الاحتمال ، لأن معناه « القوة

التى لاتتقبل الأمور فحسب ، بل تحولها إلى مجد » . الصبر هو الكفاءة المنتصرة التى تتحمل ما تجىء به الحياة .

٤ — يجب أن تتميز بالرجاء . والمسيحى واقعى وليس خيالياً ، ولذلك فهو متفائل ، لا تفاؤل الرجاء المبتسر الذى لا يرى صعوبات الحياة ، بل تفاؤل الثقة فى الله المسيطر على مصائر الأمور . رسم « واتس » الرجاء سيدة تعزف على وتر واحد تبقى فى كمانها . إن الرجاء المسيحى يرى كل شىء ويحتمل كل شىء بدون يأس، لأنه رجاء الإيمان بالله . إنه ليس رجاء فى الصلاح الإنسانى أو الإحتمال الإنسانى أو المنجزات الإنسانية ، لكنه الرجاء فى قوة الله .

٥ — يجب أن تتميز الشركة المسيحية بالوفاق. مهما كانت الكنيسة مزخرفة، وموسيقاها رائعة ، وعطاياها سخية ، دون أن تتمتع بالوفاق بين أعضائها ، فهى ليست كنيسة . لانقول إنه ليس فيها اختلاف فى الرأى ، أو ليس فيها مجادلات ولكن نقول إن أعضائها قد حلوا مشكلات « الحياة معا » لأنهم يثقون أن المسيح الذى يوحدهم أعظم من كل الاختلافات التى يمكن أن تقسمهم .

٦ — يجب أن تتميز بالتسبيح ، وأنك تستطيع أن تميز من نبرة صوت الشخص إن كان متذمراً شاكياً أو مسبحاً مبتهجاً . حسناً قال أبكتيتوس : « ماذا أستطيع أن أفعل أنا الرجل العجوز الأعرج إلا أن أسبح الله ؟ » . إن المسيحى يستمتع بالحياة لأنه يستمتع بالله ، وسيظل سر الفرح معه لأنه يعلم أن الله يعمل كل شىء لخيره .

٧ — وتتميز الشركة المسيحية بأنها تأخذ نموذجها وقوتها ومثالها ووحيها من يسوع المسيح الذى لم يُرض نفسه . ويقتبس بولس مزمور ٦٩ : ١٠ . وعندما يقول بولس « أن نحتمل أضعاف الضعفاء » يستعمل نفس الكلمة التى قيلت عن حمل المسيح لصليبه . لقد اختار ملك المجد أن يخدم الآخرين لا أن يسعد نفسه ، فوضع بهذا النموذج الذى يجب أن يحتذيه كل واحد من اتباعه .

لِذَلِكَ اقْبَلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً قَبِلَنَا لِمَجْدِ اللهِ. وَأَقُولُ إِنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ قَدْ صَارَ خَادِمَ الْخِتَانِ مِنْ أَجْلِ صِدْقِ اللهِ حَتَّى يُثَبِّتَ مَوَاعِيدَ الآبَاءِ. وَأَمَّا الأُمَمُ فَمَجَّدُوا اللهَ مِنْ أَجْلِ الرَّحْمَةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَأَحْمَدُكَ فِي الأُمَمِ وَأُرَتِّلُ لاِسْمِكَ. وَيَقُولُ أَيْضاً تَهَلَّلُوا أَيُّهَا الأُمَمُ مَعَ شَعْبِهِ. وَأَيْضاً سَبِّحُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ الأُمَمِ وَامْدَحُوهُ يَا جَمِيعَ الشُّعُوبِ. وَأَيْضاً يَقُولُ إِشَعْيَاءُ سَيَكُونُ أَصْلُ يَسَّى وَالْقَائِمُ لِيَسُودَ عَلَى الأُمَمِ عَلَيْهِ سَيَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ. وَلْيَمْلأْكُمْ إِلَهُ الرَّجَاءِ كُلَّ سُرُورٍ وَسَلاَمٍ فِي الإِيمَانِ لِتَزْدَادُوا فِي الرَّجَاءِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ.

(رومية ١٥ : ٧ — ١٣)

يقدم بولس هنا هذا النداء الأخير فى هذه الرسالة لكل أعضاء الكنيسة ليكونوا واحداً ، ويدعو أقوياء وضعفاء الإيمان ليتحدوا ، ويعلن لليهود والأمم ضرورة إيجاد الشركة المسيحية داخل أسرة الكنيسة . وقد تكون هناك خلافات كثيرة لكن هناك مسيحاً واحداً ، وإخلاصنا له يربطنا معاً . لقد عمل المسيح

لأجل اليهود والأمم معاً . لقد ولد يهودياً وخضع للناموس اليهودى ، وجاء إلى العالم كمواطن يهودى وقد عمل هذا كله ليحقق مواعيد الله لآباء الشعب اليهودى وحتى يجىء الخلاص لليهودى أولا . ولكن مجيئه كان أيضاً لأجل الأمم. ولكى يبرهن بولس هذه الفكرة يقتبس أربع آيات من العهد القديم. وتختلف الكلمات التي يستعملها بولس عنها فى العهد القديم ، لأنه يقتبس من الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية ، وهذه الاقتباسات على التوالى هى من مزمور ١٨ : ٥٠ ، التثنية ٣٢ : ٤٣، مزمور ١١٧ : ١ ، اشعياء ١١ : ١٠ . وفى هذه الاقتباسات الأربعة يجد بولس نبوة بأن الأمم سيقبلون إلى الإيمان. ويعتقد بولس أنه مادام المسيح قد جاء العالم ليخلص كل الناس فإن الكنيسة يجب أن ترحب بكل الناس ، مهما كانت الإختلافات بينهم. لقد جاء المسيح مخلصاً شاملاً ، فلتكن الكنيسة كنيسة شاملة.

ثم يوقع بولس نبرات لحن الإيمان المسيحى ، فتعالوا نراها تتتابع نبرة عذبة بعد الأخرى .

١ - هنا الرجاء : من السهل أن نفشل عندما نقابل الحياة بأحداثها المختلفة . ومن السهل أن نقبل الأوضاع اليائسة والمزائم الموجعة التى لا يستطيع البشر إصلاحها . حكى أحدهم عن اجتماع كنيسة فى وقت كانت الكنيسة تواجه فيه مأزقا ، فافتتح الاجتماع بالصلاة ، وقال القائد : « ياربنا الأزلى القادر ، الذى تكفى نعمتك كل موقف . . » وأكمل صلاته بعبارات مشابهة . ثم بدأ الجانب الإدارى من الاجتماع ، وقدم القائد - الذى صلى - المشكلة قائلاً : « يا إخوتى ، إن حالة كنيستنا هى اليأس بعينه ، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً » . وتعليقنا هو : إما أن القائد لم يقصد ما قاله فى صلاته ، أو أن وصفه لحال الكنيسة كان كاذباً ! لقد قيل إنه لا توجد حالة تدعو إلى اليأس ، لكن بعض الناس وصلوا إلى درجة اليأس من هذه الحالة ! فى أيام الحرب العالمية الثانية ، بعد استسلام فرنسا ، اجتمع مجلس الوزراء البريطانى ، فى أشد أيام الحرب يأساً ، ورسم تشرشل صورة للموقف المظلم ،

وقال إن بريطانيا تقف وحدها . وصمت الجميع ، وارتسم اليأس على الوجوه ، ثم قال تشرشل : « أيها السادة ، إنني أرى هذه الحالة ملهمة ! » .

هناك شيء ما في الرجاء المسيحي يقتل الأشباح المخيفة ، ويعلن لنا أن الله حي . لا يمكن أن يغزونا الفشل ونحن نرى نعمة المسيح وقوة الله .

٢ ـ هنا الفرح: وهناك فرق بين المسرات والفرح. في الأيام القديمة أعلن الفلاسفة الكلبيون أن المسرات شر مستطير ، وقال غيرهم إنهم يفضلون الجنون على الفرح . وكان البرهان الذي يسوقونه على هذا هو أن السرور وقفة بين ألمين ، وقالوا إن الإنسان يشتاق إلى شيء — هذا هو الألم . ويحصل الإنسان على ما يشتاق إليه. وهذا هو السرور ، إلى لحظة، يعقبها شوق إلى شيء آخر — وهذا هو الألم الجديد . وهكذا فإن السرور وقفة بين ألمين ! ولكن الفرح المسيحي لا يعتمد على أشياء من خارج الإنسان أو من الظروف ، بل هو فرح نابع من داخل الإنسان وإحساسه أن الله حي معه ، وأن لا شيء يقدر أن يفصله عن محبة الله .

٣ ـ هنا السلام : ظن القدماء أن السلام هو الحياة بدون مضايقات ، وكانوا يطلبون السكون والصفاء في مواجهة أشواك الحياة وصدماتها . ويمكن أن نقول إن السكون والصفاء صفتان مفقودتان من العالم اليوم وهناك شيئان يضيعانهما: (أ) التوتر الداخلي ، فالناس يعيشون حياة مشدودة ، وكأن الإنسان حرب داخلية أهلية متحركة ، ونفسه هي أرض المعركة . ولا يمكن أن يجد الإنسان السكون والصفاء وسط الحرب الداخلية . والنجاة الوحيدة هنا هي تسليم النفس للمسيح ، وعندما يسود المسيح يزول التوتر . (ب) وهناك القلق على أشياء مختلفة ، مثل الفرص التي تسنح لنا، وتغيرات الحياة . يحكي هـ . ج ويلز أنه كان ذات مرة على سفينة في ميناء نيويورك ، في يوم زاد ضبابه ، وفجأة مرقت سفينة أخرى إلى جوارهم ، لم تفصلها عنهم سوى ياردة واحدة ! وفجأة واجه ويلز ما يدعوه «خطورة الحياة » . ومن الصعب ألا نقلق لأن الإنسان بطبعه يتطلع للأمام ويفترض ويخاف. وعلاج القلق الوحيد هو الاقتناع الكامل بأنه مهما حصل فإن الله لن يدع أولاده

إلى الدموع دوماً . هناك أشياء تحدث معنا يصعب تفسيرها ، ولكن لو كنا واثقين فى محبة الله فإننا نقبل ما يجرح قلوبنا ويحير أفكارنا ، بكل سكون وصفاء!

٤ - هنا القوة : وهى حاجة الإنسان العظمى ، فنحن لا نجهل الذى يجب أن نفعله أو الأشياء الممتازة ، ولكننا لا نفعلها . كيف نجد القوة التى تحول نوايانا ونياتنا إلى وقائع عملية ؟ عندما تنساب قوة الله فى ضعف الإنسان يستطيع أن يصبح سيداً لحياته . من أنفسنا نحن عاجزون ، ولكن مع الله كل شىء ممكن !

الكلمات تكشف الإنسان

وَأَنَا نَفْسِي أَيْضاً مُتَيَقِّنٌ مِنْ جِهَتِكُمْ يَا إِخْوَتِي أَنَّكُمْ أَنْتُمْ مَشْحُونُونَ صَلاَحاً وَمَمْلُوؤُونَ كُلَّ عِلْمٍ . قَادِرُونَ أَنْ يُنْذِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً . وَلٰكِنْ بِأَكْثَرِ جَسَارَةٍ كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ جُزْئِياً أَيُّهَا الإِخْوَةُ كَمُذَكِّرٍ لَكُمْ بِسَبَبِ النِّعْمَةِ الَّتِي وُهِبَتْ لِي مِنَ اللهِ . حَتَّى أَكُونَ خَادِماً لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لأَجْلِ الأُمَمِ مُبَاشِراً لإِنْجِيلِ اللهِ كَكَاهِنٍ لِيَكُونَ قُرْبَانُ الأُمَمِ مَقْبُولاً مُقَدَّساً بِالرُّوحِ الْقُدُسِ . فَلِي افْتِخَارٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ مِنْ جِهَةِ مَا لِلّٰهِ . لأَنِّي لاَ أَجْسُرُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمَسِيحُ بِوَاسِطَتِي لأَجْلِ إِطَاعَةِ الأُمَمِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ . بِقُوَّةِ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ بِقُوَّةِ رُوحِ اللهِ .

حَتَّى إِنِّي مِنْ أُورُشَلِيمَ وَمَا حَوْلَهَا إِلَى إِللِّيرِيكُونَ قَدْ أَكْمَلْتُ التَّبْشِيرَ بِإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ . وَلَكِنْ كُنْتُ مُحْتَرِصاً أَنْ أُبَشِّرَ هٰكَذَا . لَيْسَ حَيْثُ سُمِّيَ الْمَسِيحُ لِئَلاَّ أَبْنِي عَلَى أَسَاسٍ لآخَرَ . بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ الَّذِينَ لَمْ يُخْبَرُوا بِهِ سَيُبْصِرُونَ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْمَعُوا سَيَفْهَمُونَ .

(رومية ١٥ : ١٤ — ٢١)

تكشف هذه الفقرة لنا صفات بولس الرسول، الشخصية، فهو فى نهاية رسالته يهيىء أذهان أهل روما لزيارته التي يرجو أن يقوم بها لهم . وسندرس هذه الفقرة لنعرف أسرار بولس فى ربح الناس .

١ ـ يكشف بولس أنه لبق ، فلا توبيخ هنا ، ولا تذمر ، ولا كلام مثل ناظر المدرسة للتلاميذ . أنه يقول لهم إنه يذكرهم فقط بما يعرفونه ، وهو متأكد أنهم سيقدمون الخدمة لبعضهم البعض وللرب . ويهتم بولس عادة بما يقدر الإنسان أن يفعله أكثر من اهتمامه بما كان الإنسان عليه (أى أنه يهتم بالمستقبل لا بالماضى) . كان بولس يرى العيوب بوضوح ، وكان يعالجها بأمانة ، ولكنه كان دوماً يفكر فى الإنسان الرائع الذى سيكون ، لا الإنسان البائس الذى هو كائن ! يقال إن ميخائيل أنجلو رأى كتلة رخام مهملة ، بلا شكل ، فعزم أن يخرج منها الملاك السجين بداخلها ، وقد أخرج الملاك الذى رأته عيناه داخل الحجر . هكذا كان بولس : لا يريد تشريح الناس وتحطيمهم ، فلا ينتقدهم بالنقد الموجع ، بل يوجههم بالمحبة ليكونوا كما يمكن وكما يجب أن يكونوا .

٢ ـ كان فخر بولس الوحيد أنه خادم للمسيح . والكلمة « خادم » التى يستعملها هنا كانت تطلق على الشخص الذى يكلف بعمل ، أو الذى يتطوع ليقوم

بعمل ، محبة فى بلاده ، وكانت هناك خمسة أعمال يقوم بها الواطنون الصالحون : (ا)خدمة إمداد جوقة الغناء.عندما كان أخيل وسوفوكليس وايريبيدس يقدمون مسرحياتهم الخالدة ، كانوا يحتاجون إلى منشدين . وفى احتفالات مدينة ديونيسيا العظيمة كانوا يعرضون ثمانية عشر عملا مسرحياً جديداً . وكان « محبو الوطن » يتطوعون ليجمعوا ويعلموا ويكلفوا جوقة الغناء ، على نفقتهم الخاصة. (ب)خدمة حمل المشاعل . كان الأثينيون منقسمين على عشر قبائل ، وكانوا رياضيين ممتازين . وفى بعض الأعياد كان حملة المشاعل من إحدى القبائل يتسابقون مع حملة مشاعل القبائل الأخرى . وكان بعض « محبي الوطن » يختارون حملة المشاعل وينفقون على تدريبهم . (ج) الاحتفال بالوليمة ، فكانت بعض القبائل تجتمع معاً لتتناول وجبة طعام معاً وسط مظاهر الفرح . وكان « محبو الوطن » يدفعون تكاليف هذه الوجبة الجماعية ، (د) كانت مدينة أثينا ترسل سفارة إلى مدينة أخرى ، أو لتستشير كاهن مدينة دلفى أو دودونا ، وكان مركب السفارة يجهز بطريقة تحفظ المدينة شرفها ، فكان « محبو الوطن » يدفعون تكاليف هذه السفارة . (هـ) كانت أثينا قوة بحرية عظيمة فى الزمان القديم ، وكان من الشرف العظيم للمواطن أن يتكفل بنفقات سفينة حربية لمدة سنة .

كانت هذه الخدمات الخمس تؤدى بسرور . ولكن بعد وقت ضعفت الروح الوطنية ، فكان الأغنياء يجبرون على أدائها . وتطور استعمال الكلمة فصارت تستعمل عن العبادة وخدمة الله ، ولكنها ظلت تحمل معنى العطاء الكريم . وكما كان الأثينى يضع ماله ونفسه على مذبح خدمته لمحبوبته « أثينا » معتبراً هذا أعظم الشرف ، هكذا وضع بولس كل ما عنده على مذبح خدمة المسيح ، فخوراً بأنه خادم له .

٣ ـ رأى بولس نفسه آلة فى يد المسيح . لم يتكلم عما فعله لخدمة المسيح ، بل عما فعله المسيح من أجله . لم يقل عن شيء : « لقد فعلت هذا » ولكنه قال: « يسوع استخدمنى لأفعل هذا » . لقد تغيرت حياة مودى عندما ذهب إلى اجتماع

وسمع واعظاً يقول : « لو أن إنساناً واحداً أعطى نفسه تماماً ، بدون شروط ، للروح القدس ، فما أعظم ما يقدر الروح القدس أن يعمل به ! » . فقال مودى لنفسه : « لماذا لا أكون أنا هذا الإنسان ؟ » والعالم كله يعرف ما عمل الروح القدس بمودى . عندما يكف الإنسان عن التفكير فى ما يمكن أن يفعله ، ويبدأ فى ما يقدر الروح القدس أن يعمله به ، عندئذ تبدأ النتائج العظيمة فى الظهور .

٤ ـ كان طموح بولس أن يكون رائداً . عندما تطوع لفنجستون ليكون مرسلا سألوه عن المكان الذى يرغب فى الذهاب إليه ، فأجاب : « إلى أى مكان، على أن يكون الموقع متقدماً » وعندما وصل إلى إفريقيا جذبه دخان ألف قرية كان يتصاعد فى الأفق ، من أماكن لم تسمع عن المسيح . كان بولس رائداً يريد أن يوصل الرسالة إلى الذين لم يسبق لهم أن سمعوها . ويقتبس من اشعياء ٥٢ : ١٥ ما يؤكد أنه سيحمل الرسالة إلى آفاق جديدة .

خطط الحاضر والمستقبل

لِذَلِكَ كُنْتُ أُعَاقُ الْمِرَارَ الْكَثِيرَةَ عَنِ الْمَجِيءِ إِلَيْكُمْ. وَأَمَّا الآنَ فَإِذْ لَيْسَ لِي مَكَانٌ بَعْدُ فِي هذِهِ الأَقَالِيمِ، وَلِي اشْتِيَاقٌ إِلَى الْمَجِيءِ إِلَيْكُمْ مُنْذُ سِنِينَ كَثِيرَةٍ. فَعِنْدَمَا أَذْهَبُ إِلَى اسْبَانِيَا آتِي إِلَيْكُمْ. لأَنِّي أَرْجُو أَنْ أَرَاكُمْ فِي مُرُورِي وَتُشَيِّعُونِي إِلَى هُنَاكَ إِنْ تَمَلأْتُ أَوَّلاً مِنْكُمْ جُزْئِيًّا. وَلكِنِ الآنَ أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى أُورُشَلِيمَ لأَخْدُمَ الْقِدِّيسِينَ. لأَنَّ أَهْلَ مَكِدُونِيَّةَ وَأَخَائِيَةَ

اُسْتَحْسَنُوا أَنْ يَصْنَعُوا تَوْزِيعاً لِفُقَرَاءِ الْقِدِّيسِينَ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ . اُسْتَحْسَنُوا ذٰلِكَ وَإِنَّهُمْ لَهُمْ مَدْيُونُونَ . لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْأُمَمُ قَدِ اشْتَرَكُوا فِي رُوحِيَّاتِهِمْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْدِمُوهُمْ فِي الْجَسَدِيَّاتِ أَيْضاً . فَمَتَى أَكْمَلْتُ ذٰلِكَ وَخَتَمْتُ لَهُمْ هٰذَا الثَّمَرَ فَسَأَمْضِي مَارًّا بِكُمْ إِلَى اسْبَانِيَا . وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّي إِذَا جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَأَجِيءُ فِي مِلْءِ بَرَكَةِ إِنْجِيلِ الْمَسِيحِ .

(رومية ١٥ : ٢٢ ــ ٢٩)

يذكر بولس هنا خططه للحاضر والمستقبل أيضاً :

١ ــ كان يريد أن يذهب إلى أسبانيا ، ولهذا سببان : أولهما أن أسبانيا فى أقصى غرب أوربا ، على حافة العالم المتحضر ، وبولس يريد أن يصل إلى أقصى العالم المعروف . ثم أنه يريد أن يوصل الخبر المفرح إلى كل مكان ممكن .

٢ ــ فى ذلك الوقت كانت أسبانيا تتمتع بوجود العبقرية ، وكان بعض عظماء رجال الإمبراطورية من الأسبان ، منهم لوكان شاعر الملاحم ، ومارسيان سيد من كتب الأبيغرام (قصيدة قصيرة مختتمة بفكرة بارعــــة أو ساخرة) ، وكونتليان أستاذ الخطابة ، وفوق الكل سنيكا الفيلسوف الرواقى العظيم الذى كان وصياً على الإمبراطور نيرون ثم رئيساً لوزرائه . وكأن بولس يقول لنفسه : إن زيارتى لأسبانيا ، لأجل المسيح ، ستنتج نتائج عظيمة !

٣ ــ كانت خطة بولس العاجلة أن يذهب لأورشليم لأداء خدمة عزيزة على

قلبه . كان قد خطط لجمع تبرعات من الكنائس الحديثة لمساعدة كنيسة أورشليم الفقيرة . وكانت هذه التبرعات لازمة ، لأن كل الأعمال المدرة للربح فى أورشليم كانت مرتبطة بالهيكل ولوازمه ، وكانت كلها تحت إشراف الكهنة والقادة والصدوقيين ، وهؤلاء كانوا أعداء المسيحية . وهذا يعنى أن الذى يعتنق المسيحية فى أورشليم يفقد وظيفته ، ويصبح محتاجاً . فكان لازماً أن تتبرع الكنائس المختلفة لمساعدة مسيحى أورشليم . ولكن كان هناك على الأقل ثلاثة أسباب تدفع بولس لحمل هذه التبرعات إلى كنيسة أورشليم (١) كان يرى فيها سداداً لدين وواجباً مسيحياً . فعندما أعلن الله له أنه يكون رسول الأمم وافقه قادة الكنيسة ، على شرط أن يذكر الفقراء (غلاطية ٢ : ١٠) وكان بولس راغباً فى الوفاء بالوعد وسداد الدين . وها قد جاءت الفرصة لسداد جزء من دينه .

(ب) كان يرى فيها أمثولة للوحدة الكنسية، فليست الكنائس الجديدة وحدات متناثرة منعزلة ، لكنها جزء من الكنيسة الواحدة المتحدة فى العالم كله . ومن بركات مثل هذا العطاء أن نشعر أننا لسنا أعضاء كنيسة محلية محدودة ، لكن من كنيسة عامة منتشرة فى كل العالم . (جـ) كانت هذه الطريقة للتعبير العملى عن المحبة المسيحية • من السهل أن نتكلم عن الكرم المسيحى وأن نعظ عنه ، ولكن العطاء فرصة لتحويل الكلمات المسيحية إلى أعمال مسيحية •

لما كان بولس فى طريقه إلى أورشليم كان يخطط لرحلة أسبانيا ، ونحن نعلم أن بولس لم يصل إلى أسبانيا ، فعندما وصل إلى أورشليم واجهته المتاعب التى قادت إلى سجنه الطويل ثم موته . يبدو أن هذه كانت واحدة من خطط الرائد العظيم التى لم تتبلور إلى واقع !

فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا ٱلإِخْوَةُ بِرَبِّنَا يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ
وَبِمَحَبَّةِ الرُّوحِ أَنْ تُجَاهِدُوا مَعِي فِي ٱلصَّلَوَاتِ مِنْ أَجْلِي
إِلَى اللهِ . لِكَيْ أُنْقَذَ مِنَ الَّذِينَ هُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ فِي
الْيَهُودِيَّةِ وَلِكَيْ تَكُونَ خِدْمَتِي لأَجْلِ أُورُشَلِيمَ
مَقْبُولَةً عِنْدَ الْقِدِّيسِينَ . حَتَّى أَجِيءَ إِلَيْكُمْ بِفَرَحٍ
بِإِرَادَةِ اللهِ وَأَسْتَرِيحَ مَعَكُمْ . وَإِلهُ السَّلاَمِ مَعَكُمْ
أَجْمَعِينَ . آمِينَ .

(رومية ١٥ : ٣٠ ـ ٣٣)

قلنا فى تعليقنا فى ختام الفقرة السابقة إن خطة بولس لزيارة أسبانيا لم تتحقق، فإنه عندما ذهب إلى أورشليم ألقى القبض عليه وسجن مدة أربع سنوات ، سنتين فى قيصرية وسنتين فى روما . وهنا تتضح عظمة شخصية بولس :

١ — عندما ذهب بولس إلى أورشليم كان يعرف مايفعله ، عالماً بالمخاطر التى تنتظره ، فإنه كان ذاهباً إلى عرين الأسد برجليه ، واضعاً نفسه فى يد القوة التى تكرهه ، ولكنه كان يفعل ماسبق سيده أن فعله ، عندما ثبت وجهه ليذهب إلى أورشليم (لوقا ٩ : ٥١) . إن قمة الشجاعة هى أن نعرف أن المخاطر تنتظرنا ولكننا نذهب لنلبى نداء الواجب . كانت هذه شجاعة المسيح ، وشجاعة بولس، والتى يجب أن تكون شجاعة كل مسيحى يتبع المسيح .

٢ — لهذا طلب بولس صلوات أهل روما لأجله ، فما أجمل أن يمضى إنسان إلى المخاطر عالماً أنه محاط بدفء صلوات محبيه . ومهما فصلتنا المسافات عن محبينا

ومهما كانت المخاطر التى تواجهنا ، فإننا وإياهم يمكن أن نلتقى حول عرش نعمة الله .

٣ — ويترك بولس البركة لأهل روما ، فقد كان قادراً على عمل هذا . ومهما كنا فقراء ، فإننا نقدر أن نرفع أصحابنا وأحباءنا فى الصلاة .

٤ — أرسل بولس إلى أهل روما بركات إله السلام ، وفى محضر الله ذهب بولس إلى أورشليم بسلام رغم المخاطر التى كانت تهدده . وكل من له سلام الله فى قلبه يقدر أن يواجه مخاطر الحياة بشجاعة لا تعرف الخوف !

خطاب توصية

أُوصِي إِلَيْكُمْ بِأُخْتِنَا فِيبِى الَّتِي هِيَ خَادِمَةُ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي كَنْخَرِيَا . كَيْ تَقْبَلُوهَا فِي الرَّبِّ كَمَا يَحِقُّ لِلْقِدِّيسِينَ وَتَقُومُوا لَهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ احْتَاجَتْهُ مِنْكُمْ لِأَنَّهَا صَارَتْ مُسَاعِدَةً لِكَثِيرِينَ وَلِي أَنَا أَيْضاً .

(رومية ١٦ : ١ ، ٢)

عندما يطلب أحد الناس وظيفة فإنه يحصل على رسائل توصية من أصدقاء يعرفونه ويعرفون شخصيته ومقدراته . وعندما يسافر شخص إلى بلد غريب يأخذ رسائل توصية إلى أشخاص فى تلك البلد . وكانت رسائل التوصية معروفة فى العالم القديم ، وقد وصلت إلينا مجموعة كبيرة من هذه الرسائل مكتوبة على ورق البردى ، وجدت فى رمال صحارى مصر ، فهناك رسالة من زارع زيتون مصرى اسمه ميستاويون ، يرسل خادمه لعمل خاص إلى رئيس الكهنة المدعو

ستوتويتس ويعطيه رسالة توصية ، يقول فيها : « من ميستاريون إلى صديقه ستوتويتس ، سلام كثير ، لقد أرسلت اليك بلاستس ليحضر لى عصا المذراة لنعمل فى مزارع زيتونى ، رجاء عـدم تأخيره لأنك تعرف مقدار حاجتى إليه الآن . . مرسل إلى ستوتويتس رئيس كهنة الجزيرة » . كانت هذه رسالة توصية ببلاستس ليؤدى عملا معيناً . وهكذا يوصى بولس بفيبى إلى كنيسة روما.

جاءت فيبى من كنخريا ميناء كورنثوس ، ويطلق عليها أحياناً لقب « شماسة » لـكن من المشكوك فيه أنها احتلت وظيفة رسمية فى الـكنيسة . غير أن عمل النساء كان هاماً فى الـكنيسة فى كل عصورها ، خصوصاً فى أيام الـكنيسة الأولى . ولابد أن النساء لعبن دوراً هاماً فى خدمة المعمودية بالتغطيس ، وزيارة المرضى ، وتوزيع الطعام على الفقراء ، غير أنهن لم يتبوأن وظائف رسمية .

ويطلب بولس من أهل روما أن يرحبوا بفيبى كما يجب أن يرحب أعضاء الـكنائس ببعضهم ، فلا غرباء فى عائلة المسيح ، كما أنهم غير محتاجين إلى التعارف الرسمى لأنهم أبناء الأب الواحد ، فهم إخوة وإخوات . على أن الـكنيسة لا تقدم دوماً الترحيب الذى يجب أن تقدمه ، فإن أعضاء الـكنائس وسائر التنظيمات الـكنسية تميل إلى التقوقع على نفسها والانغلاق على ذاتها ، فلا ترحب بالغرباء . إن بولس هنا يوصينا أنه عندما يجىء إلينا غريب فيجب أن يلقى عندنا كل ترحيب !

البيت الذى كان كنيسة

سَلِّمُوا عَلَى بِرِيسْكِلاَّ وَأَكِيلاَ الْعَامِلَيْنِ مَعِى فِى الْمَسِيحِ يَسُوعَ . اللَّذَيْنِ وَضَعَا عُنُقَيْهِمَا مِنْ أَجْلِ حَيَاتِى اللَّذَيْنِ لَسْتُ أَنَا وَحْدِى أَشْكُرُهُمَا بَلْ أَيْضاً جَمِيعُ كَنَائِسِ الأُمَمِ . وَعَلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِى فِى بَيْتِهِمَا .

(رومية ١٦ : ٣ ، ٤)

يعتبر أكيلا وزوجته بريسكلا أشهر زوجين فى العهد الجديد . ولندرس الحقائق الثابتة عنهما : أول مانقرأ عنهما فى الأعمال ١٨ : ٢ ونعلم أنهما كانا من سكان روما ، ولكن الإمبراطور كلوديوس أصدر أمره عام ٥٢ م بطرد كل اليهود من روما . وقد كان اليهود مكروهين من العالم القديم كما أنهم مكروهون اليوم ! وعندما طرد اليهود من روما استقر أكيلا وبريسكلا فى كورنثوس ، حيث اشتغلا فى صنع الخيام . ولما كان بولس صانع خيام فقد استقر عندهما فى كورنثوس . وعندما ترك بولس كورنثوس واستقر فى أفسس ذهب أكيلا وبريسكلا معه إليها (أعمال ١٨ : ١٨) وقد جرت هناك حادثة تكشف عن شخصيتهما ، فقد جاء إلى أفسس عالم لامع اسمه أبولس ، لم يكن يعرف كل حقائق الإيمان المسيحى ، فأخذاه إلى بيتهما وعلماه حقائق الإيمان (أعمال ١٨ : ٢٤ ـ ٢٦) . من هذا نرى أن أكيلا وبريسكلا زوجته كانا صاحبى القلب والبيت المفتوحين .

وعندما كتب بولس رسالته الأولى إلى كورنثوس من أفسس كان أكيلا وبريسكلا لا يزالان فى أفسس ، فأهدى سلام الكنيسة التى فى بيتهما إلى أهل كورنثوس (١ كورنثوس ١٦ : ١٩) . كان هذا قبل بناء الكنائس ؛ فكان البيت مكان الاجتماع التعبدى . ثم نسمع بعد ذلك أنهما فى روما ، كما يتضح من

هذه الرسالة ، ولابد أن أمر كلوديوس بخروج اليهود من روما لم يعد ساري المفعول ، فعاد أكيلا وبريسكلا مع يهود آخرين إلى روما ، إلى بيوتهم القديمة وعملهم القديم . وفي روما مارسا ماسبق لهم ممارسته ، فقد فتحا بيتهما للكنيسة . ثم نقرأ في ٢ تيموثاوس ٤ : ١٩ أنهما عادا إلى أفسس ، ويرسل بولس إليهما سلاماً دافئاً ، فقد عملا معه كثيراً .

لقد عاش أكيلا وبريسكلا عيشة التنقل . كان أكيلا قد ولد في بنتس في آسيا الصغرى (أعمال ١٨ : ٢) وتزوج وعاش في روما ، ثم كورنثوس ، ثم في أفسس ، وعاد إلى روما ، وأخيراً استقر به المقام في أفسس . ولكن حيثما سكنا جعلا بيتهما كنيسة ومركزاً للعبادة والشركة المسيحية . ويجب أن يكون كل بيت كنيسة ، مكاناً لسكنى المسيح . وقد شع من بيتهما نور الصداقة والشركة والود . وما أجمل أن يجد الغريب أصدقاء يأوى إلى بيوتهم ، حيث تزول وحدته ويجد الحماية من التجارب . ربما تفتكر أن البيت مكان يلجأ إليه الإنسان ليغلق الباب من خلفه ليستريح ، لكن البيت أيضاً مكان الضيافة والباب المفتوح ، وهي صفات البيت المسيحي .

هذا مانعرفه بالتأكيد عن أكيلا وبريسكلا ، لكن ربما كانت هناك قصة خيالية عظيمة خلف هذا . فإلى هذا اليوم توجد كنيسة في روما اسمها « كنيسة القديسة بريسكلا على الافنتين » ، كما كانت هناك مدفنة لبريسكلا ، وهي مدفنة الأسرة الرومانية القديمة المعروفة باسم « عائلة أكيلا » وهناك يرقد جثمان أكيليوس جلابريو الذى كان قنصلا رومانياً عام ٩١ م ، وهي من أعلى الوظائف الرومانية ، وأغلب الظن أن أكيليوس جلابريو مات كشهيد مسيحي ، ولعله من أوائل النبلاء الرومان الذين استشهدوا في سبيل المسيح . ومن المعروف في روما القديمة أنه عندما كان أحد الناس ينال حريته كان يطلق على نفسه اسم إحدى العائلات العظيمة في البلد . وكان أحد الأسماء النسائية المشهورة في عائلة أكيليوس اسم « بريسكلا » . وهنا نرى احتمالين :

١ — ربما نال أكيلا وزوجته بريسكلا حريتهما من سيد رومانى اشتراهما من عائلة أكيليوس — فهل يمكن أنهما زرعا بذور الإيمان المسيحى فى تلك العائلة حتى ربحا القنصل الرومانى ؟ وهل يمكن أن يكون هذان الزوجان العامل على وصول الإيمان إلى بيت رجل نبيل بعد أن ربحاه للمسيح، فحذا أولاده حذوه؟

٢ — وربما كانت هناك قصة خيالية أخرى خلف هذين الإسمين — فى أربعة مواضع من ستة مواضع ورد فيها اسم أكيلا وبريسكلا فى العهد الجديد يجىء اسم الزوجة أولا ، ولو أن العادة جرت أن يجىء إسم الزوج أولاً — فهل يمكن أن بريسكلا كانت سيدة نبيلة تنحدر من العائلة الأكيلية المشهورة ، وأنها التقت فى إحدى الإجتماعات المسيحية بأكيلا اليهودى صانع الخيام فخطمت المسيحية فروق العنصر والعرق والغنى والبلاد ، فتزوجت الرومانية الارستقراطية من العامل اليهودى ، بعد أن ربطتهما المسيحية إلى الأبد برباط الحب المسيحى والخدمة المسيحية ؟

بالطبع لن نكون متأكدين من أى من هذين الإحتمالين ، ولكن الذى نحن فى تأكيد منه أن المئات فى كل من روما وكورنثوس وأفسس مدينون بحياتهم الروحية إلى هذين الزوجين اللذين جعلا من بيتهما كنيسة !

لكل اسم مدحه

سَلِّمُوا عَلَى أَبِينِتُوسَ حَبِيبِي الَّذِي هُوَ بَاكُورَةُ أَخَائِيَةَ لِلْمَسِيحِ . سَلِّمُوا عَلَى مَرْيَمَ الَّتِي تَعِبَتْ لِأَجْلِنَا كَثِيراً . سَلِّمُوا عَلَى أَنْدَرُونِكُوسَ وَيُونِيَاسَ نَسِيبَيَّ الْمَأْسُورَيْنِ مَعِي اللَّذَيْنِ هُمَا مَشْهُورَانِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَقَدْ كَانَا فِي الْمَسِيحِ قَبْلِي .

سَلِّمُوا عَلَى أَمْبِلِيَاسَ حَبِيبِي فِي الرَّبِّ . سَلِّمُوا عَلَى أُورْبَانُوسَ الْعَامِلِ مَعَنَا فِي الْمَسِيحِ وَعَلَى إِسْتَاخِيسَ حَبِيبِي

سَلِّمُوا عَلَى أَبَلِّسَ الْمُزَكَّى فِي الْمَسِيحِ . سَلِّمُوا عَلَى الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ أَرِسْتُوبُولُوسَ . سَلِّمُوا عَلَى هِيرُودِيُونَ نَسِيبِي . سَلِّمُوا عَلَى الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ نَرْكِيسُوسَ الْكَائِنِينَ فِي الرَّبِّ

(رومية ١٦ : ٥ — ١١)

لا شك أنه خلف كل اسم من هذه توجد قصة حب عظيمة للمسيح ، ونحن لا نعرفها ، ولكننا نخمنها . فى هذا الأصحاح ورد إسم أربعة وعشرين شخصا وهناك ملحوظتان عامتان :

١ — من الأربعة والعشرين إسماً هناك ست نساء . وبولس متهم عادة أنه يحقر من شأن النساء . ولكن إن أردنا أن نرى مشاعر بولس من نحو النساء فلنتأمل مثل هذه الفقرة ، فإن سعادته بخدمتهن فى الكنيسة تلمع من خلال كلماته !

٢ — ثلاثة عشر إسماً من الأسماء الأربعة والعشرين هى أسماء أشخاص متصلين بالقصر الأمبراطورى فى روما . وبعض الأسماء عادية ، لكنها توحى لنا بأشياء . فى فيلبى ٤ : ٢٢ يتحدث بولس عن القديسين الذين من بيت قيصر . ولربما كانوا عبيداً ، لكن الحقيقة الهامة هى أن المسيحية تغلغلت حتى فى القصر الإمبراطورى وفى العائلة الأمبراطورية .

أما أندرونكوس ويونياس فإسمان يلفتان النظر ، فيونياس اسم نسائى .

إذاً فقد ورد ذكر اثنين بين الرسل الذين أرسلتهم الكنيسة ليخبروا برسالة المسيح على نطاق واسع . ويقول بولس إنهما آمنا بالمسيح قبل أن يؤمن هو ، وهذا يعني أنهما يرجعان في إيمانهما إلى وقت إيمان استفانوس ، ولابد أنهما كانا متصلين بكنيسة أورشليم .

ولابد أن قصة طريفة تكمن خلف اسم أمبلياس ، فهو إسم مشهور للعبيد . ونجد في مقبرة دوماتيلا ، أشهر مقابر المسيحيين الأولين ، قبراً مزيناً لأمبلياس ، عليه إسم صاحبه بالخط المزخرف . ولما كان المواطن الروماني يكتب على قبره إسمه الثلاثي ، فإن أمبلياس كان عبداً (لأن أسمه فقط هو المكتوب) ، غير أن الخط المزخرف للاسم يعني أن صاحبه كان ذا مكانة عظيمة في الكنيسة ، وهذا يرينا أن الكنيسة لم تفرق بين سيد وعبد ، فقد يصير الشخص أحد أمراء الكنيسة بينما ينتسب (حسب الجسد) إلى طائفة العبيد ، فقد أزالت الكنيسة الفروق الإجتماعية . ونحن لا نملك الدليل على أن أمبلياس حبيب بولس هو أمبلياس صاحب القبر ، في مقبرة دوماتيلا ، لكن هذا محتمل !

أما « أهل ارستوبولوس » فإن خلف اسمهم قصة طريفة ، فإن « أهل » لم تكن تعني أفراد الأسرة الصغيرة ، لكنها كانت تشتمل على العبيد والخدم . وقد عاش في روما أحد أحفاد هيرودس ، وإسمه أرستوبولوس . عاش وحيداً دون أن يرث لقب هيرودس أو أي شيء من أملاكه ، غير أنه كان صديقاً للامبراطور كلوديوس . ولذلك فان ثروته وعبيده بعد موته أصبحوا ملكاً للامبراطور ، على أن يطلق عليهم « اهل ارستوبولوس » . وعلى هذا فان هذه العبارة يمكن أن تعني « العبيد والخدم الذين كانوا لارستوبولوس » حفيد هيرودس ، والذين صاروا الآن من ممتلكات الأمبراطور . ولعل صحة هذا الإحتمال نابعة من أن هذا الأسم يتوسط إسمي أبلس وهيروديون ، وأبلس قد يكون الأسم اليوناني للاسم اليهودي « هابيل » كما أن هيروديون يحمل الارتباط بعائلة هيرودس .

أما « أهل نركيسوس » فقد تحمل قصة أخرى ، فنركيسوس إسم مشهور لأناس عديدين ، أشهرهم العبد الذى حرره كلوديوس وجعله سكرتيراً له ، فكان صاحب نفوذ على الإمبراطور ، ويُقال إنه جمع ثروة تقدّر بأربعة ملايين جنيه إسترليني . وكان مصدر سلطانه أن كل بريد الإمبراطور كان يمرّ عليه قبل عرضه على الإمبراطور ، ولم يكن يصل للامبراطور إلا بموافقته ، وقد شكلت رشاوى الناس له هذه الثروة الضخمة . وعندما قتل كلوديوس وتولى نيرون العرش بقى نركيسوس وقتاً قليلا ، ثم اضطره نيرون إلى أن ينتحر ، وأخذ ثروته وعبيده . ولعل عبيد نركيسوس هم المذكورين هنا . فإن كان أرستوبولوس هو فعلا حفيد هيرودس ، ونركيسوس هو فعلا سكرتير كلوديوس ، فإن هذا يعنى أن عدداً كبيراً من العبيد فى القصر الإمبراطورى كانوا مسيحيين ، وتكون خميرة المسيحية قد وصلت إلى أعلى الدوائر فى بيت قيصر !

محبة مختفية

سَلِّمُوا عَلَى تَرِيفَيْنَا وَتَرِيفُوسَا التَّاعِبَتَيْنِ فِي الرَّبِّ . سَلِّمُوا عَلَى بَرْسِيسَ الْمَحْبُوبَةِ الَّتِي تَعِبَتْ كَثِيراً فِي الرَّبِّ ، سَلِّمُوا عَلَى رُوفُسَ الْمُخْتَارِ فِي الرَّبِّ وَعَلَى أُمِّهِ أُمِّي . سَلِّمُوا عَلَى أَسِينْكِرِيتُسَ فِلِيغُونَ هَرْمَاسَ بَتْرُبَاسَ وَهَرْمِيسَ وَعَلَى الإِخْوَةِ الَّذِينَ مَعَهُمْ . سَلِّمُوا عَلَى فِيلُولُوغُسَ وَجُولِيَا وَنِيرِيُوسَ وَأُخْتِهِ وَأُولُمْبَاسَ وَعَلَى جَمِيعِ

الْقِدِّيسِينَ الَّذِينَ مَعَهُمْ . سَلِّمُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِقُبْلَةٍ مُقَدَّسَةٍ . كَنَائِسُ الْمَسِيحِ تُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ .

(رومية ١٦ : ١٢ — ١٦)

لاشك أنه توجد قصة خلف كل اسم من هذه الأسماء ، ولكننا نقدر أن نخمن ونبنى القصص عن بعضها فقط :

١ — عندما أرسل بولس تحياته إلى تريفينا وتريفوسا — وهما غالباً أختان توأمتان — أرسلها بابتسامة ؛ تتضح من تركيب الجملة التى صاغ فيها سلامه . فقد استعمل بولس كلمة نترجمها « تعب » عن مريم (فى آية ٦) وعن تريفينا وتريفوسا وبرسيس ، فى هذه الفقرة . وهى كلمة تعنى العمل لدرجة الإرهاق . . أى أن يعطى الشخص العمل كل طاقته حتى يدركه التعب . هذا ما عملته كل من تريفينا وتريفوسا التى يعنى أسماها « اللذيذة » و « الرقيقة » . لقد عملتا كل الجهد حتى الإعياء لأجل المسيح والكنيسة . ونقدر أن نرى الإبتسامة تلمع فى عينى بولس وهو يرسل تحياته إليهما .

٢ — وهناك قصة محبة عظيمة خلف إسم روفس وأمه التى يقول بولس عنها إنها أمه . ولقد كان روفس معروفاً بالتقوى والشجاعة فى كنيسة روما ، وكان بولس يشعر بالدين الكبير الذى فى عنقه إلى روفس وأمه الكريمة . ولكن من هو روفس ؟ . فى مرقس ١٥ : ٢١ نقرأ عن سمعان القيروانى الذى سخروه ليحمل صليب يسوع على طريق الجلجثة ، وهو أبو ألكسندرس وروفس . وعندما يعرف شخص باسم ابنه فإن هذا يعنى أنه غير معروف للمكتوب إليهم ، بينما ابنه معروف لهم . فلأى كنيسة كتب مرقس إنجيله ؟ الأغلب أنه كتب لكنيسة روما ، حيث كان ألكسندرس وروفس معروفين . وها نحن نجد روفس ابن حامل الصليب . ولابد أن ذلك اليوم كان قاسياً على سمعان ، اليهودى القادم

من القيروان (ليبيا) . ولابد أنه قضى نصف عمره يوفر نفقات السفر لأداء عيد الفصح فى أورشليم . وعندما وصل إليها أخذته عظمة الاحتفال وفجأة لمست حربة جندى رومانى كتفه ، وكان هذا يعنى تكليفه بخدمة . وإذا به يكلف بحمل صليب مجرم . ولابد أن الكراهية ملأت جوانحه ! هل جاء من القيروان ليؤدى هذا العمل ؟ ! لقد جاء ليحتفل بالفصح ، وها هو يحمل العار . وحالما وصل إلى الجلجثة ألقى بحمله وأسرع ليبتعد . ولكن لابد أن شيئاً حدث له ، فقد لمس حامل الصليب قلبه ، فانجذب إلى الأبد إلى ذلك المصلوب ، وهكذا غيرت مواجهة الجلجثة حياته كلها . لقد جاء ليحتفل بعشاء الفصح ، وعاد عبداً للمسيح . ولابد أنه عاد إلى بيته ليشارك زوجته وولديه اختباره الجديد . ويمكن أن نصيغ مختلف القصص حول هذه الفكرة . إذ نقرأ فى أعمال ١١ : ٢٠ أن رجالا من قبرس والقيروان ذهبوا لأنطاكية وبشروا الأمم ، فهل كان سمعان أحد القيروانيين ؟ وهل كان روفس معه ؟ وهل أخذا على عاتقيهما المسئولية الضخمة فى توصيل الإنجيل للعالم كله ؟ وهل ساعدا الكنيسة لتخرج خارج الحدود الضيقة التى كانت اليهودية تريد حصرها فيها ؟ وهل يمكن أن نكون اليوم مديونين فى وصول الرسالة لنا إلى أشخاص من القيروان ، حمل أحدهم الصليب قسراً فى طريق الجلجثة ؟ ولنعد إلى أفسس حيث قامت مظاهرة صـــاخبة تأييداً لإلهة أفسس « أرطاميس » (ديانا) محاولة قتل بولس . فمن تصدى لمواجهتهم ؟ رجل إسمه « اسكندر » (أعمال ١٩ : ٣٣) ـ فهل هو شقيق روفس يحاول أن يدافع عن بولس ؟ أما أم روفس فقد عاونت بولس وأراحته فى وقت حاجة وشدة ، عندما رفضته عائلته لأنه صار مسيحياً .

ربما كان كل هذا مجرد تخمين ، لأن إسم اسكندر وروفس إسمان مشهوران . ولكن ربما كان ماقلنا صحيحاً ، بعد التغيير الذى حدث فى طريق الجلجثة .

٣ — بقى إسم آخر ، ربما كانت وراءه قصة عظيمة ، هو نيريوس ، فقد حدثت فى روما عام ٩٥ م حادثة هزت روما ، فقد أدين شخصان بارزان فى روما

بتهمة اعتناق المسيحية ، هما رجل وزوجته . إسم الرجل فلافيوس كلمنز وكان أحد القناصل . أما زوجته فكانت من العائلة المالكة وإسمها دوماتيلا ، حفيدة فسباسيان الإمبراطور السابق ، وابنة أخ دومتيان الإمبراطور الحاكم ، وكان ابنا فلافيوس ودوماتيلا مرشحين ليخلفا الإمبراطور دومتيان فى حكم الإمبراطورية . وقد أعدم فلافيوس ، ونفيت دوماتيلا إلى جزيرة بونتيا . والذى دعانا لنورد هذا هو أن إسم باور (حاجب) فلافيوس هو « نيريوس » . ومن الممكن أن نيريوس كان عبداً لهما ، قادهما إلى الإيمان المسيحى . وهناك شىء آخر : كان والد فلافيوس كلمنز (المسيحى الذى أعدم) يدعى فلافيوس سابينوس ، وكان أميناً لمدينة روما فى عهد الإمبراطور نيرون الذى أحرق روما عام ٦٤ م . وألصق تهمة إحراقها بالمسيحيين . ولابد أن فلافيوس سابينوس ، بحكم وظيفته ، كان مشرفاً على اضطهاد المسيحيين . وقد أمر نيرون بطلاء بعض المسيحيين بالقار لإحراقهم ليضىء حدائق قصره ، كما أمر بإلقاء بعضهم للكلاب المتوحشة لتمزيق أجسادهم ، وأمر بربط بعضهم فى سفن يتم إغراقها فى نهر التيبر .. ترى هل تأثر فلافيوس كلمنز وهو يرى شجاعة أولئك الشهداء ، وسأل نفسه عن سرها ؟

نداء أخير للمحبة

وَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تُلاَحِظُوا الَّذِينَ يَصْنَعُونَ الشِّقَاقَاتِ وَالْعَثَرَاتِ خِلاَفاً لِلتَّعْلِيمِ الَّذِي تَعَلَّمْتُمُوهُ وَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ . لأَنَّ مِثْلَ هؤُلاَءِ لاَ يَخْدِمُونَ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحَ بَلْ بُطُونَهُمْ . وَبِالْكَلاَمِ الطَّيِّبِ وَالأَقْوَالِ الْحَسَنَةِ يَخْدَعُونَ قُلُوبَ السُّلَمَاءِ . لأَنَّ طَاعَتَكُمْ ذَاعَتْ إِلَى الْجَمِيعِ . فَأَفْرَحُ أَنَا بِكُمْ وَأُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا

حُكَمَاءَ لِلْخَيْرِ وَبُسَطَاءَ لِلشَّرِّ . وَإِلَهُ السَّلَامِ سَيَسْحَقُ الشَّيْطَانَ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ سَرِيعاً . نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَكُمْ . آمِينَ .

(رومية ١٦ : ١٧ — ٢٠)

يبدو أن بولس وجد صعوبة فى إنهاء رسالة رومية ، فبعد أن سجل التحيات عاد ليسجل نداء أخيراً للمحبة ، محذراً أهل روما من التأثيرات الشريرة . وهو يبرز أمرين ضارين للكنيسة وللشركة الروحية بها :

١ ـــ هناك من يصنعون شقاقات بين الإخوة ، وكل من يهدد سلام الكنيسة سيعطى حساباً عما يفعل . كان قسيس يزور عائلة انتقلت حديثاً إلى مدينته ليرحب بها ، فقال رب العائلة للقسيس : « هل تعرف كنيسة كذا ؟ » فأجاب القسيس : « نعم ، أعرفها جيداً » . فقال الرجل . « كنت عضواً بها ، لكنى اخربتها » . هناك من يفتخرون بالشقاق الذى يصنعونه ويبذور الخصام التى يزرعونها . ولكن لا بد أن من يفعلون هذا يجاوبون المسيح عما فعلوه عندما يحاسبهم يوم الدين !

٢ ـ هناك من يضعون عثرات ومعطلات للآخرين . وكل من يجعل الطريق صعبة أمام الآخرين سيعطي حساباً عما يفعل . هناك من يعطى بتصرفه مثلا سيئاً ، وهناك من يعلم تعليماً فاسداً ، وهناك من يشجع الخطأ . ويقول المسيح إن الويل لمن تأتى به العثرات !

ونجد فى هذه الفقرة كلمتين هامتين . هنا كلمة « بالكلام الطيب » وفى اليونانية تعنى « كلام من يتكلم حسناً ويتصرف رديئاً » فهو خلف الكلام الحلو فاعل إثم ، وصاحب تأثير سيء ومضلل . لا عن طريق الهجوم المباشر ، بل عن طريق الكلام المعسول . كما نجد كلمة « بسطاء للشر » . والبسيط فى

اليونانية تعني غير المغشوش ، مثل اللبن الذى لم يختلط بالماء . إنها تصف الصفاء والنقاء . والمسيحى هو الشخص الذى تقف أمانته فوق كل الشكوك !

ونلاحظ أن المشكلة التى تواجهها كنيسة روما كامنة لم تظهر بعد فى نشاط علنى ، وبولس يقول إن الكنيسة تقدر أن تواجهها . ومن هنا نرى بولس الراعى الحكيم الذى يعرف أن الوقاية خير من العلاج . فى معظم الكنائس تستفحل المشاكل لأن أحداً فيها لايجد الشجاعة الكافية لمواجهة هذه المشاكل فى بدئها ، وعندما تكبر المشكلة لايجدى معها الحل . يمكن أن نطفىء الشرارة لو عالجناها فى مبدها ، ولكن يكاد يكون من المستحيل إطفاء حريق شب فى غابة . لقد تصدي بولس للمشكلة قبل أن تتفاقم .

وتنتهى هذه الفقرة بفكرة جميلة . يقول بولس إن إله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلهم سريعاً . ونلاحظ أن سلام الله سلام عامل ، منتصر . هناك سلام مؤسس على الهروب من المشاكل ، ورفض إتخاذ القرارات وغلق العيون عن الأمور التى يجب معالجتها . هذا سلام عاطل لأنه يتحاشى معالجة الأمور . ولكن المسيحى يجب أن يذكر أن سلام الله ليس سلام التسليم للعالم ! بل السلام الذى يغلب العالم !

تحيات

يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ تِيمُوثَاوُسُ الْعَامِلُ مَعِي وَلُوكِيُوسُ وَيَاسُونُ وَسُوسِيبَاتْرُسُ أَنْسِبَائِي . أَنَا تَرْتِيُوسُ كَاتِبُ هٰذِهِ الرِّسَالَةِ أُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ فِي الرَّبِّ . يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ غَايُسُ مُضَيِّفِي وَمُضَيِّفُ الْكَنِيسَةِ كُلِّهَا

يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ أَرَاسْتُسُ خَازِنُ الْمَدِينَةِ وَكُوَارْتُسُ الأَخُ.
نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَ جَمِيعِكُمْ. آمِينَ.

(رومية ١٦ : ٢١ — ٢٣)

من الصعب أن نعرّف جماعة الأصدقاء المحيطين ببولس الذين يهدون السلام ، ولكننا نعرف تيموثاوس ساعد بولس الأيمن ، الذى كان بولس يعتبره خليفته ، والذى كان الوحيد الذى يدرك أفكار بولس (فيلبى ٢ : ١٩ ، ٢٠) . أما لوكيوس فقد يكون لوكيوس القيروانى أحد أنبياء ومعلمى كنيسة أنطاكية الذين اشتركوا فى إرسال بولس وبرنابا لرحلتهما التبشيرية (أعمال ١٣ : ١) . وقد يكون ياسون هو الذى استضاف بولس فى تسالونيكى وتألم على يد الجمهور الناضب (أعمال ١٧ : ٥ ـ ٩) . أما سوسيباترس فقد يكون من بيرية وحمل تبرع كنيسته إلى كنيسة أورشليم (أعمال ٢٠ : ٢) . أما غايس فقد يكون أحد الشخصين اللذين عمدهما بولس فى كورنثوس (١ كورنثوس ١ : ١٤).

وللمرة الأولى والوحيدة نعرف إسم سكرتير بولس الذى دون الرسالة بقلمه ، عندما كان بولس يمليها عليه ، وهو ترتيوس ، الذى سجل تحيته . أما بقية سكرتيرى بولس فلم يسجلوا أسماءهم ، وهكذا يقف ترتيوس ممثلا لهؤلاء الذين خدموا فى الخفاء .

ونرى فى هذه الفقرة أسماء يعرفها بولس بجملة واحدة ، إذ ليس عنده مكان لذكر المزيد عنهم ، ولكن هذه الجملة الواحدة تنقل أهم شىء عنهم . فغايس رجل الضيافة ، وكوارتس رجل الأخوة . وما أجمل أن يسجل التاريخ لشخص أنه رجل البيت المفتوح ، ولآخر أنه رجل القلب المحب . فإذا أراد أحد أن يسجل ملخصاً لحياتنا فى جملة ، فماذا عساه يقول ؟

النهاية . . . تمجيد !

وَلِلْقَادِرِ أَنْ يُثَبِّتَكُمْ حَسَبَ إِنْجِيلِي وَالْكِرَازَةِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ حَسَبَ إِعْلاَنِ السِّرِّ الَّذِي كَانَ مَكْتُوماً فِي الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ . وَلٰكِنْ ظَهَرَ الآنَ وَأُعْلِمَ بِهِ جَمِيعُ الأُمَمِ بِالْكُتُبِ النَّبَوِيَّةِ حَسَبَ أَمْرِ الإِلٰهِ الأَزَلِيِّ لإِطَاعَةِ الإِيمَانِ . لِلّٰهِ الْحَكِيمِ وَحْدَهُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ . آمِينَ . كُتِبَتْ إِلَى أَهْلِ رُومِيَةَ مِنْ كُورِنْثُوسَ عَلَى يَدِ فِيبِي خَادِمَةِ كَنِيسَةِ كَنْخَرِيَا .

(رومية ١٦ : ٢٥ -- ٢٧)

يختم بولس رسالته بتمجيد لله يلخص فيه جوهر الإنجيل الذى يكرز به :

١ ــ إنه الإنجيل الذى يجعل الإنسان قادراً على الوقوف بثبات . « يا ابن آدم ، قم على قدميك ، فأتكلم معك » (حزقيال ٢ : ١) ، فقوة الإنجيل تجعل الإنسان يقف منتصباً ثابتاً ضد القلاقل والصدمات والتجارب . سجل أحد الصحفيين حادثة حدثت فى الحرب الأهلية الأسبانية ، فقد كانت فرقة صغيرة محاصرة ، وعندما اقتربت النهاية أراد بعض أفرادها أن يسلموا لينجوا بحياتهم ، ولكن البعض فضلوا القتال حتى النهاية ، وأخيراً تحدد الموقف عندما قال أحد الشجعان : « من الأفضل أن نموت ونحن واقفين من أن نعيش ونحن راكعين » . إن الحياة صعبة ، وقد يسقط إنسان تحت حمله ، وقد ينزلق إنسان فى مهاوى التجربة .. ولكن إنجيل المسيح هو قوة خلاصنا التى تحفظنا سالمين لنقابل متاعب الحياة ونحن واقفين ، حتى لو كانت الحياة فى أردأ حال .

٢ ــ إنه الإنجيل الذى أعلنه يسوع المسيح ، وهو أصله ، ولكن البشر

يكرزون به . ولا يكون الإنجيل خبراً مفرحاً بدون المسيح ، ولكن بدون البشر لايمكن للناس أن يسمعوا بأخبار الإنجيل . ويبدأ الخبر المفرح بأن يجد المسيح الشخص ، فيذهب ليجد آخرين للمسيح . لما وجد أندراوس يسوع ذهب إلى أخيه بطرس ليعلن له أنه قد وجده (يوحنا ١ : ٤٠،٤١) . وهذا إمتياز المسيحى كما أنه واجبه ، فامتيازه أنه وجد يسوع ، وواجبه أن ينقل أخبار يسوع . فى قصة قديمة أن يسوع عاد إلى مجده بعد الصلب والقيامة ، حاملا آثار الصلب . فقال له أحد الملائكة : « لابد أنك قاسيت الكثير من البشر ـ هل عرفوا جميعاً بما فعلته لأجلهم ؟ » فأجاب يسوع : « لا . ليس بعد ، فقليلون فقط هم الذين عرفوا فى فلسطين » فسأل الملاك : « وماذا عملت لتضمن أنهم كلهم يسمعون ؟ » فأجاب يسوع : « لقد سألت بطرس ويعقوب ويوحنا أن يخصصوا نفوسهم لتعريف الناس ، وكل من يعرف يعرّف غيره ، وهكذا تصل الرسالة إلى كل الناس » . ونظر الملاك بشك ، فهو يعرف نقاط الضعف فى هؤلاء البشر ، وعاد يسأل : « لكن ماذا يحدث لو أن بطرس ويعقوب ويوحنا نسوا ؟ وماذا يحدث لو أنهم تعبوا من العمل ؟ وماذا يحدث لو أن الناس فى القرن العشرين مثلا أهملوا فى إعلان رسالة محبتك ؟ هل لديك تخطيط آخر ؟ » فأجاب يسوع : لم اعمل أى تخطيط آخر . إننى اعتمد عليهم » . لقد مات يسوع ليعطينا الإنجيل ، وهو يعتمد علينا لإعلان أخباره السارة للجميع .

٣ ـــ الإنجيل يكمل التاريخ ، فقد كان موجوداً فى الأزمنة القديمة ، وتم إعلانه فى مجىء المسيح إلى العالم . وبمجىء المسيح حدث شىء عظيم ، فقد غزا الأزل عالم الزمن ، وجاء الله إلى العالم . وكل التاريخ يدور حول مجيئه ، فقبله جرى الاستعداد لمجيئه ، وعند مجيئه تغير العالم كله ، ولا يمكن أن يعود إلى ما كان عليه . إن مجىء المسيح هو الحادث المركزى فى التاريخ ، فنقول : قبل الميلاد ، وبعد الميلاد ، فإن مجيئه قد بدأ الحياة الجديدة للعالم .

٤ ـــ والإنجيل لكل الناس ، وكان دوماً لكل الناس . لقد قصد به

اليهود ، كما قصد به الأمم أيضاً . وربما لم يكن أنبياء العهد القديم فاهمين لكل ما قالوه عن أن الإنجيل هو أيضاً للأمم ، ولكن الحقيقة أنهم أعلنوا وتنبأوا بدخول الأمم إلى الإيمان ، من كل البلاد . ولا بد أن نعمل الآن على توصيل الإنجيل لكل العالم ، لتغطى معرفة الله الأرض كلها ، كما تغطى المياه البحار ، البحار ، ولينال الإنسان مجد مساعدة الله فى تحقيق انتظاراته بإقبال الجميع إلى الإيمان .

٥ ـــ وهو إنجيل يهدف لأن يعرف كل الناس الله ويطيعوه على أنه الله الملك ، لا طاعة الدكتاتور المخيف الذى يحكم بالحديد والنار ، والذى يحطم كل معارضة ، ولكن طاعة الإيمان الواثق والخضوع الكامل الناتج عن الحب . . إنها طاعة القلب الذى يسلم نفسه فى محبة ليصبح كما يريده المحبوب . إن بولس لا يرى الإنسان خاضعاً لقوة إلهية جبارة ، لكنه يراه محباً واقعاً فى حب محب البشر ، الذى أعلن حبه أولا فى المسيح .

وها بولس يختم رسالة المجادلة بكلمات تمجيد الله ، إله المحبة الأزلية الأبدية !